

محمد السيد

عابر

دار الزيات للنشر والتوزيع

عابر: رواية

الكاتب: محمد السيد محمد

إخراج فني: الباشا عبدالباسط

رقم الإيداع: 27860 / 2019

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 844 - 092 - 8

Facebook Page: دار الزيات للنشر والتوزيع

E- mail: bentelzayat1@gmail.com

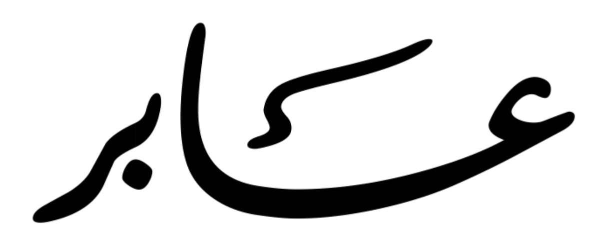
Website: www.bentelzayat.tk

01066736765 - 01011122429









رواية

الكاتب

محمد السيد محمد



إهداء

أهدي هذه الرواية إلى أحق الناس بها، والذين قد عانوا على مدار ثلاث سنوات -وهي فترة كتابة العمل- وعلى رأسهم زوجتي الحبيبة ورزقي الوفير من الدنيا وأم الأولاد.

ويلونها أبنائي قرة الأعين، **نوران** محمد السيد، **آدم** محمد السيد، **فريدة** محمد السيد.. وإلى من يرزقني الله به بعدكم إذا شاء.

لعل هذا الإهداء يصفح لي عندهم جميعًا في انشغالي عنهم، وعزلتي أغلب فترة كتابة الرواية، وأريدهم أن يعلموا أنه ما من شيء على وجه الأرض أحب إلى قلبي من الائتناس بهم، ولكن عذري الوحيد هو أنني حتى حين انشغلت عنهم فلقد كنت مشغولًا بهم، أعد لهم رسالتي، تلك المخبأة في هذة الرواية التي أعتبرها أهم ما أحب أن يرثوه مني، لكي يبدؤوا من حيث ما انتهى أبوهم، لعلهم يصلوا لما لم أصل إليه، فليحفظكم الله ويبارك لي بكم.

❊ ❊ ❊

استهلال

يا أيها الباحث عن السعادة في كل ما حولك من أحلام وطموحات قد تبنيتها خطأً.

أو في تلك الأشياء التي ظننت يومًا أن السعادة قد تكمن في امتلاكك إياها.

فقط استمع إليَّ جيدًا قبل أن تهدر الوقت الذي قد أتيح لك وهو محدد جدًّا، ولكي لا تفقد اللحظة التي تمتلكها الآن، والتي هي في الحقيقة كل ما لديك.

أهديك هذه النصيحة.

إن السعادة ليست في أي شيء حولك، وليست مخبأة في مكان ما في هذا العالم؛ إنما هي بداخلك أنت، فهي تنتزع انتزاعًا من أعماق روحك.

كل ما تحتاج إليه هو أن ترى نفسك جيدًا، ثم ابحث بداخلك عنها؛ لأن لكل منا سعادته الخاصة والفريدة جدًّا، والتي تكمن في معرفة هدف تلك الروح التي قد خلقت لأجله، ولكم مررنا بأشخاص قد

عاشوا وماتوا ولم يدركوا في أي شيء كانت تختبئ سعادتهم! وهناك من ضاعت أعمارهم في أوهام كانوا يعتقدونها مصدر سعادتهم! صدقوها، وآمنوا بها، وضحوا بكل شيء من أجلها، ولكنهم فطنوا في نهاية الطريق أنها لم تكن إلا أوهامًا قد بذلوا قصارى جهدهم لإقناع أنفسهم بها حتى أضاعت فرصتهم في أن يكونوا ذلك المخلوق الرائع المبدع السعيد على الأرض.

ولذلك فلتبحث بجد، ولتنظر في أغوار نفسك بعمق، ولا تخف مهما حدث.

فلتكتشف أسوأ ما فيك بشجاعة ولا تهرب، ولتنتشِ بجمال روحك إن وجدته، أيضًا حاسب نفسك ولا تذبحها، عاقبها ولا تقتلها، دللها ولا تفسدها، وإذا ما لاحت لك طرق الحياة المختلفة فلا تسلك طريقًا إلا بعد النظر إلى نهايته قبل أن تسلكه.

ولتسل من وصلوا إلى نهاية هذا الطريق قبلك؛ هل وجدوا ما سعوا إليه حقًّا يستحق ما أنفقوه فيه أم لا؟ بل وهل ظلوا هم أنفسهم نفس الشخص حين وصلوا أم لا؟ خشية أن يصرف العمر فيما لا يستحق،

ومخافة أن يذبح الحاضر ويضحى به من أجل مستقبل بائس مزيف كان من الأولى له ألا يطلب.

إنه أنا من يتحدث إليك، فقط أنا، لا أسماء ولا توصيف، يمكنك أن تعتبرني أحد العائدين من طرقٍ لم يكن من المفروض لهم أن يسلكوها ولكن قد ضللتهم أنفسهم ثم رأوا الحقيقة، ولكنهم رأوها متأخرة حين شارفت الرحلة على الانتهاء.

أو اعتبر أنني أنت ولكن في مستقبل لا أرجوه لك، وصدقني فهنا -وفي مثل هذا البعد من الإدراك- تكون معرفة الأسماء لا وزن لها، أو الظروف، الكل نفس الروح، نفس التكوين، فأنا كأنت وأنت كهو وهو كمثلهم وهم كمثل غيرهم، فقط ما نختلف فيه هو أن لكل منا حربه الخاصة التي نخوضها في تطهير أنفسنا وترجيح كفة النفخة الإلهية فينا على طموحاتنا الأرضية الساذجة، فلا تستهن بحرب غيرك لأنك لست هو، ولم تختبر ما اختبره، ولم تعش ما عاشه، واعلم أن ما قد نختاره ليكون قرارنا هو ما يحدد كل شيء، هل نتحاب أم نتباغض، نقترب أم نبتعد، نعلو أم نهبط، نسعد أم نشقى.

هذا أنا ببساطة وبدون تكلف أو سعي مني لجعلك تستمر في القراءة؛ فهذه رسالتي لمن سيستقبلونها، إلى أن نلتقي في نهاية الرحلة فحينها وحينها فقط قد نجد الفرصة لنروي ما كان لكل منا وما دار، ولسوف يروي كل منا كيف انتصر وكيف أبصرت روحه حقيقتها في مرآة الوعي والإدراك.



المقدمة

(آدم)

أنا آدم شاب في الثامنة والعشرين من عمري، أعيش في حي الخليفة الذي يقع في وسط القاهرة الفاطمية، وخلفي جبل المقطم، وإلى جانبي القلعة، إنها مصر القديمة بعمقها وطيبتها وسحرها، وأنا خريج معهد خدمة اجتماعية وأعمل كموظف إداري في إحدى الشركات، وأعيش وحيدًا بعد وفاة والدتي ووالدي رحمهما الله، ولقد كان والدي موظفًا حكوميًّا بسيطًا، إلا أنه أيضًا كان شيخًا وواعظًا بمسجد منطقتنا، وكان رغم بساطة مركزه الوظيفي إلا أنه كان ذا هيبة ووقار بين الناس، ولقد كانوا يحبونه، ولقد انعكس ذلك في معاملتهم لي بعد وفاته، وخصوصًا من الشيخ سعيد جارنا، والذي سأتحدث عنه لاحقًا، ولقد كانت تلك السطور هي أولى محاولاتي لكتابة مذكراتي، فلقد راودتني الفكرة كثيرًا ولكنني لم أجد شيئًا في حياتي يستحق أن أذكره، إلى أن وجدت أنني أخسر في كل يوم حلمًا من أحلامي وأتنازل عنه، وبمرور الوقت أنساه

وقد تكرر هذا كثيرًا، والغريب أنني أصبحت عندما أنظر إلى المرآة أجد شخصًا آخر لا أعرفه، قد أخذ شعره يفارقه وزاد وزنه وأصبح يشبه أشخاصًا كنت أراهم وأنا صغير وهم يتحركون في هذه الحياة كما لو كانوا يؤدون دور الكومبارس الصامت، نعم لقد كانوا عاديين إلى أبعد درجة، وهنا شعرت بالخوف وتذكرت أحلامي وطموحاتي فخشيت أن أنسى ما بقي لي منها.

فقررت كتابة مذكراتي وما تبقى من تلك الأحلام لأذكر نفسي بها؛ فأنا ما زلت مؤمنًا بنفسي وبأنه يومًا ما ستأتي فرصتي لتغيير كل ما حولي وبأن ما أنا فيه الآن مجرد مرحلة وستنتهي.

أحب الشعر والأدب والقراءة والفيزياء وكرة القدم، وأعتقد أنني أمتلك ذكاء في جوانب كثيرة، ولكنني لا أمتلك الكثير من الذكاء الاجتماعي، فلقد كانت هناك دائمًا تلك الغمزات واللمزات في كلام بعض الأصدقاء التي لم أفهمها مهما حاولت.

مثل تلك العبارات التي قد يقصد قائلها أن ينتقص منك أو من شيء تفعله، حين يتحدث أحدهم عن إنجازاته في فخر ثم يسألك بلهجة متعالية وأنت ماذا تفعل الآن؟

فأجد نفسي أجيب ببراءة، فيبتسم ويعلق تعليقًا ساخرًا، أو يعرض عن الحديث ويغير مجراه في تجاهل لما قد قلت، ثم أدرك حينها أنه كان يقصد إهانتي أو التقليل من شأني فأنصرف وألوم نفسي على أنني لم أدرك ذلك حين قذف به في وجهي، وأنعت نفسي بالغبي.

إلا أنني وبمرور الوقت قد أدركت أن هذا إن كان يدل على شيء فهو يدل على طيبة سريرتي وليس على غبائي كما كنت أظن؛ فكوني لا أدرك هذا الخبث فهذا يعني أنني ليس بداخلي خبث، فلكي تدرك أي قيمة فلا بد لك من أن تمتلك ولو جزءًا من هذه القيمة بداخلك؛ فمثلًا لو لم تكن تحتوي على بعض الشرف داخلك فلن تفهم أبدًا معنى الشرف وهكذا وبهذه الطريقة رُحت أعيد صياغة المفاهيم من حولي لتتناسب مع طبيعتي دون أن أخذل نفسي أمام نفسي، ولقد تعلمت أنه يجب على المرء أن يفرح حين يكتشف أنه غير قادر على فهم أي من تلك الرذائل؛ لأن عدم إدراكه لها لا يعد غباء؛ بل هو في حقيقة الأمر نقاء فيه ولا يجب أن يحزن من أفعال الناس هذه تجاهه، فلقد كان هذا ثمنًا زهيدًا لنقاء روحه فليتقبله برضا ولا يدع ذلك الشعور يدفعه للتغيير من طبيعته الطيبة

حتى يتحاشى رذائل الناس، لا؛ بل إن حفاظك على نقاء روحك هو أعظم ما فيك أيها الإنسان النقي..

المهم فأنا لا أريد السرد كثيرًا فأنا أملُّ سريعًا، بالأمس قد ذهبت إلى لقاء ريم التي قد أجهدت نفسها لتقنعني أننا مناسبين لبعضنا تمامًا، وأنا في الحقيقة لا أرى ذلك، وإن كنت لم أحقق أحلامي السابقة في عملي أو في دراستي فهذا سبب أدعى لأن أتمسك بتحقيق أحلامي القادمة فيمن ستكون زوجتي، خصوصًا وأنا رجل أعرف ما أريد بالضبط في شريكة حياتي؛ فأنا رجل يبحث عن امرأة ذكية حنون طموح، وفي نفس الوقت قنوع.

قوية حين أحتاج قوتها، وضعيفة حين أحتاج إلى ضعفها، وقادرة على احتواء رجل قد مر بعشرات التجارب والعلاقات وأتى إليها محملًا بخلاصة سحر كل امرأة قد عرفها، وقد علق في قلبه أجمل ما في كل تجربة فأصبح يحتاج إلى حواء تحمل كل النساء داخلها.

ولكنني دائمًا ما كنت أجد نفسي أبحث بلا جدوى؛ فهذه المرأة غير موجودة في محيطي، وأنا لن أقبل بأقل من هذا، فلتسامحيني يا ريم؛ فأنا

أتمنى لك السعادة الوافرة مع غيري، فأنت تمتلكين ستين في المائة فقط مما أريد وهذا لن يكفيني، قلتها كطير قد كسرت أجنحته ولكنه لا يزال يرفض يد المساعدة المقدمة إليه، وذلك ليقينه التام أن هذه اليد غير قادرة على مداواة جراحه.

قلت لها كل ذلك ورحلت وكنت أعلم أني قد جرحتها ولكنني لم يعد لدي ما أجامل به أحدًا، فلقد بلغت مني الإصابات حدها الأقصى حتى أصبح حفاظي على ما بقي مني هو الحق الأقدس لدي.

ثم إنني قد اعتدت في آخر كل تجربة أن أمر بأحداث متشابهة يمكنني تسميتها بأعراض إنهاء تجربة.

فإن أول ما أقوم به عادة هو أن أضيف اسمها إلى قائمة طويلة من التجارب الغير مكتملة، وقد أكتئب قليلًا ثم سوف أمر بأيام حزينة تثير مشاعر الندم داخلي وتذكرني بكل أحلامي الضائعة سلفًا لتقهرني،

فأنا أعرف ذلك الإحساس حين يتجاسر الماضي ويهاجم حاضري الذي أعيشه، حتى يتجسد ذلك الهجوم حتى في أدق تفاصيل يومي، كأن يعكس مدى الإحباط الذين يغمرني أثناء احتكاكي بأقراني بالعمل

والذين قد طغى عليهم فكر بلا قلب ولا رحمة؛ فلقد كانوا يشرعون لأنفسهم أبشع الصفات وأرذلها، ويصيغونها وكأنها كنزهم من الحكمة والخبرة التي قد حصدوها من سنيِّ معاناتهم وكفاحهم، فلكم كنت أتعجب منهم حين أراهم يخفون المعرفة عمن يحتاجونها ويطلقون على هذا (سر المهنة).

وحين كنت أرى محاولة أحدهم لتعقب زلَّات زملائه مطلقًا على ذلك (المنافسة)، وحين يسرق أحدهم مجهود من يرأسهم أو أن يخفي إنجازاتهم ويعبر عن ذلك بأنه (حقه الطبيعي)، وأن تنشر بين من هم تحت سلطتك النزاع وتجعلهم يكرهون بعضهم البعض هو بالنسبة لهم (قمة الذكاء في الإدارة) لكي لا يتفقون عليك يومًا ما، ولكي ينخرطوا في تجسسهم على بعضهم البعض بغية إرضائك.

وكثير من تلك الأمثلة لأفعال لا أخلاقية ولا إنسانية ولكن قد صاغتها لهم أنفسهم المريضة الطامعة في كل شيء،

المساكين لم يلاحظوا أنهم قد حقنوا بكل فيروس قد عانوا منه هم أنفسهم في بداية حياتهم، حتى أصبح وباء يجري في دمائهم، لم تكن

مناعتهم النفسية قادرة على التصدي لهذه الفيروسات الروحية، بل وقد أقنعوا أنفسهم بأن وباءهم هذا إنما هو ميزة جديدة قد أضيفت إلى شخصياتهم الفريدة المتفوقة كما يظنون في أنفسهم.

وكيف يمكن للطبيب إقناع مريض البهاق بأن بياض جلده مرض وليس جمالًا إذا راق لهذا المريض لون جلده الأبيض واستحسنه.

وفي نهاية الأيام الحزينة تلك لن تكتفي هذه الأحاسيس البائسة بما قد ألحقته بي من آلام الماضي والحاضر لا؛ بل ولكي تقضي على الأمل الباقي حتى في المستقبل، فإنها تذكرني أيضًا بأحلامي عن تطور حال البلد وتغيير حالتها إلى الأفضل، والذي قد أصبح مدعاة للفكاهة حين أذكره لاستحالة تحقيقه، وهنا يتحول العالم إلى مستنقع طافح بالتفاهات، وما يزيد من وحدتي ويؤلمني أنني لا أجد حولي من أستطيع أن أتخذه كقدوة، فأنا أرى أن غالبية أصحاب الأموال مستغلون للناس، وحتى الطيب فيهم يتعلل بأنه لا يقوي على تحدي الفساد وحيدًا.

وحين أنظر إلى أغلب المشاهير اليوم فأنا أجد أنهم قد منحوا أدوارًا في الحياة لا يستحقونها، وحتى حين بحثت عن علماء الدين فلقد

وجدت فيهم من كانوا منهمكين في نزاعاتهم وفي تضارب أقوالهم وأفعالهم وفي لوم بعضهم البعض، وقد سقط أغلبهم حين تركوا الناس عندما احتاج الناس إلى من يرشدهم حقًّا، فسقطت كثير من الأقنعة وظهروا كبشر عاديين لهم مخاوفهم وضعفهم وأطماعهم الدنيوية تمامًا كباقي البشر، ولم يحتفظ منهم بثقة الناس به إلا القليل، ولقد غير هذا قناعتي، بل وقد غير غالب ما كنت أومن به.

وهنا آمنت بصحة وجهة نظري وأكدت عليها لنفسي، بأن صفوة البشر الحقيقيين في هذا العالم هم أولئك البسطاء، الذين يتحدون ظروفهم للاستمرار في هذه الحياة على مبادئهم دون تفريط أو تذمر، في حالة غريبة من الرضا والأمل والقدرة العجيبة على تبني أمنيات مستقبلية لهم ولأبنائهم، ليعوضوا فيها ما قد أيقنوا عدم قدرتهم على نيله في حيواتهم هم، ممنيين أنفسهم بمستقبل من حولهم تمامًا كمتسابق قد أدرك أنه لن يربح السباق فقرر أن يتبرع بما بقي لديه من طاقة لغيره من المتسابقين ليساعده على الربح.

هؤلاء هم الأبطال الحقيقيون والذين يستحقون النجومية، لكن الدنيا غير عادلة مع أولئك العفويين الذين هم ثمرات الفطرة الصادقة

التي تناضل ألا تنقرض في عصر الزيف والتصنع والنكران الذي نعيشه...

وأظل هكذا إلى أن أقرر أن أزور الشيخ سعيد، شيخ الزاوية لدينا وجاري في نفس الوقت، والذي كنت قد حدثتكم عنه سابقًا، فلقد كان دائمًا ما يعينني بكلماته الطيبة الحنون، ويحاول تثبيتي حتى في أحنك اللحظات ويظل يبشرني بأن غدًا حتمًا سيكون أجمل، غدًا سوف تضحك على هذه الأيام حين تتذكرها، والحقيقة أن تلك الأيام هي التي كانت تضحك عليَّ وتغتال أحلامي وعمري، ولقد أصبحت مؤخرًا أتصنع أنني بحالة جيدة جدًّا عندما أراه شفقةً به وخوفًا عليه من تلك الهموم التي ألقيها عليه وأنا أعرف أنه ليس بيديه شيء ليفعله.

وأصبحت أحترف لعب دور المصدق لكل وعوده بالمستقبل لأشعره أنه قد قام بواجبه نحوي، فلقد كان دائمًا ما يذكرني بأن أبي كان بمثابة المعلم له والقدوة، فكنت أحاول أن أشعره بأنه قد قام بفعل شيء طيب تجاهي لأرى السعادة في عينيه فأنا أحبه كثيرًا.

حتى حين كنت أختلف معه في النقاش أحيانًا أو يصدمه تحولي عن الإيمان بما يراه هو بأنه من ثوابت الإيمان، فلقد كنت أعود سريعًا

لأتصنع قبول وجهة نظره حتى لا أرهقه في نقاشي، وأظل أخفي داخلي تلك الآراء التي عرفت مكانها إلى روحي فأصابتها في كل ركن من أركانها بجروح بالغة لا يمكن لأحد أن يراها، بل كنت أنا فقط من يراها.

وأتابع على هذا النحو حتى تنتهي تلك الفترة المحبطة وأشعر بالملل من إحساسي بالملل، وحين يمتلكني الحزن وأظن أني قد هزمت كليًّا أجد نفسي أخرج من كل هذا وأبدأ من جديد ممنيًا نفسي بكل ما تريده وترغب فيه من دون سبب معلوم.

وأظل هكذا وكأن عقلي يفكك ثم يعاد تركيبه مع كل تجربة فشل جديدة، فأنا في داخلي أرفض الاستسلام لكن لا بأس من الاستمتاع ببعض المعاناة حين تأتي.

ولقد كانت لدي وسيلتان أستخدمهما كوسائل للدفاع عن نفسي في مواجهة كل ذلك.

أولهما وسيلة كنت أصنعها بنفسي بأن أتنكر لكل ما أنا فيه وأسرق من يومي لحظات أترك فيها خيالي يرسم ملامح حياتي الناجحة المترفة، فأكون جسدًا يمشي بين الناس تاركًا روحي في الكون الخاص بي الذي

صنعته من خيالي كليًّا، وكان هذا يعينني على أن أتحمل ممارسة واقعي ويعطيني بعضًا من السعادة التي كانت تترك أثرها في بريق عيني ولو للحظات.

وأما الوسيلة الأخرى فهي لم تكن من صنعي؛ بل كانت تلك الرؤى التي أراها، فلقد كنت منذ طفولتي أرى تلك الأحلام ولم أكن أهتم بها إلى أن أدركت في يوم ما أنها تبدو وكأنها إشارات أحيانًا، وتنفيس عن الواقع أحيانًا أخرى، وهذا يحدث لكل البشر تقريبًا، ولكن هناك من يدرك ويهتم بأن يفهم تلك الإشارات وهناك من لا يدرك ذلك أو حتى يعيره أي اهتمام، وفي الحقيقة هي لم تكن مجرد أحلام عابرة؛ بل تطورت وأصبح يمكنني بعد قليلٍ من التركيز بها أن أتحكم فيها وأتلاعب بأحداثها أثناء نومي، فلقد كنت أدرك وأنا في منتصف حلمي أنني أحلم، ومن هنا أبدأ في تغيير أحداث الحلم ومفرداته، وأجعل منه ما أريد، وأخوض تلك التجربة بعمق فأستيقظ وكأني جئت من عالم آخر قد صنعته بيدي.

فكل ما لم أستطِع الحصول عليه أو فعله في الواقع كنت أعيشه في أحلامي كما أريده، وقد عشقت هذا الشيء لفتره من الزمن حتى بدأت

الأحلام تحدثني عن تفاصيل الواقع وتقدم لي الإشارات دون سيطرة مني عليها، وعندما أستيقظ أجد تلك الإشارات مفهومة جدًّا وأستطيع ترجمتها وفهم ما ترمز إليه في واقعي.

وزاد فضولي مع الوقت واهتمامي بذلك الجانب من الغيبيات وعلوم الطاقة والتأمل وقد سمعت بعدها عن

(تجارب الخروج من الجسد **(Out Of Body Experience)**)

أو ما يسمى (بتجربة الاقتراب من الموت **(Near to Death Experience)**). والتي قد تم إعادة اكتشافها حين مر بها بعض الناس الذين قد تعرضوا لحوادث قاسية جدًّا وكانوا قريبين من الموت بشدة.

فلقد أكد بعضهم على أنهم كانوا يشاهدون كل ما يحدث في نفس اللحظة التي كانت فيها أجسادهم في حالة غيبوبة أو ملقاة على الأرض في وقت الحادث.

بل وإنهم يصفون الأحداث بدقة بالغة، فقرأت عنه وحاولت أن أقوم به عدة مرات ومما شجعني على ذلك هو كونه لا يتطلب أي طقوس معينة لتنفيذه؛ فلقد كان يحتاج فقط إلى قليل من التركيز والتأمل ثم ينفصل وعيك وينطلق عقلك الباطن في التحكم في كل شيء ومن ثَمَّ

يمكنك فعل أي شيء تريده، وهنا يقوم عقلك الباطن بلعب دور جني المصباح؛ أي إن عقلك الباطن سوف يتكفل بإنتاج أي شيء تريده بحرفية بالغة.

وللتوضيح أكثر فإن ما يحدث لنا أثناء النوم هو كالآتي:

حين نشرع في النوم فإن أجسادنا تدخل فيما يسمى بالشلل النومي، والذي يمنع أجسادنا من التفاعل مع ما نراه في أحلامنا، ولكن ولكي يدخل الجسد في هذه الحالة فهو يقوم أولًا بالتأكد من أن العقل الواعي لدينا قد تنحى جانبًا، وقد تملك عقلنا الباطن زمام الأمور، ولكي يتأكد من هذا فإن الجسد يقوم بإرسال اختبارات للوعي كأن تشعر مثلًا بأنك تريد أن تحك جلدك أو أن تتقلب، وكلما استجبت أنت لتلك الاختبارات فإن عقلك الباطن يدرك أنك ما زلت واعيًا، فهو لن يسمح للجسم بالدخول في حالة الشلل النومي إلى أن يتأكد من ذلك.

ولكن وبمجرد أن تتجاهل تلك الاختبارات التي يصنعها لك عقلك الباطن ليستأذن في الصعود والسيطرة على كل شيء فإنك ستشعر بالدخول في مرحلة من الشلل الجسدي، ثم يتبع ذلك تنميل خفيف، ثم تتلاحق الصور والأصوات وكأنها تحذيرات من عقلك الواعي ألا تفعل

هذا، ولكن بعد تجاهلك كل هذا، فجأة تشعر وكأن أحدًا قد لمس مؤخرة رأسك ويحدث الانفصال ويسود الصمت للحظات، وبعدها تكون قد دعيت لحضور حفلة إنتاج أول أفلامك الخاصة بأحدث تقنيات التجسيم، لدرجة أنك لن تستطيع التمييز بينها وبين الحقيقة، إنه عالم الأحلام ولكن بسيطرة تامة منك على أحداث تلك الأحلام.

ولكن هناك مشكلة في مرحلة إخراج الوعي إلى خارج حدود جسدك فهي في منتهى الصعوبة، وهناك فريقان أحدهما يقر بأن الخروج من الجسد هو خروج حقيقي بوعيك إلى العالم الخارجي، وأنه نوع من أنواع التواصل مع الكون، أما الفريق الآخر فهو يؤكد أنه مجرد إتاحة الفرصة للعقل الباطن في الخروج وإنتاج الصور والأحداث التي يريدها العقل الواعي، أي إن كل ما تشاهده يحدث في عقلك الباطن فقط، أي إنه درجة رفيعة من التحكم في الأحلام وهذا ما كنت أميل إليه.

ولكني كنت دائمًا ما أقف في مرحلة معينة ولا أتمكن من تخطيها، فأنا لم أستطع يومًا تنفيذ الانفصال الكلي عن جسدي، وبعد محاولات عديدة باءت جميعها بالفشل قد تركته واكتفيت بقدرتي على التحكم في أحلامي وهذه تسمى (الأحلام الواعية (**lucid Dreams**)).

ولكني لم أتمكن من التحكم في كل الأحلام؛ فلقد كانت هناك تلك الأحلام التي تخرج عن سيطرتي، كالأحلام التي بها إشارات أو علامات للواقع، والتي لم أتمكن يومًا من السيطرة عليها ولم تكن مباشرة المعنى، فلقد كانت دائمًا مرموزة.

فمثلًا قد رأيت يومًا أن التراب الكثيف يملأ منزلي ولم أفهم معناه في وقتها، ولكني حين بحثت في كتب المفسرين فقد علمت بأنه مال سوف يأتيني، وبالفعل قد أتى المال سريعًا بعدها، وهناك العديد من الرؤى المرموزة التي تحققت.

ولقد كانت في بعض الأحيان تخبرني بأشياء بعيدة كل البعد عما يتوفر لدي من معلومات أو معرفة، ولقد كان عدم توافر المعلومات وجهلي بمدلول الترميز شيئين مهمين جدًّا لي؛ فلقد كانا هذين السببين يمثلان الدليل على أن تلك الرؤى ما هي إلا رسائل قد أرسلت إليَّ حيث أنني لو كنت أدرك معنى الرمز أو إن كانت تتوفر لدي معلومات يمكن لعقلي الباطن تحليلها مثلًا، فكيف لي ألا أظن أن هذه الأحلام من إنتاج عقلي الباطن أو أن تكون عبارة عن موهبة لدي أو قدرة رهيبة في

استنباط المستقبل؟! ولكن كونها مرموزة على هذا النحو وبعيدة عن دائرة معرفتي، كان دليلًا لي لأتأكد من أنها من خارج قدراتي أو توقعاتي العقلية، إنما هي مرسلة إليَّ ولها أهداف، المهم أنني وبعد أن نسيت هذا الخروج من الجسد تمامًا ومرت أكثر من ثلاث سنوات على آخر محاولاتي لتنفيذه، حدث لي شيء غريب قد قلب لي حياتي رأسًا على عقب...



الفصل الأول

(عابد)

بعدما أنهيت لقائي بريم وعدت إلى بيتي سيرًا من ميدان التحرير، أفكر في كل ما حدث، وأتوقع أن يبدأ باقي السيناريو السابق ذكره، فلقد عدت إلى البيت وأنا مرهق بشدة وقد تعمدت أن أنهك نفسي بالسير حتى أتمكن من النوم دون تفكير في ليلة كتلك الليلة الممتلئة بالألم والأفكار، وبالفعل دخلت إلى سريري ونمت بعمق دون أي مقدمات، وإذا بي أستيقظ بعد فترة قليلة من نومي لأجد نفسي محلقًا بسقف غرفتي أنظر إلى جسدي الملقى أمامي على السرير، والذي كان يغط في ثبات عميق نائمًا حتى القاع، فاتحًا فمي الذي يصدر شخيرًا في غاية الإزعاج، لم أستوعب ما حدث، إحساس مرعبٌ حقًّا، أين أنا؟! وكيف ابتعدت عن جسدي؟! وهل أبدو كذلك حقًّا وأنا نائم؟! وتسارعت دقات قلبي بشدة حتى صرت أسمعها بوضوح، كنت أبدو كطيف شفاف بعيد عن جسدي، وأخذت أتفقد الغرفة، كان كل شيء يبدو طبيعيًّا إلا أن

الصمت والسكون إلى هذا الحد قد أخافني، فأنا لم أعتد على هذه الدرجة من السكون من قبل، ولقد باءت كل محاولاتي السابقة بالفشل في تخفيض صوت الضجيج القادم من الشارع، وهذا أمر يعتاده من هم من أمثالي من قاطني الأحياء الشعبية، ولكن هذا الهدوء المبالغ فيه قد أرعبني، فتوجهت إلى النافذة لأتفقد الشارع فكان كل شيء كما عهدته، المارة كما هم والضحكات المنبعثة من رواد قهوة المعلم بحر، وصوت قطع الدومينو على الرخام، ولكن تلك الأصوات لا تصل إليَّ لا أدري لماذا، وكأنها حجبت عني!

وفجأة شعرت بالقلق من خلفي فالتفتُّ وإذا بي أفاجأ بشخص يقف بالقرب من جسدي النائم ويتفحصه كأنه ينظر إلى تمثال أو مومياء فصرخت صرخة مدوية من الفزع وإذا به يصرخ فزعًا مثلي تمامًا ثم يلتقط أنفاسه قليلًا ويقول في حيرة وخوف من أنت وكيف يمكنك رؤيتي؟!

بصوت لا يكاد يخرج همست: بل من أنت وماذا تريد (بسم الله الرحمن الرحيم).

هنا أخذت تزول عن وجهه ملامح الخوف وظلت الحيرة فقط ولكنه تمالك نفسه وأجاب: أنا عابد، اسمي عابد لا تخف مني.

فقلت: كيف لي ألا أخاف؟

قال: لا داعي للخوف، فقط أهدأ وقل لي ما اسمك.

فلم أجب..

فقال: ما بك يا رجل؟ وضحك ثم تابع فقط أخبرني من أي العوالم أنت؟!

فقلت: أنا!! أنا من هنا.

فقال: هنا أين؟

فقلت: أرجوك انصرف عني، فضحك أكثر، وقال: أنت تظن أنني عفريت وعلت ضحكاته.

فقال: يا أخي أنا اسمي عابد كما ذكرت لك وأنا شخص عادي، أتنقل عبر العوالم مثلك تمامًا.

فرددت في دهشة: مثلي أنا! ماذا تقصد؟ وما معنى متنقل عبر العوالم تلك؟

بدا عليه الاندهاش وكنت أنظر إلى وجهه لأتفحص ملامحه، ولكنها كانت ملامح طبيعية كشخص عادي، لم يكن مخيفًا ولكن فقط ما أخافني هو تواجده الغير مبرر بالنسبة لي.

صمت قليلًا ثم قال: هل تقصد أنك هنا ووصلت إلى هذا البعد مصادفة دون أن تدري؟!

قلت: أرجوك أنا لا أفهم شيئًا منك، وأخذت أقرأ قرآنًا لعله يختفي.

فقال في هدوء: يا أخي اهدأ واقرأ ما شئت، فأنا لست بعفريت كما تظن.

فقلت: فماذا تكون إذن؟

فقال في حدة: قد قلت لك أنا عابد، وماذا عنك أنت؟

فقلت متلعثمًا من الخوف: اسمي آدم.

فقال: مرحبًا بك يا آدم، هل تعرف أين نحن؟

قلت: نعم، أنا في غرفتي، فضحك ثم قال: يا آدم هل تعلم أنك الآن في المنطقة الزمنية الفاصلة بين عالمين موازيين، وهي المنطقة التي يجب على المرء المرور من خلالها للانتقال بين العوالم؟ وأعتقد أنك قد أتممت

عملية خروج الوعي من الجسد لكي تحرر جسدك الأثيري من الجسد المادي لتستطيع الولوج إلى هذا البعد، ولا أدري كيف فعلت ذلك دون أن تدري! هل تفهم شيئًا مما قلت يا آدم؟ فلم أنطق بكلمة.

فقال: آدم هل سمعتني؟

قلت: نعم ولكني أحاول أن أستجمع تركيزي لأدرك ما إن كنت أحلم أم لا، هذا مستحيل! اسمع أنا.... أعرف الخروج من الجسد، كنت قد قرأت عنه وحاولت فعله ولكنني لم أوفق فيه أبدًا، وأما ما قلته عن العوالم وهذه الأشياء فأنا لا أفهمه.

فقال: تقصد أنك لا تدري شيئًا عن العوالم الموازية؟

فقلت: فقط أعرف أنه كان هناك فرضية قرأتها مرة على سبيل التسلية ولم يجرؤ أحد على التأكيد على مثل هذا الفرض.

فقال: أحب أن أخبرك أنك حين تعود إلى عالمك الأصلي ستكون أنت من يجزم بها يا صديقي.

فقلت: انظر، يبدو أنني أحلم، وأنا أريد أن أتأكد من ذلك، فإن كنت أحلم فإن تلك ستكون فرصة عظيمة لأتحكم بهذا الحلم وأستمتع به قليلًا لعلي أغير من مرارة واقعي قليلًا وفي تلك الليلة بالتحديد.

فقال: على راحتك، ولكنني وللأسف ليس لدي وقت ولا طاقة لأهدرها هنا، وداعًا يا صديقي، حظًّا طيبًا.

فقلت: أين تذهب؟

فقال: أنا لدي مهمة يجب عليَّ إنجازها ولا أدري إن كنت تعلم أم لا، إلا أننا الآن بين عالمين، وهذا البعد يهدر الطاقة بقوة، ولا يمكنني البقاء فيه كثيرًا، وأنصحك أيضًا أن تذهب مباشرة إلى وجهتك دون إهدار لطاقتك وإلا علقت هنا.

فقلت مشدوهًا: ماذا؟ أعلق هنا! كيف؟!

قال: تعلق هنا في هذا البعد وتتحول مع مرور الزمن إلى مرشد روحاني، أو تظل سائحًا هكذا بين العوالم ولكنك لن تستطيع الولوج إلى عالمك مرة ثانية، وسيدخل جسدك في عالمك الأساسي في حالة من الغيبوبة إلى أن يشاء الله.

فقلت: ماذا؟ وكيف أتحرك من هنا؟ وأي طاقة تتحدث عنها؟ أنا لا أفهم شيئًا مطلقًا أرجوك.....

- آه يا إلهي إذن لا تضيع لي وقتي، فقط اسمعني جيدًا، هناك سبعة عوالم متوازية، هذا ما قد عرفناه، وبينهم مناطق تفصل بين كل عالمين،

ولكي تتحرك بين تلك العوالم هناك أشياء يجب أن تدركها، مثلًا أنك الآن عبارة عن طاقة، هذه الطاقة عبارة عن طاقة جسدك الأثيري وطاقة روحك الإيجابية والسلبية وأحمال روحك وشوائبها وكل هذا يؤثر عليك، وهذه الطاقة تستنفد ولا يمكنك إعادة شحنها إلا في عالمك الأصلي، ولكي تدرك أهمية هذه الطاقة فأنت تراها هنا فقط في المنطقة الفاصلة بين العوالم.

وهي عبارة عن الهالة التي تحيط بك هذه، هل تراها؟ انظر حول جسدك، فنظرت حولي فإذا أنا محاط بهالة من نور، فقلت: نعم أراها، فقال: جيد، إذا لم يكن لديك الطاقة الكافية للولوج إلى العالم الذي تريده فلن تتمكن من الوصول إليه، ولن تكون قادرًا على خوض هذه الرحلة، وسوف يتوجب عليك أن تعود إلى عالمك وتزيد من طاقتك الإيجابية أو تنقص من طاقتك السلبية لتتمكن من المرور، واعلم أن كل زيارة تقوم بها إلى أحد العوالم فهي تجعل جسدك يهرم ويشيخ، ولكن ليس بالكثير، على الأغلب بمعدل سنة من عمرك في كل زيارة.

فقلت مستنكرًا: ماذا؟

فضحك قائلًا: لتعلم كم هو ثمين وقتي الذي أهدره معك الآن يا صديقي.

فقلت: ولم تفعل أنت ذلك؟

قال: لأجد نفسي، فأنا أبيع بعضًا من حاضري لأشتري به مستقبلي يا عزيزي.

فقلت: كيف؟

قال: أنا أسافر عبر العوالم لأجد نظرائي، فلكل منا نظير في كل عالم يكون بنفس الصفات، إلا أن له احتمالات وجود مختلفة واختيارات مختلفة وأيضًا أعمار مختلفة، فعندما تزورهم وترى حياتهم سوف تدرك الكثير عن مستقبلك يا عزيزي أو ماضيك الذي كان يمكن أن يكون مصيرك إذا ما كنت قد غيرت أحد اختياراتك السابقة، هل فهمت؟

- يا إلهي، هل هذا ممكن؟ يا لها من متعة!

- ولكنها باهظة الثمن يا آدم.

- إذن وماذا عليَّ أن أفعل لأخوض مثل تلك التجربة؟

- كل ما عليك هو تحديد وجهتك ومن ثم شحن طاقتك ثم تفكر في العالم الذي تريد الذهاب إليه بحسب ما يظهر لك في الكشف الأفقي أمامك، وبمجرد اختيار العالم تجد نفسك تسير إلى بوابته مباشرة.

- فقط هكذا؟

- نعم بالتأكيد.

- وكيف أعود إلى عالمي؟

- هذا أبسط شيء، فقط أغمض عينيك وفكر في الخروج من العالم الذي توجد فيه وستبدأ عملية الخروج إلى البعد الفاصل، ثم تكرر نفس الطريقة وتختار بوابة عالمك الأصلي لتلج فيه، مع استحضار الرغبة في الرجوع إلى جسدك مرة أخرى، وأغمض عينيك ثم افتحهما مرة ثانية تستيقظ في عالمك تلقائيًّا، وستجد نفسك في جسدك المادي.

- كم أنا سعيد بكلامك يا عابد، وأرجو أن يكون حقيقة وإلا فإن كان كل هذا من خيالي فلقد أصبح عقلي عبقريًّا حقًّا، قلتها وضحكت ثم قاطعني عابد قائلًا: الآن جاء دورك لمساعدتي.

فقلت: أنا؟

قال: نعم لقد أهدرت لي وقتي ويجب عليك مساعدتي.

فقلت: وكيف أساعدك يا عابد؟

قال: أن تساعدني في إيجاد نظيري في عالمك، فأنت يمكنك فعل هذا لي، وهكذا تكون قد وفرت لي وقتي وطاقتي عوضًا عما قد أهدرته معك

الآن، إلى جانب توفير سنة من الشيخوخة المبكرة، حيث إنني لم ألج عالمك الأصلي بعد.

فقلت: كيف؟

قال: أنت الآن رأيتني، فهو يشبهني تمامًا، وغالبًا ما سيكون له نفس اسمي، عابد أنور هلال، فقط أريدك أن تبحث لي عنه وتجمع لي بعض المعلومات عن حياته إن أمكنك، وأنا سأنتظرك غدًا لنلتقي وتأخذني مباشرة إلى مكانه، هل يمكنك ذلك؟

فقلت ضاحكًا: لا أدري ولكني أعدك إن لم يكن هذا حلمًا، وإن أنا تذكرت كل هذا حين أستيقظ، وإن استطعت أن أفعل هذا مرة ثانية غدًا فأنا سأساعدك من كل قلبي.

قال: إذن اتفقنا، إذا كانت هذه فقط هي كل مخاوفك فأنا أضمنها لك، فأولًا أنت لا تحلم، وثانيًا من المؤكد أنك ستتذكر هذا، وثالثًا ما دمت استطعت الخروج إلى هذا البعد مرة فهذا يعني أن عقلك قد عرف كيف يقوم بعملية الفصل، وهذا أمر يعتاده العقل كما تعتاد أنت أفعالك اليومية دون إجهاد، وبهذا أعتقد أننا متفقان، إلى اللقاء يا آدم، أراك غدًا.

تركني وذهب ففعلت كما قال، أغمضت عيني وأخذت أفكر في جسدي وفي عالمي، ثم غفوت للحظة ثم شعرت بوعيي مرة ثانية وكأني أستيقظ من نوم عميق، ففتحت عيني بحذر وأنا أترقب، وإذا بي أجد نفسي في سريري وفي داخل جسدي مرة أخرى. فأخذت أتحسس جلدي وأغلقت فمي الذي كان مفتوحًا على مصراعيه وابتلعت ريقي ونظرت إلى الساعة على الحائط فكانت السادسة صباحًا والشمس مشرقة وأنا متعب جدًّا وجسدي ثقيل ومنهك، وظللت في مكاني أراجع ما حدث وأحاول فصل الحلم عن الواقع، وهل كان هذا حلمًا إذن أم خروجًا من الجسد أم خروجًا من العالم إلى عالم آخر؟! ظل عقلي حائرًا وأنا أتنفس بصعوبة وفي رعب شديد.

ولكن نور الشمس الذي كان يدفئ وجهي قد ساعدني على الهدوء والاطمئنان وفجأة وثب اسمه إلى ذاكرتي، عابد أنور هلال، فسارعت بكتابة الاسم حتى لا أنساه، إن هذا الاسم هو مفتاح الحل، وضحكت، لقد جننت على ما يبدو....

ولم تأتِني الجرأة للبحث عن الاسم، وقلت لنفسي دعك من هذا، فهممت لتحضير إفطاري، ثم جلست أفكر وأتحدث إلى نفسي قائلًا:

وما المشكلة؟ دعنا نختبر هذا، فإن كل ما علينا فعله هو البحث عن الاسم على فيس بوك وسنرى، فلا تكن جبانًا.

وبالفعل أحضرت حاسوبي وبدأت بالبحث فإذا بي أجد عشرات الناس يحملون نفس الاسم قد ظهروا لي، وظللت أبحث إلى أن وجدته بينهم، إنه هو ولكنه يبدو أكبر في العمر من عابد، فلنذهب إذن إلى صفحته الشخصية لنرى عمره، وإذا به في الخامسة والأربعين من عمره ويعمل مدير مبيعات بإحدى شركات الأدوية، ومتزوج ولديه أطفال، يا إلهي! ماذا يحدث؟ هل يمكن أن تكون مصادفة؟! ولِمَ لا فإذا أنا وضعت أي اسم في محرك البحث فسيظهر لي أشخاص بهذا الاسم لا حصر لهم، ولكن ماذا عن الشبه؟ إن هذا الرجل يشبهه تمامًا، هل يمكن أن أكون قد رأيته أو تعرفت إليه يومًا ما ونسيته مثلًا؟! ومن ثم قام عقلي باستدعائه من ذاكرتي ليصيغ لي حبكة الخدعة كما يحدث بالأحلام، فنحن نرى وجوه أناس في أحلامنا نظن أننا لا نعرفهم ولكن الحقيقة هي أن عقولنا تسجل كل الصور التي تلتقطها أعيننا على مدار اليوم حتى وإن لم نركز فيها، وتسجلها وتعيد استخدامها لاحقًا في أحلامنا،

ربما كان هذا تفسيرًا صحيحًا، أنا حقًّا لا أدري، ولقد بدأ رأسي يؤلمني بشدة من كثرة التفكير والتساؤلات.

هنا رن جرس المنبه للعمل، يجب أن أذهب إلى العمل، ذهبت وكنت طوال الطريق لا أفكر في شيء سوى عابد، من أنت يا عابد وماذا تريد مني يا رجل؟

قضيت ساعات العمل كلها وأنا أفكر فيما حدث حتى أنهيت يومي بالعمل وعدت إلى بيتي وبداخلي خليط من الأحاسيس، الخوف والترقب والفضول والرغبة والفراغ، كل هذه العوامل ممزوجة في عقلي وتدفعني إلى إكمال الأمر، وما عليَّ فعله ليس بالشيء الكبير؛ هو فقط أن أنام وأرى ماذا سيحدث، ولكنني أخشى أن أكون قد جننت، أو ربما إن الوحدة قد أفسدت لي عقلي وأصبح يتلاعب بي، فأنا أعلم أن الوحدة قادرة على تدمير أقوي البشر، ولكن ماذا عن الرجلين والشبه بينهما؟! إن كنت سأعود إلى هذا الهراء فيجب عليَّ أن أبقي ذهني حاضرًا، ويجب أيضًا أن أبحث عن شيء يبرهن لي أن هذه الأحداث ليست فقط داخل عقلي وإنما هي أحداث حدثت في الواقع، وأنها بعيدة كل البعد عن أن

تكون مجرد تصوراتي العقلية المريضة، لأطمئن على نفسي وإلا فلقد جننت يا آدم وعليه العوض.

استمتعت بقليلٍ من الاسترخاء ثم ذهبت إلى حمامي الدافئ، وأثناء انسياب الماء الساخن على رأسي قلت لنفسي وماذا يخيفك؟ فلتعتبره فيلم السهرة ولا تكن غبيًّا، فلقد انتهى عصر الخرافات والأساطير، فقط استمتع بما يدور فأنت محظوظ أنه ما يزال هناك ما يدهش في عالمك هذا، حتى وإن كانت أسوأ احتمالاتك، فما المشكلة؟! فإن حدوث أي شيء في تلك الحياة الراكدة التي تعيشها إنما هي فرصة نادرًا ما تتاح لك فقط، تناول عشاءك اللذيذ وتعالَ لنمرح ونرى الأخ عابد وروايته، وبالفعل بعد العشاء جلست في غرفتي أنظر إلى نفس المكان الذي رأيت فيه عابد بدقة وبتركيز، فشعرت بخوف شديد ثم قرأت آية الكرسي لأتمكن من النوم مطمئنًا، ما هي إلا ثوانٍ من التفكير في كل الأحداث ثم يتبعها تلاحق للعديد من الصور في ذهني وبعض الأصوات الغريبة، ثم يتبع ذلك صور غير مكتملة وأشكال مرعبة قليلًا وأصوات غير مبررة، وكأن عقلي الواعي يرفض السماح للعقل الباطن بالنهوض والسيطرة،

بل ويحاول عقلي الواعي إيقاظي وتنبيهي عن طريق إخافتي وتهديدي بتلك الصور والأصوات لعلي أرجع عن ذلك، ولكنني تابعت متحديًّا كل مخاوفي تلك، إلى أن جاءت اللحظة التي يسكن فيها كل شيء وأشعر وكأن شيئًا ما قد لمس مؤخرة رأسي لمسة خفيفة وبعدها يحدث الانفصال، ثم يعود إليَّ الوعي ثانية وإذا بي أستيقظ مرة أخرى لأجد نفسي أمام عابد مباشرة وقال لي: أهلًا بك يا صديقي آدم، كيف كان يومك؟ هكذا تكلم بابتسامة تملأ وجهه.

كدت أن أموت من الرعب ولكنني قد تمالكت نفسي وأخذت أتنفس بعمق ثم قلت: أهلًا بك يا عابد، إذن أنت أصبحت حقيقة في حياتي ويجب عليَّ أن أتعايش معها.

ضحك قائلًا: أما زلت تشك في كلامي؟

- دعك من شكي وتوقف أنت عن الكلام ولتدعني أنا أدير الأحداث بطريقتي كما كنت أدير أحلامي سابقًا.

سكن عابد وتلاعب بعينيه يمينًا ويسارًا ساخرًا من محاولتي السيطرة على هذا الحلم كما كنت أعتقد، ثم قال: ولكني لست جزءًا من أحلامك.

فباغته قائلًا: لقد وجدت نظيرك يا عابد، ولكن هلا أخبرتني كم عمرك أنت؟! في محاولة مني في التصرف بذكاء وأخذ المبادرة في الحديث.

فقال: أنا في الخامسة والثلاثين من عمري زمنيًّا، ولكن جسديًّا قد أكون شيخًا في عقده الخامس وضحك ثانية.

فقلت: هو إذن يكبرك بعشر سنوات، فقال: فرحًا جيد جدًّا هلا ذهبنا إليه.

فقلت: كيف نذهب إليه؟

قال: سنعود إلى عالمك ومن ثم نذهب إلى بيته يا آدم ونقابله.

فقلت: وهل هذا ممكن؟

قال: ولماذا إذن كنت أطلب منك معلومات عنه؟!

فتذكرت أني لا أعرف بيته ولا أي شيء سوى حسابه على الفيس بوك.

فقلت: يا عابد ولكنني لا أعرف بيته أو هاتفه.

فصرخ فيَّ: كيف هذا؟ ألم أطلب منك ذلك؟ هل تظنني أعبث معك يا رجل؟! أهكذا تفي بعهودك لأصدقائك؟! وأخذ يكيل لي الاتهامات حتى شعرت بالإحراج الشديد.

قلت: أنا آسف يا عابد، ولكني لم أصدق، ولم أكن آخذ هذا كله بمحمل الجد، أنا آسف، سامحني، وأنا أعدك أني غدًا إن شاء الله سوف آتيك بعنوانه ولكن سامحني فأنا...

فقاطعني قائلًا: كفاك يا آدم، أنا أعتذر لانفعالي، أنا أفهم ما تريد قوله، فأنا أعذرك، ولهذا فلقد قررت أن أذهب معك إلى عالمك لأثبت لك صحة ما أقول ولنتواصل معه سويًّا ما رأيك في هذا؟! فقلت فرحًا يا أهلًا وسهلًا بك في عالمي يا عابد، وقلت في نفسي: الآن نكتشف من أنت أيها الحاذق وسنرى إن كنت عابد أم عفريتًا، أم إن عقلي المجنون هو من صنعك، أغمضت عيني استعدادًا للعودة، وما هي إلا ثوان قليلة ثم فتحتها لأجد نفسي في غرفتي ولا تزال الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

ولم أجد أحدًا بالغرفة، لقد كانت خالية تمامًا،كل شيء كان ساكنًا وهادئًا جدًّا، التقطت أنفاسي وذهبت إلى المرآة وأخذت أحدق في ملامح وجهي وحدثت نفسي قائلًا: أرأيت؟ إنها مجرد أحلام يا أيها المغفل، الحمد لله فلا يوجد عابد ولا عفريت؛ فهي مجرد أحلام ولكني أعترف

أنها كانت ممتعة ومحكمة التفاصيل، أحسنت أيها العقل الباطن سأكافئك لاحقًا، وضحكت وذهبت لأحضر كوبًا من الماء لأشرب وأعود إلى نومي بعد أن اطمأن قلبي وفهمت ما يحدث حولي، أحضرت كوب الماء وأثناء عودتي إلى غرفة النوم سمعت صوت حركة يأتي من غرفة نومي فاقتربت من الباب بحذر، وما إن فتحت باب الغرفة حتى وجدته يقف أمامي في عالمي، بل في غرفتي، وحين رأى الخوف في عيني قال ضاحكًا: ما بك يا رجل؟ أنا عابد! ألم نتفق على أن آتي إلى عالمك؟ لمَ يبدو عليك الذعر هكذا؟

فسقط الكوب من يدي وعلت أصوات ضحكاته وهو يجلس على الكرسي أمام نافذة غرفة نومي، كنت أشعر بخوف شديد منه لكني قد تمالكت نفسي سريعًا ثم توجهت إليه وأنا أخاطب نفسي اهدأ يا آدم وتنفس بعمق، إن أفضل شيء يمكنك فعله هو أن تعتبره صديقًا قد أتى لزيارتك إلى أن تستجمع قواك، فإن حالة الرعب تلك ستشتت تركيزك ويجب ألا تشعره بخوفك حتى لا تزداد ثقته بنفسه، بل يجب أن تتظاهر باللامبالاة ولتفتتح أنت معه الحوار ولتستدرجه في سرد حكايته ثم

أغرقه في وابل من الأسئلة في التفاصيل، فإن ذلك سوف يعطيك قليلًا من الوقت حتى تستجمع قوى عقلك.

فقلت له: اسمع يا عابد، ما دمت هنا وما زالت الساعة الثانية والنصف ليلًا ولن تتمكن من الحديث إلى نظيرك إلا في الصباح فنحن لدينا وقت كبير لنتحدث، هل تمانع في إجابة بعض أسئلتي؟!

فقال: نعم لا بأس ولكن بشرط، أولًا يجب أن تعترف أنني كنت صادقًا معك بشأن ما قلته لك، فها أنا الآن أمامك في عالمك بشحمي ولحمي، فلا داعي للخوف أو القلق أو حتى للشك في كلامي أليس كذلك؟

فأجبته أن نعم بالطبع، وتظاهرت بالاقتناع ولكنني في حقيقة الأمر كنت أعرف أنه لا يزال يتملكني الخوف الشديد والحيرة ولكني أحاول أن أخفي ذلك عنه.

قال بهدوء: إذن سل ما شئت الآن.

- أريدك أن تروي لي قصتك وأن تذكر لي بعض التفاصيل التي سأحتاجها عندما أحاول المرور إلى أحد تلك العوالم إن لم يكن يزعجك هذا.

فضحك قائلًا: قصتي أنا؟! إذا أخبرني في أي عالم تريد سماعها؟ فأنا لدي سبعة قصص عرفت منهم ست قصص إلى الآن وبقيت السابعة فقط لأعرفها، فقل لي أيهم تختار.

فسرحت فيما قاله قليلًا فوجدته محقًّا، وإنها لمتعة غير محدودة، يا له من محظوظ، وإذا بي أجده يعبث بمذكراتي التي كانت ملقاة أمامه على الطاولة فهممت إليها قائلًا: لحظة يا عابد هذه أوراق مهمة وخاصة.

ولم ألاحظ أنه قد قرأ كلمة مذكراتي المكتوبة على الغلاف.

فقال: فلتهدأ يا صديقي، إذا كنت لا ترغب في أن يرى أحد مذكراتك فهذا حقك وأنا لم أبحث عنها متعمدًا، أنا فقط وجدتها أمامي فأخذني الفضول لا أكثر.

فقلت: لا عليك يا عابد دعنا نكمل رجاء.

فقال: نكمل ماذا؟

قلت: نكمل قصتك.

فقال ضاحكًا: لا لا، فأنا رجل أخشى على أسراري أنا أيضًا.

فضحكت وقلت له: أنا فقط لم أعتد على اطلاع أحدٍ على أسراري يا عابد، هذا كل ما في الأمر، وإذا أردت فهي أمامك فلقد بدأت في كتابتها

منذ أيام قليلة فقط، فهي شبه فارغة، ولم أكن قد دونت بها أي شيء إلى تلك اللحظة سوى بضع صفحات.

فقال عابد: ولم أنت وحدك يا آدم؟! أين عائلتك؟

- أنا أعيش وحيدًا يا عابد، وهذا شيء قد اعتدته منذ زمن.

قال: أتمانع أن أقرأها يا آدم؟

هنا ترددت لا أدري لماذا ولكني لم أمانع.

شرع في القراءة وكنت أتابع تعبيرات وجهه وهو يقلب في المذكرات، فلقد قرأ صفحتين فقط ثم تركها وقال لي إن رائحة الحزن تفوح منها يا صديقي.

فقلت: وهل للحزن رائحة؟

فقال: بالطبع كما أن للفرح رائحة، كل شيء مترابط يا آدم، ولكن دعك من ذلك، فأنا أريدك أن تخبرني عن شيء ما.

فقلت: نعم، ولكن أجبني أنت أولًا هل زرت ستة عوالم حقًّا؟

فقال: لا؛ بل خمسة بالإضافة إلى عالمي الأصلي، ثم قام من على كرسيه ومشى خطوتين باتجاهي ووضع عينيه في عيني وقد طغت على ملامحه الجدية ثم سألني: لم تركت ريم يا آدم؟

لم يكن طرحه للسؤال طبيعيًّا، بل إنني شعرت كأنه يلومني، بل ويهاجمني انتقامًا لريم، فاجأني السؤال وكيف عرف، فهو لم ينظر بعمق حتى في مذكراتي، ولكنه بدا عليه أنه يعرف كل شيء، صمت قليلًا ثم قررت أن أجيب ببرود.

قلت: لم أستطع أن أرى فيها زوجتي، ولم أشعر أنها قادرة على احتوائي يا عابد، فأنا رجل خاض العديد من التجارب وأحتاج إلى امرأة مختلفة.

- وهل نجحت إحداهن في احتوائك من قبل يا آدم؟

فقلت: ليس بنسبة مائة بالمائة، ولكن هناك دائمًا تلك اللحظات التي كنت أشعر فيها بأن إحداهن قد اقتربت، ولكن سرعان ما كنت أكتشف النقصان في هذه التجربة ومن ثم أعود لأبحث من جديد لعلي أجد تلك المرأة التي أريدها.

فقال: أنت تدفع الثمن يا صديقي، إنها العدالة.

قلت: أي عدالة وأي ثمن؟

فقال: ثمن فتح أبواب كان عليك ألا تفتحها، وقلوب تركت فيها آثارًا لن تزول، وتركت هي على أسوار روحك جداريات حزينة ملونة بسواد الحزن لن تتمكن من أن تمحوها بسهولة.

لم كل هذا؟ وكيف تقول لي هذا؟ أنا.... فأسكتتني نبرته الحادة حين قاطعني قائلًا: أكنت تظن أنك سوف تدخل كل تلك التجارب وتخرج منها نفس الشخص ونفس القلب ونفس الروح لم ينقص منك شيء؟ كم أنت مسكين يا آدم! قالها في سخرية.

دافعت عن نفسي قائلًا: أنا لم أظلم أحدًا مطلقًا يا عابد، فهذا حقي بالاختيار.

- يا صديقي إن كل شخص يعبر في يومنا يترك فينا أثرًا ونترك فيه أثرًا، وإما أن يكون هذا الأثر صورة طيبة أو منظرًا خبيثًا، وأما أولئك الذين فتحنا لهم أبواب القلب أو تسللنا إلى قلوبهم فلا يغادر منا الآخر إلا وقد أخذت كل روح من الأخرى شيئًا وقد تركت كل روح في الأخرى شيئًا آخر.

إنا خلقنا هكذا، إن كل ذرة فينا تسجل كل ما يحدث وأثره يظل مترسبًا في قيعان أرواحنا، وأنت يا صديقي قد تركت داخلك كل امرأة عرفتها، عطرها يملأ عالمك كبصمة بصمتها على روحك، وكان هذا عقابك أن تراودك كل تلك العطور والبصمات لتبحث عنها دائمًا في

امرأة واحدة، وأنا أقسم لك أنك لن تجدها، فلقد أعطى الله لكل منهن عطرها الخاص، بصمتها الفريدة الغير متكررة. إن الحياة عادلة، عادلة جدًّا يا صديقي، لكننا نتسرع ونظن دائمًا أننا أبرياء، لكن في الحقيقة إن مشكلتنا تكمن في أن مرايانا لا تعكس صورنا الحقيقية؛ بل تجاملنا وتجملنا نفاقًا وخداعًا، ولسنا جميعًا بالشجاعة الكافية لمواجهة أنفسنا وتأديبها.

وقفت غاضبا مما قاله والحقيقة أنني شعرت بالضيق فلما رآني غاضبًا قال: سامحني يا آدم إن كنت فظًّا معك، ولكنك تذكرني بتجربتي وألمي، ولهذا قد ظهر غضبي المكتوم في حديثي معك، أرجوك سامحني فليس هناك أبشع من أن ترى مأساتك تعاد أمامك من جديد، فإن هذا يستدعي لك كل الآلام من قبرها ويفجرها في قلبك.

كان ما قاله عابد قاسيًا جدًّا عليَّ ولم أرغب حتى في التفكير به، وكان وجهي يعبر عن نكراني لاتهامه لي، إلا أن كلماته قد شغلت فكري حقًّا، أنا لم أرَ يومًا الحكاية من هذا المنظور، وهل يمكن أن يكون كلامه صحيحًا؟ وهل فعلًا إنني أعاقب الآن؟! لم أرغب في الانشغال بهذا كثيرًا وكان لا بد أن أرد عليه حتى لا يدرك ارتباكي أو تأثري بكلماته.

قلت: لا عليك يا عابد ولكن هلا أخبرتني عن قصتك في عالمك ولكن بشرط....

فقال: اطمئن يا آدم، فأنا لن أكذب عليك أو أخدعك مهما حدث يا صديقي.

بدا عابد صادقًا وصدقته وشرع يروي قائلًا: عندما بدأت ذلك السفر عبر العوالم كنت أبحث عن شيء فقدته في حياتي وكنت أريد أحد شيئين، إما أن أجد هذا الشيء في أحد احتمالات حياة نظرائي، أو أن أتعلم من أحدهم كيف استطاع أن يحيا بدونه، ولكنني حين رحلت إلى تلك العوالم لم أعد أنا نفس الشخص يا آدم، تغيرت أمنياتي وأفكاري، بل وتغيرت قناعاتي وتطلعت روحي إلى مستوى مختلف من الإدراك، إنها مرحلة من الوعي إذا توصلت إليها لا يمكن بعدها أن تعود الدنيا كما كانت، إنها نقطة التحول ومعاهدة السلام مع نفسك التي أثخنتها جراح الحروب المستمرة.

ولم يحدث هذا بسهولة؛ بل كانت كل رحلة تضيف شيئًا صغيرًا، وكان كل نظير منهم يعطيني خلاصة ما حصد من حياته إلى أن

اجتمعت الخيوط والتجارب ورسمت لوحة كونية بارزة المعالم أمامي ليس فيها مجال للشك أو التردد، وأصبحت أخيرًا أمشي في دنياي وأنا أعرف وجهتي، وقد كلفني ذلك أن أصبح جسدي كجسد رجل في عقده الخامس لكن روحي لم تكبر ولم تهرم يا صديقي.

قلت: وما هو هذا الشيء يا عابد الذي كان سببًا لكل هذا؟ هلا أخبرتني.

- ليس هو بل هي؛ هي يا آدم.

- أتقصد أنها كانت امرأة يا عابد! أفعلت كل هذا من أجل امرأة!!

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني

(عالم عابد الأصلي ومدينة رين)

- إنها نور يا آدم حوراء مدينة رين وفاتنتها، إن قصتي يا آدم هي قصة حب امرأة قد انتهت بي إلى منتهى الحب والسلام، وكما كانت البداية في كل أفعالنا دائمًا هي الحب، كانت بداية قصتي أيضًا به، فلطالما كان الحب هو المحرك وهو الغاية وهو الطريق وهو الطاقة العظمي وهو الحياة والموت والتضحية والشهادة والبقاء، وهو أيضًا النهاية يا صديقي، ولأن الحب هو أجمل ما فينا فلقد كان القلب هو محل نظر الله إلينا، لأن القلب هو مركز الحب.

كانت طفولتي مليئة بالسعادة، وكان أبي طبيبًا وأمي سيدة منزل، وكنا نعيش بقرية تدعى رين، وما أدراك ما رين يا آدم! السحر البسيط الغير متكلف، كانت كلها خضراء تشبه الجنة، لكنها ليست في السماء، وكانت إذا نظرت إليها من على الجبل الذي يعانقها بغيرة فيخفيها عن الأنظار كنت تسمعها تناديك قائلة: هلم إليَّ فعندي تنسى الهموم

وتشفى الأنفس الجريحة، أنا رين الجميلة حواء المدن وفاتنة السائرين، وها هو البحر عازف إيقاعي الماهر ينتظرك بأجمل الألحان وأنداها.

كانت كل البيوت ملونة بعفوية سكانها لكنها قمة في التناسق وكان البحر يغازل رين من كل جانب، وكان أهل قريتنا يشبهونها، فلقد كان الرجال وسيمين حادي الملامح كحدة صخور الجبل، والنساء كأنهن الحور العين، ما عدا نور؛ فلقد كانت فاتنة القرية وحوراءها النقية التي من نورها وفتنتها تتزين باقي الفاتنات، آه يا نور! كانت خمرية بعيون زرقاء، وكأنها الهجين الذي قد شارك فيه كل أجناس البشر لتصبح نور الخمرية الوحيدة في بلاد الشقراوات.

كان جسدها ممشوقًا قويًّا، لا يمكن لأي شيء أن يثبت فوقه لقسوة منحدراته، كانت إذا تحركت تشعر كأنها الماء يترقرق، وكان يتحرك كل شيء فيها، وإذا ابتسمت ملأت الكون إثارة وفتنة، وإذا نظرت إليك أيقظتك من شهوتك بحيائها وبراءتها.

كنت ظلها أينما ذهبت، كانت تسكنني وكنت لها كل الناس، ولكننا كبرنا وتلونت أرواحنا وأصبحنا كباقي البشر، مجرد بشر! وأصبحت أنا

لنور لا أزيد على كوني مجرد صديق، أنا يا نور مجرد صديق! يا له من وصف قاسٍ بغيض، انظر كيف يمكن لكلمة أن تبعدك عن شيء لطالما اعتقدت أنه جزء منك!

ورغم ذلك لم أكن أفقد الأمل في أنها وفي يومٍ ما ستنضج وستدرك قيمة ما أحمله لها، ولكن هذا اليوم لم يأتِ أبدًا، أتدري يا آدم عندما يعشق الرجل امرأة هذا النوع من العشق الذي يجعلك تظن أنها ليست من البشر، وأنها جنس آخر مختلف ليس لديه ما لدينا من مادية، وكأنها كائن روحاني، كل حركاتها كانت عبقرية حتى وإن لوحت بيدها في الهواء، أو حين كانت تداعب خصلة شعرها المتدلية بروعة على جبينها المنير في لفتة عابرة، كنت أرى هذا وكأنه لوحة فنية مبهرة، وكنت أسمع في تلك اللحظة أعظم الألحان الكونية التي كانت تعزف لي وحدي، إنه سحر العشق يا آدم الذي يصنع من أتفه تفاصيل المعشوق أحداثًا كونية يترقبها العاشق المسكين في ذهول، فلكم تمنيت أن أخفيها داخلي حتى لا يراها غيري من البشر، وكنت أجن إذا ما رأيت غيري ينظر إليها، كنت أصرخ داخلي: لا تنظروا لها، دعوها لي، إنها عالمي وجنتي، كان هذا

شعوري بها، وكانت هي أصعب دروسي في الحياة حين قالت لي: يا عابد أنت حقًّا طيب القلب وحنون ورجل ذو مستقبل واعد، ولكنني أبحث عن شيء مختلف، أنت تملك نسبة كبيرة مما أريده، لكنك لست كما أتخيل لزوجي أن يكون.

وكانت تلك المرة الأولى التي عرفت فيها معنى أن تموت وأنت حي بين الناس.

وتمر الأيام وأراها بعد ذلك تتجرع الإهانة والذل على يد أحد الحمقى في القرية، شاب متعجرف لا يزن في ميزان الرجال مثقال ذرة، وما زادني ألمًا وحسرة هو عندما جاءتني باكية فقلت يبدو أنها أخيرًا قد شعرت بي وبحبي لها.

إلا أنني قد اكتشفت أنها جاءتني تطلب مني أن أساعدها في إخراجه من مشاكله المادية بأن أتوسط له لدى الدائنين لتأجيل تحصيل أموالهم منه، هنا أدركت الحقيقة، الحقيقة هي أنها تدرك مدى حبي لها ولكنها تستغل ذلك، لأنها قد رأت في عيني الضعف، ولقد أيقنت أنها تمتلكني كعبد لديها، ولقد كان هذا هو الدرس الأول الذي حفر على قلبي.

إنه لا يجب على الرجل أن يحب إلى تلك الدرجة التي تنسيه نفسه ومكانته ودوره، ولا يجوز للرجل أن يدور في فلك المرأة مهما حدث فهذا منافٍ للفطرة.

وقلت: آه لو علم المحب أنه في تلك اللحظة التي يذبح فيها كيانه من أجل حبيبته تلك أنها ستكون نفس اللحظة التي تزهد هي فيه، وكأنها تقول إن اهتمامك الزائد جعلني أشعر بأنك متاح طوال الوقت، فلم يعد هناك ما يقلقني، فذهبت أبحث عما يقلقني قليلًا ومعها الحق، يجب أن يكون الرجل مثل المحيط وهي كمركب شراعي يبحر فيه.

كلما أبحرت فيه ورأت من عجائبه ولاح لها الشط أتاها بموجة هزت أركانها وقذفت بها إلى غياهب ثورته فتعود تحلم بالاستقرار على ظهره مرة أخرى، أنا أعرف كم هذا صعب على نفس العاشق، وبه مرارة، لكنه الدواء الذي يشفي ويطيل عمر ذلك العشق.

منذ تلك اللحظة ولم أعد أنا كما كنت؛ فلقد تغيرت نظرتي لكل شيء.

إن جرحك الأول هو ما يقتل كل شيء طيب داخلك، وهو المعلم، بل هو النيزك الذي يضرب عالمك ويقسمه إلى قارات ومحيطات بعد أن

كان كتلة واحدة من العواطف، وبالفعل قد أصبح أقرب الناس لي يقف على الشاطئ الآخر من بحيرة العقل والمنطق، تلك البحيرة التي يحرسها شبح النيزك الأول الذي يفزعك دائمًا حتى يذكرك بأن عالمك لن يتحمل ضربة النيزك القادم.

وتعلمت بل واحترفت ارتداء الأقنعة، وأصبحت عابر سبيل في حياة كل من تلاها من النساء، وأصررت أن أكون لحنًا جميلًا يسمع لمرة واحدة وينتهي قبل أن يمله المستمع، بل وفي أكثر لحظات المستمع إعجابًا وتأثرًا به تكون هذه هي لحظة اختفاء هذا اللحن حتى يظل ذلك اللحن حلمًا جميلًا عالقًا في الذهن لن ينساه ذلك المستمع المتيم أبدًا، فهذه هي طبيعتنا نحن البشر، نهيم شوقًا لما حرمنا منه وإن كان مزيفًا مصطنعًا، ونزهد فيما نملكه وإن كان أندر ما في الكون، ولهذا يحمل معظمنا تلك الأسطورة التي تدعى الحب الأول بعناية في ذاكرته، فإن هذا الحب في الغالب لا يكتمل، وإن هذا أجمل ما فيه؛ لأنه لن يكون الحب الأول إذا اكتملت حكايته، بل سيكون حينها حكاية جديدة من حكايات الملل المبعثرة على كوكبنا.

كان هذا ثأري لنفسي كما ظننت حينها، ولم أدرِ أن القدر كان يرتب لي حياة أخرى لأحياها، وبينما أنا عالق في آثامي واغتيالي لكل ما هو بريء ونقي داخلي إذا بنور تعود إلى عالمي مرة أخرى، فلقد اهتزت أركاني حين علمت بموت زوجها وذهبت لألقي واجب العزاء رغم أنني كنت دومًا أتهرب من لقائها ولو مصادفة؛ لأنني وبرغم كل ما فعلته بعدها إلا أنني كنت حين أراها أفقد كل ما تعلمته، ويهتز داخلي كل شيء، وكنت أكره هذا في نفسي، بل كنت أكره نفسي بسبب ضعفي أمامها، ولكنه كان يجب عليَّ أن أذهب لا مفر.

كانت قدماي تتقدمان وتتأخران في رهبة حتى وصلت ورأيتها، فإذا بها تقابلني بلهفة طفل يتيم قد أحيا الله أمه له مرة ثانية، لقد كانت باكية متلهفة، شاحبة نحيفة خائرة القوى، وكانت جفونها كليل مظلم منهك من ليالي السهر إلى جوار زوجها في آخر سنيِّ مرضه، وهاتان العينان الزرقاوان اللتان كانت تغار منهما السماء قد انطفأ فيهما ذلك البريق الذي عهدته سابقًا فقلت: تماسكي يا نور، البقاء لله.

فقالت باكية: أين كنت يا عابد؟

فلم أدرِ كيف أجيب أو ماذا تقصد وارتبكت.

كانت عينها صريحة ومباشرة جدًّا رغم عدم وضوح الكلمات، فلقد كانت تحتمل الكلمات احتمالات عديدة، كأن تكون مثلًا تقصد أنني مثل أخيها وكان يجب أن أكون إلى جوارها، أو أحد تلك السخافات التي يستخدمها الناس لمواراة أحاسيسهم، ولكن عينيها كانتا تصرخان وكنت أفهمهما، فلقد كانت تحدث عابد المحب، هكذا شعرت ولكن خوفي قد كبلني بالصمت.

فإذا بها تعري الماضي والحاضر وتفضح الكلمات بسؤال لم أحلم يومًا بأن تسألني إياه.

- لم تركتني يا عابد؟

ثم انهارت باكية وانهار الكبرياء والعقل والمنطق: ألم أكن طفلتك طوال العمر؟ لمَ لم تنهني؟ لمَ لم تقاتل جنوني وطيشي وتمنعني؟! لقد كنت طفلة عمياء يا عابد أرادت التمرد بغباء دون تفكير، ولقد تجرعت جزاء غبائي مرارة وخيانة وألمًا، وقد صبرت ولم يكن مسموحًا لي حتى بأن أعبر عمَّا بداخلي، وتحملت نتيجة اختياري كاملة وظللت إلى جواره زوجة مخلصة أصونه وأرعاه بالرغم من كل أفعاله، ولكنني الآن

أستطيع على الأقل أن أعترف لك يا عابد بأنني لم أقدر حبك، سامحني أرجوك، كفاني ما قد رأيت طوال الخمس سنوات الماضية يا عابد.

قلت: فقط اهدئي، لا عليك ولا تتكلمي.

قالت: قلها أرجوك يا عابد، قل سامحتك يا نور وخرت باكية.

فلم أجب ولقد اشتعل صدري بكل ما قد عانيته في تلك السنين ثم قلت: أهكذا وبهذه السهولة يا نور؟ وماذا أقول إلى تلك العبرات التي قد حفرت على وجهي؟ وتلك الليالي التي كنت أتوسل إليها أن تمر وتنتهي فلم تكن تستجيب؟ ماذا أقول لكل هذا؟! لا يا نور لقد حولتني من إنسان إلى جثة تمشي بين الناس، لقد صنعتِ مني شيطانًا فاجرًا هوى ليعصف بكل ما كان نقيًّا بريئًا في تلك الحياة، فلتتركيني فلقد اعتدت العيش في الجحيم.

وابتعدت عنها هاربًا بقلبي الذي كان يرجف في صدري، وحاولت أن أذكر نفسي بكل قسمٍ قد أبرمته لنفسي لكي لا أخضع لضعفها، وما إن استدرت لأبتعد عنها حتى جثت على قدميها وتمسكت بردائي وقالت: فلننقذ ما هو آت يا عابد، فلقد خسرنا ما مضى، يكفينا ما قد خسرنا، أتوسل إليك يا حبيبي.

وجثا معها حين جثت آخر أقنعتي، بل وسقطت أوراق أشجار الخمس سنوات ورقة تلو الأخرى، وتنفس قلبي من جديد وصرخ فيَّ حبها وتكلم عابد الذي قهرته داخلي بصوت قادم من مكان بعيد في أعماق نفسي: سامحتك يا نور.

وحين نطقت الكلمات لكأن حروف اسمها قد أشعلت في عيوني بكاء كنت أخفيه طيلة خمس سنوات، فلقد كنت أتحاشى نطق اسمها، فمجرد نطقه كان يؤلمني، قبلت يدي وبكت فلا أدري كيف انسالت دموعي أنا أيضًا وكان بكاؤنا عتابًا وشوقًا وندمًا وغفرانًا وحرمانًا، لم أعد أفرق بين دموعي ودموعها، كان لهما نفس المرارة في الفم ونفس الحرقة على خدينا.

فاجأتني قائلة: ولكني لم أسامحك يا عابد.

فقلت: أنا! لا لقد كنت أنت......فقاطعتني.

- وإن يكن، فكيف لم تنتزعني من نفسي؟! كيف تركت تلك الحمقاء الصغيرة تدمر حياتها؟ يا عابد كنت لي أبًا وأمًّا وحبيبًا، كنت عالمي، كيف تركتني يا عابد كيف؟

ضممتها وقلت: كفى أرجوك، قالت وهي بين ذراعي هل عشقت غيري يا عابد؟ لقد كانت تصلني أخبار عابد التي كانت تتداولها كل الفاتنات كسهام تطعن في قلبي، هل نسيت نور وكرهتها يا عابد؟ أخبرني.

فقلت: حاولت ولكني فشلت، كل ما استطعت فعله هو أن أخفيكِ بين ضلوعي فلا يراكِ الناس في عيني، فلقد كنت أخشى شفقة الناس على عابد المسكين.

فتشجعت وسألتني خائفة مترقبة: هل ما زلت تريد نور يا عابد؟

فقلت: وهل لي قلب آخر غير الذي تملكينه؟!

فتهلل وجها لكنها عادت ومسحت بيديها على وجهها وكأنها تتحسس ملامحها وقالت: ولكن نور التي تراها الآن، تلك المهدمة البائسة، ليست نور التي عرفتها سابقًا.

قلت: بل نور، هي نور حوراء رين وفاتنتها.

فابتسمت ابتسامة حزينة وأوثقت ذراعيها حول جسدي فأخذت أتذكر كم كنت أحلم بهذا اليوم، وكم رتبت كيف سوف أنتقم منها وأجعلها تندم على ما فعلت بي.

إلا أنني حين قابلتها وقبل أن تنطق حتى بكلمة واحدة كنت قد سامحتها، سامحتها لأجلي أنا، لأجل عابد الذي تحول إلى جسدٍ خاوٍ يمشي بين الناس.

وفي خلال أشهر قليلة قد رتبت للعرس وجمعت لها أجمل الثياب والحلي، وتزوجنا في ليلة لم تنسها رين بأكملها، وبعد مرور عام ونصف العام وأنا أتنعم في جنة نور كان للقدر ترتيب آخر، واكتشفنا أن نور تعاني من مرض السرطان، وأنه في مرحلة متقدمة، وأخذت نور تموت أمام عيني ببطء وأنا عاجز عن فعل أي شيء، وفي يوم صعدت إلى الجبل وكلمت الله: يا رب، إن كان هذا عقاب لي فأرجوك اتركها هي وابتلِني أنا، أرجوك يا رب فأنا لا أقوى على هذا، إن نور هي كل شيء، ولئن أخذتها مني فلن أجد سببًا للعيش، أرجوك إن هذا يفوق قدرتي على التحمل.

وما هي إلا أشهر قليلة فقط حتى رحلت نور ورحل معها كل ما هو حي وجميل، كل ما هو بريء، كل شيء، وها أنا أتجرع الموت للمرة الثانية، وكأنك يا نور قد خلقتِ فقط لتكوني أداة تعذيبي في تلك الحياة.

ومنذ تلك اللحظة وقد تغير اسمي ولم يعد أحد يذكره، ولا أدري لماذا أصبح الناس ينادونني بالدرويش، وأصبح أطفال رين أكثر جرأة عليَّ، وأصبح بعض الناس يستهينون بي، والبعض الآخر يعطفون عليَّ كثيرًا، ورأيت أناسًا يربتون على كتفي ويبكون، وأناسًا آخرين يسخرون مني، وكنت أنا لا أهتم ولا أستمع حتى لما يقولون، إلى أن جاء يوم وهاجمني أطفال رين، يقذفونني بالحجارة ويرقصون حولي، فركضت مسرعًا فسقطت على الأرض فشج رأسي وسال دمي، فذهبت إلى البحيرة لأغتسل، وحين نظرت في ماء البحيرة رأيت وجهي وكنت منذ وفاتها لم أتحمل أن أرى وجهي، فوجدت شيخًا ذا لحية كثيفة يرتدي خرق الثياب، لا يكاد يعرف لون جلده من اتساخه، وأدركت أنه قد مر وقت طويل وأنا هائم في رين أبكي نور وأروي لهم كم أفتقدها، فأخذت أركض إلى بيتي باكيًا خجلًا من نظرات الناس.

وكانت عمتي الطيبة السيدة رقية قد فرحت فرحًا شديدًا بعودتي إلى بيتي، وهي التي أخبرتني بما قد صار لي في تلك السنوات الثلاث من الضياع، ولأنها مثلي وحيدة في هذا العالم فمنذ أن حدث لي ما حدث

كانت هي من يتابع لي تجارتي وتحفظ لي أموالي، وكانت من وقت لآخر ترسل من يجدني ويحضرني إلى المنزل لتطعمني وتبدل لي ثيابي، وقالت لي إنني كنت أتحدث إليها على أنها نور وأبكي وأحتضنها، ثم عندما أدرك أنها عمتي كنت أهرب منها وأعود إلى الطرقات أبحث عن نور في وجوه سيدات رين فلا أجدها، إلى أن عدت تلك المرة وقد عاد إليَّ عقلي كما قالت العمة رقية أو كما كانت هي تظن أنه قاد عاد إليَّ عقلي.....

حاولت أن أستجمع بقايا نفسي لعلي أتمكن من إكمال حياتي ولكنني لم أستطع أن أحيا، ولم أستطع أن أرضى يا آدم، فلقد امتلأ قلبي بالسخط، ولكنني لم أجرؤ على الكفر، ولكنني أيضًا لم أرضَ، فلقد أصبحت بلا روح ولا قلب، إنسانًا أجوف، جسدًا يتحرك بين الناس من دون وجود حقيقي، وفي يوم من أيامي الحزينة كنت كعادتي ثملًا بالحانة وقد اجتمع إليَّ الناس يستمعون إلى حكايتي، وقد كانت تخونني الألفاظ حين كنت أتكلم عن القدر، فكانوا الناس ينهرونني بشدة وقد يزداد الأمر سوءًا فيضربونني ويلقون بي خارج الحانة، تخيل يا صديقي

حتى هؤلاء السكارى لايزال لديهم ما يكنونه لله ويدافعون عنه، فكنت أتعجب منهم وأحقد عليهم أنه ما يزال لديهم في حياتهم ما يتمسكون به، وكان هذا يزيد من رغبتي في إثارتهم وتحفيزهم لضربي، لعل أحدهم يتحلى بالشجاعة الكافية لفعل ما كنت أتمناه ويخلصني من تلك الحياة، ولكنهم كانوا كعادتهم جبناء، فلقد كانوا فقط يرمونني خارج الحانة ويتركونني، وفي هذا اليوم بالتحديد قد أبرحوني ضربًا.

وبينما كنت غارقًا في الوحل الذي كان يحتضنني كل ليلة فإذا بي أجد رجلًا معروفًا بالبلدة يدعى الشيخ أنس، قد جاء إليَّ وأخذ ينظفني فسقطت زجاجتي من يدي فهرعت لتناولها.

فقال: يا عابد، تعالَ معي أوصلك إلى بيتك.

فقلت: لا، بل اتركني واذهب أنت، شكرًا لك يا أنس.

قال: يا عابد فلتأتِ معي وسأرِح لك قلبك.

فقلت له: اذهب يا رجل ودعك مني، اذهب إلى سارق أو قاطع طريق وحاول أن تهديه، أما أنا فدعني وإلا أسمعتك ما لا تطيقه.

قال: يا عابد إن نور قد أرسلتني إليك برسالة...

فنظرت إليه في غضب شديد وسببته وأسقطته أرضًا وقلت: أيها الخنزير، يا عديم الرحمة، هل أبدو لك مجنونًا إلى هذا الحد؟ ما رأيك أن أرسلك أنا إلى ربك الآن أيها اللعين.

فقال وهو ينظر إليَّ في منتهى الشفقة: يا عابد لقد جاءتني نور في رؤيا وطلبت مني أن آتي إليك وأبلغك برسالتها.

قلت: ماذا!! أتقسم على هذا يا أنس؟ فأقسم لي أنه غير كاذب، فأخذت أرفعه وأنظف له ثيابه وأعتذر: سامحني يا شيخ أنس.

قال: هون عليك، تعال أوصلك إلى بيتك.

فقلت له: حسنًا.

كان الطريق طويلًا، وهو لم ينطق بكلمة، وكنت أنا لا أريد حتى أن أسأله عن أي شيء، وكأني كنت أخشى أن أساله فأكتشف أنها كانت مجرد محاولة منه لنصحي أو مساعدتي، وأنه قد يكون كاذبًا بشأن نور ورسالتها.

وآثرت أن أحيا لحظات على أمل أن نور قد أرسلت إليَّ رسالة حقًّا، وأنه ما يزال يمكن أن ينطق اسمها مقرونًا بأي فعل من أفعال الأحياء

مثل كلمة أرسلت نور، ما أجمل وقع هذا على نفسي وأن ينطق أحد غيري اسمها!

لقد كان لهذا وقع غريب على نفسي؛ فلقد أزال مفعول الخمر من رأسي، مررنا بسيارته على بيت نور القديم أمام الشاطئ وتذكرت حين احتضنت الدنيا في صدر نور لأول مرة، لقد كانت تلك هي أجمل لحظات حياتي، ولم أكن أدري أن تلك اللحظة ستكون هي العالم الفسيح الذي أهاجر إليه كلما ضاق واقع عالمي الممل في سنواتي المقبلة.

(يا ليت الإنسان يدرك حجم السعادة وقيمة اللحظات في حينها فينهل منها ويطيلها قدر ما يستطيع، فإن تلك الفرص لصنع عوالم رحبة في ذكرياتنا لا تتكرر كثيرًا، بل ونادرة الحدوث، ولكننا نجهل قيمتها ونجهل أنها سوف تكون الملجأ الوحيد الآمن لأرواحنا في المستقبل المليء غالبًا برحيل الأحباب، والمبدع بلا شك في تشويه كل جمال داخل نفوسنا وخارجها)..

كنت أتطلع إلى رين الحزينة لحزني إلى أن وصلنا ودخلنا إلى البيت، وكانت لا تزال السيدة رقية لم تنم بعد، فلقد كانت تنتظرني كعادتي حتى

تضعني في سريري وتلقي عليَّ شيئًا ليدفئ لي صدري وتعيد وضع صورة نور إلى مكانها بعد أن تسقط من يدي وتغلق باب الغرفة كما تفعل كل ليلة، ولكنها وجدتني واعيًا ولأول مرة منذ زمن بعيد.

فقالت: مرحبًا شيخ أنس.

فرد هو: شكرًا سيدة رقية.

ثم ذهبت لتحضر لنا الشاي كما طلب أنس.

ذهبت إلى الحمام واغتسلت وعدت سريعًا إلى أنس.

فقلت: أخبرني إذن يا أنس، ماذا كنت تقول؟

فقال: لقد رأيت نور في رؤيا وكانت تحمل لك رسالة يا عابد.

فسألته: كيف كانت؟

قال: كانت كالبدر يا عابد ضاحكة نضرة.

فقلت: وماذا قالت؟

قال: سأخبرك، فلقد قالت لي أنك ستفهم ما تقصده من رسالتها، جاءتني تحمل كتابًا اسمه (اخرج من نفسك لتراها)، وقالت أخبر عابد بهذه الكلمات: (ألم يكفك فراقنا في الدنيا يا حبيبي؟ فلتسلك طريق العارفين وستجدني أنتظرك في آخره) وصمت بعدها أنس.

فقلت له: أكمل يا أنس.

فقال: فقط، قد كان هذا كل شيء، ألم تفهم منه شيئًا؟

قلت: لم أفهم شيئًا، لم أفهم شيئًا يا أنس، قلتها صارخًا فيه، أكان هذا كل شيء؟

فرد الرجل في رهبة: نعم يا عابد، وأقسم لك على ذلك، وأخذ يربت على كتفي ببضع الكلمات التي لم أسمع منها شيئًا ورحل.

وجلست أفكر وألوم نور على جفائها، لماذا لم تأتِني أنا مباشرة إذا كانت تستطيع أن تأتي في رؤيا غيري، وفي أثناء ما كنت أتحدث لنفسي تذكرت كتاب طريق العارفين، وأنني قد رأيتها مرة تقرأ فيه، في أثناء مرضها الأخير، فهرولت إلى المكتبة فوجدته.

فأخذت أنظر في فهرس الكتاب إلى أن وجدت ذلك العنوان..

(اخرج من نفسك لتراها) ووجدت الكتاب يتحدث في كلام التصوف والزهد وتزكية النفس، وأنه يجب على المرء أن يخرج خارج نفسه ليراها على حقيقتها، وبذلك يمكنه أن يدرك عيوبها وضعفها فيصبح قادرًا على مراقبتها وتقويمها، ليصل بها إلى درجة العرفان،

ويصف الكتاب كيف أن معظم البشر يمضون أعمارهم وهم يظنون أنهم أبرياء، وأنهم صحيحو الفكر، ولكنهم لم يواجهوا أنفسهم ولو لمرة واحدة بدون تحيز وبتجرد فإذا فعلوا هذا فسيرون حقيقة الأمور.

وقد يجدون الأسباب الحقيقية وراء عدم تحقيقهم لبعض أمنياتهم التي لطالما كانوا يلومون القدر أو أناسًا آخرين عليها، معتقدين أنهم هم سبب مشاكلهم، ولكنهم لما نظروا جيدًا في مراياهم رأوا أنفسهم عارية من التجمل، وأدركوا أنهم هم من كانوا مسؤولين عن كل شيء، وكلام على هذا النحو تعج به صفحات الكتاب الذي يبدو كتابًا مهمًّا ولكني لست مهتمًا الآن بهذا فما علاقة هذا بي؟ أنا أريد أن أراكِ أنت يا نور لا أريد أن أرى نفسي، جلست أفكر جيدًا وقرأت الكتاب أكثر من مرة ولم أفهم ما الذي أرادتني أن أفهمه من هذا، ثم جاءت إلى ذهني فكرة أن أبحث عن تلك الجملة (اخرج من نفسك لتراها).

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث

(مواجهة النفس)

عندما بحثت عن تلك الجملة (اخرج من نفسك لتراها) فإذا بي أجد من يتحدثون عن الخروج من الجسد والعوالم الموازية وإمكانية حدوث ذلك، فعكفت على ذلك طويلًا حتى أصبحت على استعداد تام للتجربة، وقمت بأول رحلة سفر لي في عالم موازٍ أملًا في أن أجد نور حية في حياة أحد نظرائي ولم تمت بعد، فأقضي معها بعض الوقت أراقبها وأنظر إليها، أو أن أجد في حياة نظرائي من استطاع منهم أن يتجاوز هذا الحزن والألم، فأتعلم منه كيف استطاع أن يعيش بدون نور، لكن ما قد رأيته وما حدث لي وما تعلمته كان شيئًا مختلفًا كليًّا، وقد تغير كل شيء ولم تعد الحياة كما كانت، ولم أعد أنا عابد نفسه الذي كنت أعرفه قبل تلك التجارب.

هنا توقف عابد عن السرد لانطلاق أذان الفجر من المسجد القريب من بيتي، وبدأ في ترديد الأذان في خشوع. فأخذت أشيح بوجهي عنه

حتى لا يرى دموعي التي أغرقت وجهي لتأثري بقصته دون أن أشعر بها، ولا أدري هل كان تأثري هذا شفقة عليه أم للتشابه الذي شعرت به بيني وبينه، فلقد كان كلانا يرفض واقعه.

انتهى الأذان ووجدت عابد يقول هيا لنصلي بالمسجد، فتعجبت ولم أعرف ماذا يجب أن أقول له؛ فلقد كانت آخر مرة صليت فيها منذ سنين.

ولكني لم أرد أن أتورط في هذا الجدال فقلت: لا بأس، وبالفعل توضأنا وذهبنا إلى المسجد وأقيمت الصلاة، فوقف عابد إلى يمين الإمام (الشيخ سعيد) مباشرة على الرغم من أنه كان هناك صفٌّ واحد فقط من المصلين، وعادة ما يفعل المصلين هذ بأن يصطفوا إلى جانب الإمام فقط في حالة ما إذا كان المسجد مزدحمًا ولا يوجد مكان، فيمكنك أن تصلي إلى جوار الإمام أو أن تصلي خلف الإمام وحدك مثلًا، ولكن أن تفعل ذلك دون سبب هكذا، لقد بدا لي تصرفًا غريبًا ولكني لم أعلق عليه؛ فأنا لا أريد التورط في أحاديث دينية مطلقًا، وبمجرد أن أنهينا الصلاة وجدت عابد يسرع في الخروج من المسجد والعودة إلى البيت، وما إن

دخلنا البيت إلا وقال عابد: لقد أطلت عليك وأرهقتك يا صديقي، قالها وكان يبدو عليه الحرج حقًّا.

فقلت: لا والله؛ بل كانت أمتع ليلة مرت عليَّ في العشر سنوات الأخيرة.

فقال: أنت شخص ودود جدًّا.

فقلت: أشكرك يا صديقي.

فضحك عابد وقال: إن هذه هي أول مرة تناديني فيها بهذا (يا صديقي) منذ ساعتين فقط كنت تظن بأنني جنيٌّ.

فضحكنا سويًّا بصوت مرتفع وتصافحنا كما يفعل الأصدقاء.

ثم قال عابد: ماذا سنفعل الآن؟

فقلت: أنا لن أنام، أما إذا أردت أنت أن تستريح قليلًا فلا بأس.

فقال: لا أريد، ولكن ألم تلاحظ أنك لم تضيفني يا آدم؟

فقلت متحرجًا: يا الله! أعتذر لك يا عابد ولكن آآ...

قال: لا عليك أنا فقط أداعبك.

فقلت: هل أعد لك إفطارًا.

قال: بل كوبًا من القهوة هو أقصى طموحاتي الآن.

لحظات وآتيك به يا صديقي، قلتها مداعبًا فضحك ولكنها كانت نافذة إلى قلبي هذه المرة، فلقد أحببته حقًّا على ما يبدو، ولكني تعجبت حقًّا مما حدث، كيف تمتلك تلك الكلمات تلك القوة لجعل أحدهم يقترب إلى قلبك بهذه السرعة؟ كم نحن مخلوقات غريبة حقًّا في تأثرنا بالكلمات!

أحضرت القهوة وأخذت أبحث بالبيت عن أي شيء أقدمه له فوجدت بعض تمرات فقدمتها إلى عابد مع القهوة، تفضل يا عابد، بدأ بالتمر وكان متلذذًا به جدًّا وقد أثنى عليه ثم شرع في احتساء القهوة ثم بادرني قائلًا: ها يا آدم والآن كم بقي لدينا من وقت؟

فقلت: على الأقل ست ساعات حتى نتمكن من محادثة الرجل على أقل تقدير، في العاشرة صباحًا مثلًا.

فأجاب: حسنًا.

فقلت: ما رأيك أن نكمل حديثنا إذن؟ فأومأ برأسه أن نعم ثم قال: هلا ذكرتني أين توقفت؟

فقلت: في لهفة، حين قمت بأول رحلة لك والتي غيرت لك حياتك ولم تعد كما كنت قبلها. فابتسم عابد ونظر إليَّ قليلًا ثم قال:

نعم يا آدم وكيف لي ألا أتغير وقد كان أول شروط السفر هو أن أخرج من نفسي وأن أراها أمامي وأحاسبها وأقبل بتحمل مسؤوليتي عن جميع أخطائها، وأسامحها ثم أحبها ثم أصحح معها ما قد أخطأت فيه.

أتظن أن هذا كان سهلًا يا آدم؟ لا؛ فلقد كان ذلك في منتهى الصعوبة والإيلام، تمامًا كأن يطلب منك أن تقوم بعمل عملية جراحية لنفسك دون تخدير، فقط أنت والألم يا صديقي في صراع التحمل والأمل في الشفاء، وكلما كان تنظيف الجرح عميقًا ودقيقًا؛ كلما كان أسرع في الشفاء.

كم هو صعب على الإنسان أن يرى عيوبه ونقصه وعقده التي تسيطر عليه وتدفعه دون أن يشعر إلى فعل الحماقات، ولكن هذا الألم لا يدوم طويلًا، ففي مرحلة معينة حين تتمكن من فعل ذلك سوف تبدأ في تقبل كل أفعالك خبيثها وطيبها، وسيمكنك ساعتها تفسير أغلب معضلات حياتك السابقة، ولن يكون هذا قاصرًا على نفسك فقط؛ بل ستكون قادرًا على تفسير كل ما حولك وخصوصًا الأشخاص الذين يشبهونك في السابق، وسوف ترضى عمَّا فات، أملًا في حياة قادمة تعيشها في سلام

مع نفسك ومع كل ما يحيط بك، ففي هذه المرحلة من وعيك بنفسك سوف ترى العالم كله ككتابٍ سهل القراءة، وساعتها لن تتسرع في أن تحكم على شخص ما لفعل ما قد اقترفه أمامك، بل ستنظر داخله أولًا لترى ما الذي دفعه إلى ذلك، بل وستسامح معظم الناس وستشعر بالشفقة على الظالم تمامًا كما تشعر بها تجاه المظلوم؛ لأنهم يذكرونك بنفسك قبل أن يفتح لك باب هذا الوعي، فحتى هذا الظالم ليس أكثر من مجرد شخص لم يصل بعد إلى الحقيقة ويستحق الشفقة، وهكذا ستصبح كأيقونة من الطاقة الإيجابية لكل من حولك.

والغريب أنك سترى انجذاب كل الكون إليك كأنه بدأ يألفك ويعرف أنك سيده، تمامًا كما تستسلم الخيل إلى فارسها الذي روضها في هدوء وطمأنينة.

لا أريدك أن تمل من الوصف، يكفي هذا، وفي يومٍ ما ستختبر ذلك بنفسك، المهم هو أنني حين خرجت من عالمي أول مرة لم أتمكن من الولوج إلى أي عالم آخر، وعلقت في المنطقة الفاصلة تمامًا كما حدث لك، ولقد استمر هذا أكثر من مرة إلى أن رأيت أحد الذين قد أهدرت طاقاتهم وبقوا في هذا البعد فأصبحوا يرشدون المسافرين كما ذكرت لك

سابقًا، كانت سيدة تدعى ساندرا، رأتني ولقد كانت هي من ساعدتني في كل شيء بعد ذلك، وكان هذا هو سبب مساعدتي لك يا آدم حين رأيتك عالقًا أيضًا.

كانت في غاية الجمال والهيبة، قالت لي إن هالتي تبدو خافتة جدًّا وليس بها القدر الكافي لإيصالي، لذا يجب عليَّ العودة إلى عالمي وشحن طاقتي بعمل إيجابي، أو تنقية روحي من شائبة سلبية، فحاولت ذلك أكثر من مرة ولم أنجح، ففي أول مرة عدت فيها إلى عالمي أنفقت بعض المال على فقراء البلدة ثم عدت إليها فكان التغير في هالتي ضئيلًا جدًّا ولا يزال غير كاف، فكررت ما حدث ثم عدت فكانت نفس النتيجة فقلت لها: ولكن هكذا لن يبقى لي مال كي أنفقه على نفسي!

فقالت: يا عابد إن شحن طاقتك يتطلب أفعالًا تترك أثرًا في نفوس الآخرين، حتى ينعكس ذلك على روحك هنا، أي إنه لا بد لهذا الفعل أن يكون صادقًا وينتج عنه تغيير حقيقي في روحك أنت.

فقلت: هذا ليس أمرًا سهلًا.

قالت: أعرف يا عابد، ولكنني يمكنني مساعدتك إذا كنت تريد هذا حقًّا وبصدق؟

فقلت: نعم أريده.

فقالت: فلترِوِ لي قصتك إذن وأنا سأشير عليك بالفعل الذي إذا فعلته قد يعطيك ما تحتاج إليه، وبالفعل فعلت، وحين أنهيت قصتي قالت لي: يا عابد أنت لم تخرج من نفسك إلى الآن، وإن نور قد أصدقتك القول في رسالتها، إن لم تتمكن حقًّا من الخروج من نفسك فلن تُفتح لك تلك العوالم مهما فعلت.

فقلت لها: كيف أفعل هذا إذن؟ فأنا ليس لدي صبر لهذه الكلمات يا سيدتي.

قالت: يا عابد إن تصفية روحك ومحاسبتها إنما هي رحلة تمر بها كل الأنفس، وإنه هناك قلة من البشر فقط ممن استطاعوا الوصول بنجاح، وهؤلاء هم الندرة أو الصفوة من بيننا، ولقد ترك هؤلاء الندرة لنا تجاربهم في ذلك الطريق؛ لتكون لنا دليلًا يقودنا في صحراء هذه الرحلة وكما قلت لك: إن كل البشر متشابهون في امتلاكهم نفس الفرصة، ولكنهم مختلفون في إدراكهم، فمنهم من عرف سريعًا حقيقة الأمر وأسرع في طريقه للوصول، ومنهم من انتهت فرصته كاملة وهو حتى لم يشغل باله بذلك كله، ومنهم من عرف وأنكر، ومنهم من عرف ولم

يستطِع، ومنهم من عرف وتجاهل، ومنهم من تأخر في طريقه فأجبر على تسريع خطاه وهكذا.

وبحكم ما قد رأيته في حياتي فإن غالبية الناس ينتظرون إلى أن يجبروا على المضي قدمًا، وأنت يا عابد ممن انتظروا حتى أجبروا على تلك الرحلة، ولتلعم يا عابد أن تلك الرحلة هي التجربة الحقيقية، وهي يقين المعرفة وليست ادعاء المعرفة، بمعنى أنه هناك فرق بين أن تعرف الطريق وبين أن تسلكه، تمامًا كأن يوصف لك الجوع فتعرفه ولكنك حين تجوع حقًّا فإنك تكون قد اختبرته وأدركته وتيقنت منه، ولهذا فإن أول ما يجب عليك فعله يا عابد هو أن تواجه عابد، وأن تعريه، وأن تجعله يعترف بأخطائه كاملة، ثم تسامحه وتحبه، ثم تساعده في تنقية روحه من شوائبها وتجميلها بما ينقصها، ولأن هذا يصعب على العقل المادي فكان أفضل السبل هو خداعه بأن تتمكن من الخروج من عابد وتراه أمامك وتنظر إليه كشخص آخر، وتراجع النظر في كل أفعاله، ولتكن عادلًا منصفًا غير متحيز، حينها فقط سوف تتمكن من مصالحة ماضيه وباطنه، وهنا تكون قد خرجت من نفسك، ولكن هذا يتطلب شجاعة بالغة وصدقًا، فلئن تمكنت من فعل هذا فأنا هنا أنتظرك يا عابد لنكمل ما قد بدأناه.

فقلت لها: لن أستطيع فعل هذا، وعلى ماذا ألوم عابد؟ بل إن عابد له الحق في أن يلوم الكون بأكمله، إن عابد قد ظلم يا ساندرا، ظلم كثيرًا وحرم من أغلى شيء له في حياته، بالرغم من أنه كان كريمًا عطوفًا، وقد سامح وغفر، فعلى ماذا يحاكم أو يعاقب؟

قالت: فما رأيك أن أساعدك في هذا أيضًا يا عابد؟

قلت لها: وكيف ذلك؟

قالت: بأن ننظر إلى عابد سويًّا ولكن من خارج عابد، دعنا نراه بأعين من حوله ولتجعلني أساعدك في ذلك.

هنا ترددت قليلًا ثم قلت: نعم!

فقالت: أنت تقول إن عابد قد ظلم، وهنا أنت تتكلم من داخل عابد، ولكن هلا نظرت إلى عابد من داخل إحدى السيدات اللواتي تلاعب بهن عابد كنوع من أنواع الانتقام والثأر لنفسه، وكان بمجرد أن يجد في نفس إحداهن تعلقًا به أو رغبة فيه كان يبادر بهجرها سريعًا، تاركًا لها أثرًا مريرًا في نفسها، هل تتبعت أخبار إحداهن يومًا من بعد أن رحلت يا عابد؟ هل تدري كم عانين أو ما حدث لإحداهن أو لقلبها؟

أنا أقول لك يا عابد بالتأكيد أنك لم ترِد أن تعرف عنهن أي شيء، بل وكنت تحترف الهروب وسعيت لمحوهن حتى من ذاكرتك بالرغم من أنهن لم يفعلن أي شيء يسيء إليك، ولكنك حملتهن وزر نور التي سبقتهن إلى قلبك في تلك الآونة كما كنت تعتقد أنت أنها آثمة أيضًا، والتي قد ظهر لك بعد ذلك أنها لم تكن حتى كما ظننت بها؛ بل إنه كان خطأ فعلته لقلة خبرتها في الحياة، وهي حتى لم تتعمد إيذاءك أصلًا، فهل تظن الحياة عادلة يا عابد إذا لم تحاسب على ذلك؟

بل هلا فكرت يا عابد في أنك أنت نفسك لم تدافع عن حبك لنور بالقدر الكافي ولم تحاول أن تحتويها، فبمجرد أن قالت إنها لم تعد ترى فيك فارس أحلامها فإذا بك تنسحب سريعًا منزويًا عن عالمها، هلا حاولت أن تعرف عما كانت تبحث، هلا حاولت مساعدتها لترى حقيقة حبك وتقدره. في الحقيقية يا عابد لا، للأسف لقد انزويت واكتفيت بلعب دور المظلوم وتركتها تضيع من يدك، إن هذه اللعبة هي اللعبة المفضلة لدى البشر يا عابد، تبدأ بأن يريد المرء شيئًا ما ويتمناه بشدة، ثم لا يأخذ ولو خطوة واحدة تجاه ما هو مطلوب للحصول على هذا

الشيء، أو لا يبذل الجهد الكافي للحصول عليه، ثم يخسر هذا الشيء، ثم يبدأ في لوم كل من حوله على خسارته تلك، حتى يلوم أقرب الناس إليه والذين لطالما كانوا يساعدونه ويهتمون لأمره، ولكن لا يهم، المهم أن يجد من يلومه، ثم يلوم الظروف، ثم القدر، ثم يكمل الشيطان دوره معه بأن يسخط على قدر الله، ثم يستدرجه إلى الكفر بسهولة ويسر.

ولكن أن يتحمل نتيجة أفعاله ويواجه نفسه بما قصرت فيه وأن يدفعها للعمل وتحصيل ما يريد بالتعب وتكرار المحاولات والثقة في الله وفي نفسه، والصبر على الطريق فلا؛ إن هذا صعب وثقيل على تلك الأنفس، وهنا يأتي السؤال يا عابد.

هل أنت مستعد للخروج من نفسك بشجاعة وصدق أم تفضل أن تحيا في عالمك الخاص المزيف لترضي به نفسك؟

كان كلامها نافذًا إلى الروح، مؤلمًا وعنيف الوقع، ولكم كرهت أذناي سماعه، ولكنني تحملت وقلت لها: الآن أرحل وأفكر ثم أعود إليك لاحقًا.

قالت: ولكن تذكر كلمات نور جيدًا يا عابد، اخرج من نفسك لتراها

(ألم يكفك فراقنا في الدنيا يا عابد! اسلك طريق العارفين ستجدني أنتظرك في آخره).

استيقظت في عالمي في حيرة بالغة آسفًا على نفسي، حزينًا، ولقد استغرق مني الأمر وقتًا طويلًا، ولكني لم أزل غير راض عن موت نور، ولكنني قد قبلت أخطائي وقررت أن أواجه نفسي بشجاعة وعاهدت نفسي عهودًا أولها أني لن ألوم أحدًا على ما حدث لي، وقلت لنفسي بأنني أنا المسؤول عمَّا حدث في حياتي حتى وإن كانت الظروف ضدي، أو حتى إن ظلمني بعض البشر، فأنا لن أسمح لذلك بأن يكون مبررًا لي لكي أستسلم أو أخسر ما أريده، وحين تتبدل الأدوار فأنا لن أتحول إلى نسخة ثانية ممن ظلمني وأظلم غيري كنوع من أنواع الانتقام لنفسي، لا، فلكي أصبح من هؤلاء الندرة من البشر فإنه يجب أن يتوقف عندي كل سوء أو ظلم ويتحول إلى نقيضه، حتى إذا ظلمت فأنا لن أظلم أبدًا وسأكون عادلًا وإن عانيت في شيء ما فسوف أساعد غيري على أن يمروا من خلاله بسهولة، وعلى أن لا يعانوا ما قد عانيت أنا.

فهكذا وبهذه الطريقة قد أستحق أن يتغير قدري، لأنني هكذا قد أصبح أحد هؤلاء الندرة الذين يتبعهم كل ما في الكون، إنه السلام مع

النفس والتناغم والتواصل مع كل ذرة بالكون، وأنا لا أقول لك يا آدم إن هذا كان أمرًا سهلًا لا والله.

فلقد كان هذا قاسيًا جدًّا، فإن طبيعتنا تميل إلى تقديم المبررات لتحمينا من القسوة على أنفسنا، وكأن نفوسنا هذه طفلًا مدللًا يعيش داخلنا، وأمامك طريقان لتربيته، الأول أن تقسوا على هذا الطفل كما يفعل الأب في حياة أبنائه فقد يكره هذا الطفل هذه القسوة في صغره، لكنه حين يكبر سيدرك كم كان هذا صوابًا لتقويمه فيملؤه الامتنان لذلك الأب الحكيم.

ولديك الطريق الآخر وهو أن تدلل هذا الطفل وهنا يفسد ويضيع، ولن يكون غريبًا حينها أن يلوم هذا الطفل المدلل كل من حوله حين يكبر، وأول من سيلومه هو من قام بتدليله وسيتهمه بأنه لم يحسن تربيته، فكان خياري هو الخيار الأول، أي أن أقوم بدور المربي لنفسي.

ولكني أدركت أيضًا كم هو محظوظ من كان لديه من يقومه ومن يستند إليه في تلك الحياة يا آدم، فأن يقومك شخص تحترمه وتقدره وتراه وهو يقوم بفعل الصواب أمامك فإن هذا يشعرك بأن هذا الفعل ممكن وسهل، ولكن عندما تفعل ذلك وحيدًا يصعب عليك تصديق أنك قادر على ذلك وقد تفقد عزيمتك.

وما إن تمكنت من ذلك حتى اختلف العالم من حولي يا آدم فأصبحت أرى الناس بطريقة مختلفة، فلم أعد ألوم أحدًا حقًّا، لا أقول لك إني صرت ملاكًا، لا؛ ولكني ولأول مرة شعرت بالصلح مع نفسي، كانت كمعاهدة سلام توقعها مع روحك ليس أكثر.

ولا أقول لك إن العالم قد تغير، لا؛ فهو لا يزال نفس العالم وإنما قد اختلفت نظرتي أنا إليه، وبتغيير نظرتي تلك تغير العالم، وهنا تعلمت معنى أو مفهوم لفظ العالم على حقيقته، إن العالم ليس ما يدور حولنا ويحيط بنا؛ وإنما هو ما ينعكس داخلنا لما نراه، فإن كانت نظرتك لما يحدث حولك طيبة وترى فيها جمالًا فستنعكس تلك الصورة داخلك جمالًا، وإن كانت غير ذلك فسوف تنعكس إلى ما تراه.

وبهذا يصبح العالم هو ما تريد أنت أن تراه يا آدم وليس ما يحدث حولنا كما هو ومن هنا تدرك أنه يمكنك أن تسيطر على عالمك إذا أردت ذلك.. فقط نظف مرآتك لترى جمال العالم.

آدم: لحظة من فضلك يا عابد، إن ما تقوله فيه مبالغة شديدة، فلقد فقدت حبيبتك يا رجل ثم ضللت الطريق ثم عادت إليك مرة ثانية ثم

فقدتها ثانية بل وللأبد، ثم جننت، ثم أوشكت على الكفر سخطًا، ثم تقول لي إنه قد تغير العالم عندما حاكمت نفسك وأصبحت تحملها كل المصائب التي مرت بك! ما هذا وماذا عن فقدك لنور؟ ألم يكن هذا قدرك الذي قد اختير لك وأجبرت عليه؟ ولقد قلت: إنك لم ترضَ بعد عن ذلك، وحتى هذا العالم المليء بالظلم والحروب والمرض والمصائب كيف يمكن أن أراه جميلًا! عن أي جمال تتحدث يا رجل؟!

صدقت يا آدم إن فيه ظلمًا وحروبًا ومرضًا ومصائب، ولكن إلى جانب ذلك فإن فيه حبًّا وأطفالًا وفيه رحمة، فكما صنع الإنسان آلات التدمير والحرب، فلقد صنع أيضًا الدواء من الأمراض والفنون، إن العالم قد تطور في كل شيء، ومن الطبيعي أن يتطور الشر أيضًا يا آدم، ويجب على كل جيل أن يواجه تحديات عصره وألا يتهرب منها بدعوى أن الشر قد ملأ الكون، وإن كان هذا ما حدث افتراضًا.

إذن فلتكن أنت الخير الذي بقي في هذا العالم، عبر عن الخير بأن تصبح ممثله في هذا الكون، دافع عنه ونادِ به وتحمل عواقب الرحلة ولا تنزوِ مبتعدًا هاربًا.

لقد قلت لك حين تصل إلى هذا الإدراك سوف ترى حتى في أسوأ الظروف أشياء جميلة في داخلها.

وأنا لا أقول لك إن الظروف السيئة لها جمال في ذاتها، لا؛ ولكن كيف يميز بين المعادن من حيث أصيلها ومخلوطها؟ بصهرها تظهر يا صديقي، إن كل شرٍّ حولك هو عبارة عن سؤالٍ موجه لفرد أو لجماعة وينتظر ردًّا وأمام المجيب الفرصة كاملة في أن يمثل الخير أو أن يمثل الشر أو أن يمثل الضحية، ويقبل بما قد يفرض عليه ويستسلم له، فلتكن أنت ما تريد أن تكون.

ولك الحق أيضًا فيما قلت بشأني، فلقد كان عدم رضاي هذا هو الحاجز الأكبر أمامي، ولكنه قد انهار وتركته في تلك العوالم التي زرتها عندما وجدت معنى الحرمان.

آدم: وما هو معنى الحرمان هذا يا عابد؟ هل له معنى جديد غير الذي تجرعته أنت يا رجل؟!

عابد: بالطبع يا آدم، فأنت حين تظن أنك وحيد في ابتلائك فإن هذا يضاعف الألم ويأخذك إلى الجانب العدائي من روحك، أما إذا أدركت

أن هذا يحدث لك ولغيرك، بل وإن كل البشر يتشاركون فيه ولكن بصور مختلفة، فإن هذا قد يهون من وقعه عليك وينزع من داخلك إحساس العداء الفردي هذا.

ولن تقول حينها لماذا أنا أو لماذا يحدث لي هذا، لأنه يحدث لكثيرين حولك، وقد حدث سابقًا وسيحدث في المستقبل.

يا صديقي إن الحياة عبارة عن مجموعة من الأسئلة الموجهة إلينا، وفي المجمل هي نفس الأسئلة التي تطرح على كلٍّ منا ولكن باختلاف ترتيبها، فما قد يطرح عليك في العشرين من عمرك لتجيب عنه قد يطرح على غيرك في الخمسين من عمره، وهكذا ولكن تظل هي نفس الأسئلة، ‘نه العدل في الاختبار مع الإبداع في تغيير الظروف والأدوار ولكن تظل هناك مفاهيم ومعانٍ ومشاعر وخبرات لا بد لكل نفس أن تتذوقها ولا بد لكل البشر أن يتشاركوا فيها مثل العطاء والحرمان والأمان والخوف.

ومفهوم الحرمان مثلًا غالبًا ما يكون مقرونًا بمفهوم الرضا والسخط، أي إنه لكل منا شيء ما قد تمناه ولكنه قد حرم منه، فلا تتخيل

أبدًا أنه هناك أي نفس لم تذق مفهوم الحرمان وتختبره كمفهوم، ولكن قد يختلف ما يحرم منه كل شخص، فلسنا جميعًا نملك نفس الاهتمامات، ولهذا فقد أحرم أنا مثلًا من نور وقد يحرم غيري من الأبناء أو الصحة أوالمال أو النجاح أو الحب، وقد يأتي هذا في أول العمر أو في أوسطه أو آخره، ولهذا قد ترى أناسًا لديهم كل شيء وتعتقد أنهم قد حيزت لهم الدنيا، وقد يستفزك هذا ولكنك لا تعلم مما قد حرموا، أو مما سوف يحرمون، ولكن في النهاية كن على ثقة من أن كل نفس قد اختبرت طعم ذلك الحرمان في شيء ما، وكان هذا بمثابة سؤالٍ موجه لها، وكان لا بد له من إجابة إما بالرضا وإما بالسخط، والأهم من رضاك أو سخطك هو أن تفهم لماذا قد حرمت هذا الشيء تحديدًا، وهذا أهم ما يجب إدراكه، إنها لغة تخاطب القدر والتواصل معه، ومحاولة فهم الرسائل من تلك الأقدار، فأنت لست محدد القدر في تلك الحياة، لا؛ بل يمكنك بفهم الرسائل تلك والإجابة عليها أن تغير قدرك.

آدم: كانت كلمات عابد صادقة وتحتاج إلى النظر فيها بعمق، لم تكن ردودًا فارغة منه؛ بل كانت كل كلمة مروية بدماء التجارب المريرة التي

مر بها وعلى الرغم من بساطة أفكاره، إلا أنها صعبة جدًّا إذا أراد المرء تفعيلها على نفسه ومن يقوى على ذلك المستوى من الصدق في مواجهة نفسه، فلقد فوجئت بأنني أردد كلمات قد سمعتها عن العالم وأنه سيئ حقًّا وهي حقيقية بالفعل، ولكنني لم أبذل ذلك الجهد الذي بذله هو في فهم الصورة كما رآها هو؛ فهو أيضًا محقٌّ، لقد كان لكل جيل عذابه وآلامه التي قد تصور هذا الجيل في وقته أنها أكبر من تحمل عالمه وأخذ كل جيل يدون في تاريخ العالم إجاباته على تلك الأسئلة، فلو كانت الأجيال السابقة صمتت بنفس الدعوى ما كانت وصلتنا أخبارهم الفذة، نعم أنت محق يا عابد، ولكن لماذا لم أدرك الصورة هكذا مثلك؟ هل لأني لست أرى نفسي بنفس العمق الذي واجه هو به نفسه؟ أم لقلة خبرتي أم ماذا؟ وهل أتحمل أنا أن أضع كل تلك الأحمال على كتفي، لقد أرهقتني أفكارك وصراحتك يا عابد، وهنا قررت أن أنتقل معه إلى المرور الأول كيف كان.

فقلت: دعنا نعود إلى العبور للعالم الآخر يا صديقي، أريد أن أعرف ماذا حدث.

عابد: نعم لا بأس، فكما قالت ساندرا كان عليَّ أن أرفع طاقتي لأتمكن من المرور إلى هذا العالم، ولكنني وكما أخبرتك، كنت في ذلك الوقت ما زلت غير راضٍ عن قدري وحرماني، فقررت أن أتحلل من بعض آثامي، ولأنني فعلًا قد شعرت بالذنب تجاه من ظلمتهم فلقد قررت زيارة من أستطيع منهم زيارته وأحاول استعطافهم لمسامحتي والعفو عني.

وبالفعل فلقد ذهبت إلى أول فتاة عرفتها بعد أن تركتني نور، كانت تدعى ريحانة، كانت فتاة طيبة وبسيطة، فذهبت إلى بيتها فوجدتها تداعب ابنتها الصغيرة أمام المنزل في حالة سعادة بالغة، فتوقفت قليلًا لأفكر فيما سأقول لها، فرأتني فقلت لنفسي تقدم يا عابد وخذ نصيبك من غضبها، فتقدمت ببطء وقلت كيف حالك يا ريحانة؟

- أهلًا عابد أنا بخير، كيف حالك أنت يا عزيزي؟ إنك تبدو بصحة جيدة، وقد سمعت أنك قد عدت إلى طبيعتك.

مباشرة وبدون مقدمات قلت لها: لقد جئت إليك لأطلب منك أن تسامحيني على ما فعلت.

فقالت: كنت أعرف أنك ستأتي، ولكم تجهزت لهذا اليوم، بل وكنت أحلم بالانتقام منك، ولكن هذا كان في الماضي، أما الآن يا عابد فلا عليك، فأنا أدرك أنها كانت قسمة الله وقدره وأنا راضية والحمد لله، فلقد نسيت الأمر كله، وقد أكرمني الله بزوجي وابنتي اللذين أصبحا كل شيء في حياتي، حتى إنني في بعض لحظات كنت أتصور إذا ما كنت قد تزوجتك أنت لكانت حياتي الآن جحيمًا، أعتذر لك يا عابد، ولكن لو كنا نعلم ما يخبئه القدر لنا لشكرنا الله على أسوأ ما رأينا.

أتدري متى سامحتك يا عابد، حين رأيتك بعد وفاة نور عابثًا مشردًا في الطرقات، فلقد عفوت عنك، بل وكنت أدعو الله أن يريح قلبك مما أنت فيه ويرحمك، فإن كان هذا ما يقلقك فلا تخف يا عزيزي عابد، واطمئن من ناحيتي؛ فأنا لا أحمل لك شيئًا، وأرجوك أن تذهب الآن فإن زوجي على وشك الوصول، أتمنى لك راحة القلب والسعادة يا عابد من كل قلبي.

شكرتها وبكيت من الفرح وعدت إلى بيتي وقد شعرت بأني قد ألقيت بعضًا من أحمالي المرهقة، وأخذت أفكر فيما قالت، ووجدت أن ما حدث لي في سنوات جنوني بالرغم من أنه كان حقًّا مؤلمًا، إلا أنه أيضًا

كان سببًا في أن شعر بعض ممن ظلمتهن بالشفقة عليَّ، وقد سامحنني فعلًا بل ويدعين لي دون أي مجهود أو سعي مني لإرضائهم، هل تلك هي العدالة كما قالت ساندرا؟ وهل كان فقدي لنور جزءًا من ديوني التي كان لا بد لها من أن تسدد، لم أقبل بهذا؛ فأنا ما زلت أرى أن هذا كثير ولا يمكنني تحمله، ولكني أصبحت أحسن حالًا من ذي قبل بقليل، فرجعت إلى ساندرا بعد فترة قليلة، فقالت حين رأتني: كنت أنتظرك يا عابد.

فقلت لها: هل يمكنني المرور الآن؟ فقالت يبدو أنك قد فعلتها يا عابد.

قلت: نعم ولكن... لا ليس كما تظنين.

قالت: ولكن هالتك قد اختلفت.

فقلت: فقط قد تحللت من بعض أخطائي.

فقالت: أحسنت يا عابد.. والآن أريدك أن تعلم أنه يمكنك الظهور أو الاختفاء لسكان ذلك العالم بحسب رغبتك، ولكن كن حذرًا، فإنك إن أصبت بالأذى في تلك العوالم فسوف ينتقل هذا الأذى إلى جسدك في عالمك الأصلي، ويجب أن تعلم أيضًا أنك حين تلج إلى أحد العوالم فإنك

تأخذ نفس ملامح وعمر نظيرك في هذا العالم، حتى إذا ما رآك الناس اعتقدوا أنك نظيرك، هل تفهم؟

قلت: وماذا عن نور كيف ستعرفني إذن؟

قالت: يا عابد لقد أخبرتك أن الناس سيرونك كأنك هو، ولا يفرقون بينكما، فمبجرد دخولك إلى عالمه تأخذ ملامحه وعمره ونور واحدة من الناس، فهي ستراك ولكنها ستراك عابد عالمها وليس عابد الريني.

إن هذا شيء يحدثه الكون حتى يحافظ على توازن الإيقاع بين العوالم ولتجنب حدوث تداخل، هل تفهم؟

فقلت: لا يهم، المهم أن نور ستراني كعابد.

فقالت: كعابد عالمها يا عابد، هناك فرق.

فقلت: لا بأس، عابد عالمها.

قالت: والآن انظر إلى الأفق وأخبرني هل ظهرت أمامك العوالم أم لا؟



الفصل الرابع
(بوابة العالم الأول)

نظرت فإذا بي أجد ثلاث بوابات مضيئة كأنها ثلاثة أقمار، ولكنها تبدو أكبر من حجم القمر قليلًا، وأشد ضوءًا وتوهجًا، فأخبرتها بما أرى، فقالت هذه هي العوالم المتاحة لك الآن، هم ستة عوالم غير عالمك وأنت ترى منهم ما يمكن لطاقتك أن تأخذك إليه فقط، فأنت الآن بحسب طاقتك الحالية مسموح لك بالولوج إلى ثلاثة عوالم فقط، ولا تقلق فبزيادة طاقتك لاحقًا سوف تتمكن من أن تراهم جميعًا، أما الآن، فعليك أن تختار منهم واحدًا لتتجه نحوه برغبتك، فسيبدأ جسر هذا العالم بالامتداد إليك، ومن ثم تبدأ مرحلة الولوج إلى العالم.

هنا قلت لها: وكيف سوف أجد نظيري؟

قالت: إن بينك وبينه تجاذب، وبين روحيكما تماس واتصال يا عابد فمن المؤكد أنك تعرف جزءًا منه على أقل تقدير.

فقلت: أرجوكِ كوني مباشرة معي أنا لا أفهمك يا ساندرا.

قالت: يا عابد إن ما أعرفه هو أن لكل منا ستة نظراء، ولكل منهم قطعة داخل أرواحنا، فهم احتمالات وجودنا التي لم تحدث في عالمنا، فمثلًا إن كنت أنت في عالمك كانت لديك رغبة في أن تصبح موسيقيًّا على سبيل المثال، ولكنك لم تكمل هذا الطريق، فهو قد أكمل هذه الرغبة وقد صار ذلك الموسيقي، أو صار ذلك الحلم الذي لم تحققه أو أصبح ذلك الفشل الذي لم تفشله أنت يا عابد وهكذا.

صدقني يا عابد كلما نظرت داخلك بعمق وصدق كلما فتحت أمامك أبواب المعارف، فإن العوالم كلها داخل روحك يا عابد تنتظر من يبحث جيدًا في أرجائها يا عزيزي، واطمئن فإنك سوف تعرف طريقه لا محالة، ولكن عليك بالبحث وتصفية ذهنك، صحبتك السلامة يا عابد وأبلغ نور أشواقي الحارة وقبلاتي إن وجدتها.

نظرت في حيرة إلى الثلاث بوابات وانتابني الخوف، وقلت لنفسي: ممَ تخاف يا عابد؟ فقط تذكر أن نور هناك ما زالت حية ويمكنك التحدث إليها، وهذا كافٍ لأن تفعل أي شيء، بل إن نظرة من عيني نور الحبيبة بألف عام، وبالفعل قد اخترت أشدهم ضوءًا وكان الذي في

المنتصف، وما إن استقر قراري عليه، حتى وجدت جسرًا من نور ينسدل إليَّ..

وضعت أولى خطواتي وأنا أرتجف، ما هي إلا لحظات وبدأت كل الصور من حولي تتسارع، والألوان تداخلت بعنف وشعرت بدوار رهيب، ثم انفجر اللون الأبيض من كل مكان فلم يسمح لي برؤية أي شيء، ثم سادت لحظات من السكون العميق، وبدأت أسمع أصوات قلبي ونبضي وحتى تنفسي، ثم أخذ الضوء الأبيض في الرحيل ببطء وبدأت التفاصيل والألوان في الظهور، وصارت تتكشف إلى أن ظهرت الشمس، وكانت هي أول ما وقعت عليه عيني ثم السماء.

ثم أخذت الأشجار بلونها الأخضر في الظهور، ثم أصوات الطيور وخرير الماء وهمس أوراق الأشجار في أحضان الرياح، كان الهواء نقيًّا منعشًا وكانت الأجواء تبدو وكأنها عالم جديد وأنا أول زائرٍ له، ولم أكن أعلم أن ألوان عالمي باهتة إلى هذه الدرجة إلا حين نظرت إلى هذا العالم، فلقد كان جميلًا حقًّا أو هكذا رأيته، لربما لمجرد ظني أن نور هنا، فقد أضاف إلى هذا العالم رونق الجنة بالنسبة إليَّ.

تقدمت قليلًا بين الأشجار ورائحة الصندل المذهلة، كانت تغمرني إلى أن بدأ الناس بالظهور.

وجه تلو الآخر، يرمقونني بنظرة طيبة مبتسمة وكأنني مألوف لديهم، رغم أن لباسي كان غريبًا عنهم، فلقد كانوا يرتدون ما يشبه القفطان المغربي، الرجال منهم والنساء.

وكانت تصاميم تلك القفاطين غاية في الروعة، وكان لون بشرتهم مائلًا إلى الخمري العبقري، هذا الذي جعل قلبي يخفق شوقًا إلى نور أيقونة الجمال الخمرية، وأخذت أبحث عنها في وجوه السيدات كالمجنون ولكني لم أجدها، واختلطت قدماي بخطى الجموع منهم إلى أن استوقفني صوت أحدهم ينادي..

- يا عابد، قلت لك بالأمس أنك ستأتي إليَّ في نهاية الأمر ولم تصدقني، وأخذ يضحك فنظرت إليه فإذا به رجل سمين يقف على باب دكان مكتوب عليه عطارة عدنان، وكان ذا لحية حمراء مصبوغة، أبيض الوجه، فأشار إليَّ بيده أن تفضل إلى الداخل وسبقني بالدخول فذهبت إليه.

فقال: صباح الخير يا أخي عابد.

يبدو أنه يعرفني جيدًا، واسمه عدنان، لأنه جلس على كرسي المكتب داخل الدكان فقلت: صباح الخير يا عدنان.

فقال: ألم تنم جيدًا بالأمس؟ تبدو مرهقا جدًّا!

فقلت: حقًّا! هل أبدو مرهقًا؟

فقال: نعم، فنظرت على أحد الأرفف التي كانت ممتلئة بالزجاج والمرايا، فوجدتني أبدو أصغر سنًّا، لقد كانت هذه ملامحي منذ خمس سنوات تقريبًا.

ثم أردف قائلًا: هل اقتنعت أخيرًا بكلامي؟ قلت لك لن تجد تلك الأعشاب الآسيوية هنا، وخذ القرفة الهندية والزنجبيل بديلًا لها، فهما يزيدان من حرارة الجسم وتدفئته ويجعلون الصوت نقيًّا عذبًا.

فقلت له: نعم، أعطني إياهم، وأرجوك أن ترسل بهم غلامًا إلى بيتي، فأنا لدي شيء أريد إنجازه أولًا ثم سأعود.

قال: حسنًا يا طبيب البلدة، المهم.. ثم أخفض صوته هامسًا في أذني: ولكن لا تنسَ موعدنا الليلة في السهرة يا طبيب قلوب الفاتنات، ثم ضحك.

فأومأت له بالإيجاب لأرحل من أمامه وقلت مؤكدًا: ولكن أرجوك أن تسرع بإرسال الغلام، فأنا عائد بعد قليل وسأحتاج القرفة والزنجبيل.

فقال: لا تقلق الآن أرسل الفتى.

آه جيد أنه لم يكتشفني، ويبدو أيضًا أن نظيري هذا طبيب، ولكنه لديه الكثير غير الطب ليهتم به، آه يا عابد يبدو أن نظيرك هذا أنذل منك في عالمك، لا يهم، المهم نور. وانتظرت أن يخرج الغلام لكي أتبعه ورأيت أنه من الأفضل أن أختفي الآن حتى لا يعترضني أحدهم مرة أخرى.

انتظرت قليلًا وإذا بالغلام يخرج من الدكان فتبعته ولم يكن بيت نظيري بعيدًا، ولكني كدت أفقد الغلام أكثر من مرة من هول ما رأيت من جمال المدينة التي كانت تشبه رين ولكن كان لها طابعها الخاص.

كانت البيوت ذات قباب، وكانت ملونة باللون الأزرق لون البحر، وكان هذا اللون يعكس لون الجبل الأخضر بالكامل في مشهد يريح النفس، كانت ساحرة حقًّا، وحين توقف الصبي أمام البيت وطرق الباب قد أطلت من النافذة امرأة ترتدي نقابًا ثم توارت وفتح الباب

وسلم الغلام الأغراض ورحل، إذن هذا هو البيت، اقتربت وتسللت إلى الداخل وكان هناك صوت امرأة تغني لطفلها.

إنه نفس اللحن التي كانت نور تغنيه لي إذا ما كنت مهمومًا أو غاضبًا، فأخذت قدماي تثاقلان، وأخذت دموعي تسيل فرحًا وخوفًا وشوقًا، كان صوتها يسري في عروقي المتيبسة لينبت فيها الحياة من جديد، وما إن وصلت إلى مصدر الصوت رأيتها من الخلف تحتضن طفلًا، وشعرها يخبئ نصف وجه الطفل، ولكن عيني الطفل الزرقاء قد أكدتا لي أنها هي، ولكني تماسكت إلى أن أدارت وجهها نوحي ورأيتها، هنا قد أصابني الشلل لا أدري ماذا حدث.

وغرق عقلي في خليط من المشاعر فرحًا وحزنًا، صمتًا وضجيجًا، رعشة ودفئًا، كل المشاعر تريد أن تخرج في آن واحد، لا أدري فلقد اختل عقلي وعجز عن فعل أي شيء سوى بسمة تملؤها العبرات.

آه يا نور لو تعلمين لكم تمنيت أن أظهر لها وأعانقها وأبكي وأروي لها ما عانيته منذ أن رحلت عني، ولكني تراجعت.

ظللت أنظر إلى عينيها وأنا أتحرق شوقًا، ووقعت عيني على جسدها فوجدتها حبلى، هنا ظهر عابد نظيري وهو يقول:

- صباح الخير، أريد قهوتي يا نور، قالها بجفاف بالغ..

إنه أنا، أقصد إنه يشبهني لكن ملامحه لا تعبر كما أعبر أنا بوجهي، لكنها نفس الملامح.

ردت نور صباح الخير يا عابد، حالًا آتيك بها، وتقدم الطفل إليه فاحتضنه وداعبه قليلًا ثم تركه ودخل الحمام، فذهبت أتفقد نور، كانت بالمطبخ إلى أن أنهت القهوة وذهبت بها إليه، وكان قد شرع في ارتداء ثيابه مستعدًا للخروج.

قالت نور: حتى يوم إجازتك يا عابد تتركنا وتخرج؟!

فرد قائلًا: سامحيني يا عزيزتي فلدي موعد مهم مع أصدقائي ويجب ألا أتأخر عليهم.

قالت: وماذا عني وعن ابنك هذا؟ فنحن لنا حقوق أيضًا، والتي هي أهم من حقوق أصحابك، وخصوصًا في آخر أيام حملي، وأنا متعبة جدًّا وأحتاج إلى وجودك إلى جانبي.

فرد عليها متأففًا: أنا لا أريد شجارًا، لقد قلت لكِ لن أتأخر، لماذا تثرثرين كثيرًا؟! أنا متعب طيلة الأسبوع بالعمل، وهذا هو اليوم الذي أرتاح فيه قليلًا وأستمتع بلقاء الأصدقاء، ولقد وعدتهم.

قالت: لا عليك، اذهب كما تشاء فلقد مللت حقًّا، فأنت لم تعد عابد الذي أحببته وتزوجته وكنت أظن أني سأكون سعيدة معه.

- بل أنتِ التي أصبحتِ تعشقين النكد والجدال وافتعال المشاكل، واحترفتِ لعب دور الضحية دائمًا، إنه أنا الذي يشعر بالملل، إني ذاهب، وداعًا. ثم قبل الغلام وارتدي معطفه وخرج، ثم أغلق باب البيت في عصبية بالغة، وكانت نور في منتهى الأسى، وقد انفطر قلبي على نور وتسعر حقدًا وغلًّا على هذا الرجل، كنت أريد أن أصرخ فيه وأقتلع قلبه من مكانه، ولحقت به غاضبًا فسمعته وهو يسب ويهين نور في همهمته: كئيبة مملة، كيف تزوجت تلك المرأة؟! يا ليتها تأتي معي لترى النساء حقًّا كيف هن، إنني أستحق امرأة أفضل من تلك المرأة ولكن هذا قدري.

كانت نور في عين هذا الأحمق زوجة مملة كئيبة، كدت أن أجن مما يقول هذا الغبي! عمَّاذا يبحث؟ وماذا يفقد وقد رزقه الله نور والأولاد والشباب، كل شيء لديه ويترك كل هذا ويرحل، لمَ؟

فقررت أن أتبعه وكنت على وشك قتله لأنتقم لنور من شدة غضبي، سرت خلفه إلى أن وصل إلى الحديقة العامة ليقطعها فذهبت خلفه

وكنت على وشك أن أظهر له وأقتله ولكني فوجئت بأحد أصدقائه يناديه: يا عابد انتظرني.

كان هذا وليد عشري صاحب مصنع الحلوى صديق عابد، انطلقا سويًّا إلى أن وصلا إلى منزل محمد سعيد تاجر الصندل والعطور الشهير بالمدينة، هذا الرجل الثري السوداني الأصل كان منزله هو مركز تجمع الأصدقاء، وبالفعل رحب بهم ودخلت معهم لأرى ماذا سيحدث بالداخل، فكانت جلسة غداء ونقاش طبيعية جدًّا كما يحدث بين الأصدقاء، إلى أن وجه وليد إلى عابد سؤالًا.

وليد: ماذا بك يا عابد؟ تبدو في مزاج سيئ!

عابد: هذا حال كل متزوج يا وليد.

وليد: إذن هي نور كالعادة! وضحك الجميع.

عابد: لم تكن هكذا قبل الزواج، قد تغيرت ولم تعد تهتم لأمري، فقط نكد وشجار طوال الوقت.

محمد سعيد: يا زول ما في حل إلا تعرس فوقها، الكلام ما منو فايدة، المرة بأدبوها بمرة تانية.

علت الضحكات بينهم مرة أخرى، إلا أن عابد كان يتحدث بجدية فقال: نعم لقد فكرت في هذا جديًّا، إلا أني أنتظر أن تلد ثم سأفعل هذا بكل تأكيد، ليس لدي إلا حياة واحدة وأريد أن أكون سعيدًا فيها، ولن أضحي بها من أجل أي أحد.

وليد: ولكن يا عابد لكي تتزوج ثانية يجب أن يكون هناك سبب ما يدعوك إلى ذلك، إن التعدد رخصة قد منحها الله لنا ولكنها لا بد أن تكون بسبب.

عابد: ماذا تقول يا رجل؟! أحل الله لنا أربع زيجات فهذا حقي.

محمد سعيد: عليك الله يا زول سبب شنو اللي أنت كايس ليهو مثني وثلاث ورباع يا زول.

وليد: فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة، لماذا لا تحفظون باقي الآية؟ أي إن الأصل هو عدم التعدد إلا في حالات تستدعي ذلك، أما إذا كان كل رجل قد تشاجر مع زوجته سيتزوج عليها فهذا غير معقول.

عابد: وماذا إذا لم يكن الرجل يشعر بالراحة وينقصه الكثير من الأشياء؟ فماذا يفعل يا سيد وليد؟!

وليد: يناقش زوجته ويطلب منها، ويحاول أن يحل كل المشكلات بينهما، وقليل من التنازل منه مع قليل من التنازل منها تلتئم الحياة وتدب السعادة مرة أخرى، ولكن أن يهرع هكذا دون محاولة للإصلاح حتى، مدعيًا حقًّا قد جعله الله للحفاظ على حالات خاصة فيتناوله تناولًا خاطئًا ليبرر لنفسه رغباته، فهذا ليس صحيحًا.

محمد: ااااي، هسي وليد بقى لينا شيخ وهو زاااتو اللي جرانا لقلة الأدب براو.

وليد: أن أفعل أخطاء فهذا أمر وارد فأنا بشر لكنني، لا أحللها أو أمنطقها لنفسي، فهي تظل أخطاء، وعلى هذا يومًا ما قد أقلع عنها، أما إذا أعطيتها منطقًا وجعلت لها حجة فهذا درب آخر أعوذ بالله منه.

محمد: هسي كدي خلونا من الكلام الفاضي دا، ياخوانا انا دايركم تجهزوا روحكم للحفلة.

وليد: بالطبع فإن دلال الراقصة الأولى بالملهي ورفيقتي قد حجزت لنا طاولة من طاولات الصف الأمامي مباشرة، وهكذا يمكن لصديقي عابد أن يرى كاريمان حبيبة القلب وهي تغني وجهًا لوجه، وكأنها تغني

له وحده، فأنا لا أدري ما الذي يجذبها إلى طبيب ممل مثلك وتترك رجلًا وسيمًا مثلي أنا، قالها ضاحكًا.

- لا لا قل لي حقًّا يا عابد، ما الذي جذبك إليها وهل تحبها حقًّا؟

عابد: أتعلم يا وليد وأنا معها أشعر وكأني سيد هذا الكون، فهي تمنحني اهتمامًا من نوع خاص لم أرَ مثله من قبل، خاليًا من أي تصنع، فهي تعرف كيف تشعر الرجل بنفسه حقًّا.

وليد: وماذا عن نور يا عابد؟ ألم تستشعر شيئًا من هذا؟ كل هذا ولم تلاحظ حتى أي تغير فيك؟

عابد: اسمع يا وليد ربما لأنك لم تتزوج إلى الآن وأنا أحسدك على هذا، ولكن لربما أن هذا هو السبب لعدم فهمك الكثير من الأمور، فمثلًا نحن كرجال محترمين ولنا وضعنا الاجتماعي الذي يجب أن نحافظ عليه، هناك نوعان من النساء يجب أن يكونوا في حياتنا.

النوع الأول هو المرأة الأم، التي تربي الأولاد وتكون ربة المنزل وواجهته الاجتماعية.

وهذه عادة ما تكون طيبة القلب مطيعة وفية متدينة.

وهناك النوع الآخر الذي يثير الصياد الماهر الموجود داخل كل رجل منا، امرأة ذكية مثيرة مراوغة صعبة الترويض وعصية على الامتلاك، لديها خبراتها وآراؤها وتجاربها، وتستطيع احتواءك وإغواءك وبالرغم من السعادة التي تشعر بها وأنت إلى جانبها، فإنك قد تشتاق إلى أم الأولاد أحيانًا لهدوء العلاقة والسلام الذي تنشره، على عكس البراكين التي تفرجها المرأة من النوع الآخر، والتي تجذبك جدًّا ولكنك تظل على يقين دائم بأنها لا تصلح لأن تكون زوجتك أو أمًّا لأولاد، لا لا أبدًا، بل إن أقصي ما يمكنك فعله هو زواجها سرًّا إن اضطررت إلى ذلك.

هنا فتح عدنان الباب وصاح وأنا سأشهد على العقد، ضحكوا جميعًا ثم بدؤوا في تناول الغداء، والذي قد كان ينتظر قدوم عدنان فهو رابعهم، وهكذا قد اكتملوا واتفقوا على أن يذهب كل منهم إلى بيته ليستعد للحفل في الليل.

وعاد عابد إلى البيت وأنا خلفه ولم تتح لي الفرصة لأختلي به، ففي طريق العودة كانت الطرق مليئة بالناس يجمعون أغراضهم مع نهاية اليوم وغلق السوق، فتبعته إلى أن وصل إلى البيت ولاحت لي رائحة نور، آه يا حبيبة العمر يا نور، كم أتمنى أن أظهر لكِ وأحدثك ولكني لا

أريد إخافتك فقط إن كان هذا الغبي أفضل معكِ قليلًا ساعتها كان يمكنني أن أظهر لكي وأكون معكِ على طبيعتي دون أن تشكي في أي شيء، أحبك يا نور وتحبك كل ذرة في جسدي، ولكني لا أدري ماذا سأفعل مع هذا الغبي، ماذا إذا قتلته وبقيت أنا مكانه وأجعل من حياة نور سعادة وفرحًا واهتمامًا، ولكن أتقتل يا عابد! فمهما حدث فإن هذه حياته هو وفرصته، وهو لم يفعل ما يستدعي قتله، أم إنك تتصيد له لتزيحه وتأخذ مكانه أيها الخبيث، وهكذا دار الشجار بيني وبين نفسي.

ولكني أسكت هذا الشجار لأستمتع الآن بالقرب من نور وأتمنى ألا يرتكب الطبيب أي حماقة جديدة وإلا قتلته حقًّا هذه المرة ودون تفكير.

دخلنا المنزل فكانت نور جالسة تحتسي الشاي ولم ترد عليه التحية، إنها غاضبة، فوجدته يميل عليها ويقبلها قائلًا سامحيني كنت في عجلة من أمري، وأنا ليس لي سواكِ يا أم الأولاد، تحمليني ولا تكوني غضوبًا أين نور الحنون الطيبة؟

والغريب أن المسكينة قد لانت لسماع تلك الكلمات الحمقاء من هذا الغبي الكاذب، وكنت أرى في عينيه أنه يفعل ذلك فقط ليمهد لها لخروجه ثانية والسهر طوال الليل مع كاريمان، يا لك من قذر! ويا لك

من مسكينة يا نور، حين قالت له وما الذي قد غيرك في ساعات قليلة؟ ألم أكن نور النكدية التي تعشق الشجار، ماذا حدث؟!

فقال: قد وجدت صديقي وليد مريضًا جدًّا، وقررنا أن نذهب إليه جميعًا لنقضي اليوم معه ونرعاه، فهو وحيد كما تعلمين، وعندما نظرت إلى حال وليد ووحدته شعرت بنعمة الله أنكم في حياتي، فأنا بدونكم لا أساوي شيئًا، فصدقته المسكينة، بل ولا أدري كيف أقنعها أن تساعده في تحضير ثياب السهرة.

لقد وصل غضبي عليه لمنتهاه، وأقسم لكِ يا نور لأجعلنه عبرة لمن لا يعتبر.

أمضينا وقتًا قليلًا برفقة الحبيبة، ثم قام ليجهز نفسه للخروج، وبالطبع سأخرج معه، وقال الطبيب مودعًا: إلى اللقاء، قالها وهو غير مكترث.

وقلتها أنا وكلي أمل بأن ألقاكِ وقد ساهمت في إصلاح حياتك يا حبيبتي، فيكفيكِ ما قد عانيته في عالمي، إلى اللقاء يا أجمل النساء.

خرجنا ورائحة عطره تسبقنا طوال الطريق، ولقد تعمد التأخر قليلًا ليكون آخر من يصل من أصدقائه، ولكني لاحظت شيئًا غريبًا، لقد كان

هناك من يتبعنا طوال الطريق دون أن أتمكن من رؤية ملامحه، وحين وصلنا إلى الشارع الرئيسي ومع إضاءة الملهي تمكنت من رؤية وجه من يتبعنا، وكانت الصدمة عندما رأيته.

إنه مالك زوج نور في عالمي أنا، إنه لا يزال حيًّا هنا، وهو من كان يتبعنا، ولكني لم أتمكن من فعل أي شيء، ولقد رحل عندما اقتربنا من باب الملهى.

يا إلهي! يبدو أنه هو الذي يعاني من هجر نور له في هذا العالم، ويبدو أيضًا أنني لست الوحيد الذي يريد قتلك يا أيها الطبيب.

وما إن وصلنا إلى الملهى إلا وكانت دقات قلب الطبيب أعلى صوتًا من صوت الموسيقا التي تنبعث من داخل الملهى، كان الملهى كأي ملهى آخر، تزينه من الخارج بعض الإضاءات الملونة، ومجموعة من الحراس بالباب، وقد ترك أصدقاؤه رسالة له على الباب مع الحراس أن الحق بنا بالداخل، وبالفعل دخلنا.

وفتحت له الطرق، وكان يبدو أنه معروف بالمكان وله احترامه، فأخذ النادل يقوده إلى طاولة أصدقائه مرحبًا به، أهلًا بك يا سيدي، إن السيدة كاريمان تنتظرك بالداخل، قالها مبتسمًا ووصلنا إلى الطاولة

فرحب الأصدقاء به بحرارة وأجلسوه، وظهرت كاريمان برفقة فرقة الموسيقا على المسرح وبدأت في الغناء، كان لحنًا جميلًا لفتاة شقية توزع نظراتها على كل الموجودين وتتراقص، وكانت تملأ المكان بهجة ومرحًا، وكانت تبعث هنا بنظرة وهنا بإشارة كأنها وردة توزع عطرها على كل الموجودين.

وكان الطبيب يحترق غيرة عليها، ولكنه لا يملك أن ينطق فكان صامتًا مبتسمًا ابتسامة كاذبة، وكأنه يقول أريدك لي وحدي ولكن لا يقوى فمه على نطقها، وظل هكذا مدعيًا التماسك أمام أصدقائه الذين كانوا يتمايلون معها كباقي الزبائن، حتى أنهت فقرتها وذهبت لتغيير ملابسها لتجلس معهم بعد ذلك كما وعدتهم، وبالفعل جاءت بعد قليل واتجهت نحو الطبيب مباشرة قائلة في تمايل كنت سأحزن إن لم أرَك اليوم، فرد عليها وهو يرجف كيف لي أن أتأخر عن سماع صوت الكروان، فضحكت ضحكة رنانة مثيرة ألهبت بها فؤاده وجلسوا قليلًا وشربوا وضحكوا جميعًا.

وأخذ الطبيب يحدث كاريمان بنظرات عيونه فقط دون كلمات، وكانت تفهمه جيدًا، وكان يدور بينهما حوار عميق ولكنه صامت لا

يفهمه غيرهما، إلى أن لعبت الفرقة الموسيقية لحنًا فرنسي الإيقاع فطلب الطبيب من كاريمان أن تشاركه الرقص بطريقة رومانسية أنيقة فلم تمانع وقاما يرقصان على أنغام الموسيقا، وقد نسيا الحضور والناس، وازداد حماسهم لدرجة أشعلت تصفيق الحاضرين لهما في لحظة خلابة يحلم بها كل رجل وامرأة، ثم عادا من خيالاتهم على صراخ الجمهور وإعجابهم بهما، ثم تسللا إلى الحديقة خلف الملهى ليجلسا سويًّا في هدوء وكانا لا يزالان يضحكان من النشوة، وصمتت كاريمان قليلًا ثم قالت: ماذا تريد مني يا عابد؟

قال: أنا أحبك يا كاريمان وأنت تعلمين.

قالت: ثم ماذا بعد يا أيها الطبيب؟

قال: ماذا تقصدين؟!

قالت: عابد هل أبدو لك غبية إلى هذا الحد؟ هل تعلم يا عابد كم رجل بكى أمامي؟ صحيح أنني لم أنل حظًّا وافرًا من تعليم الجامعات ولكني أعلم الكثير عن الرجال، إنها مهنتي يا عابد، أعرفهم جيدًا، هل تظن أني أصدقك حين تقول لي أنك تحبني؟ لا يا عابد؛ أنا أعرف كل شيء، ولكن ما يدفعني إلى عدم صدك هو أنني في احتياج إلى أن أشعر

بالحب من رجل مثلك، له هيبته واحترامه بين الناس، فحين يقدرني ويحترمني رجل مثلك فإن هذا يشعرني بأنني ما زلت إنسانة.

إن أهم ما يميزك بالنسبة إلى هو أنني أرى في عينيك أنك تحترمني يا عابد، فقط هذا ما يميزك، فأنت تخرج طفلة كنت قد سجنتها داخلي منذ زمن، وهي التي تسمح لك بالاقتراب، أما إذا استفاقت كاريمان التي أعرفها فلن يكون لك مكان هنا صدقني، وها أنا قد تكلمت معك بكل وضوح، هلا صارحتني يا عابد أنت أيضًا ماذا تريد مني بصدق.

فقال عابد: لا أدري ما أقول، ولكني أحبك ولست أدري أكثر من هذا.

قالت: وماذا عن زوجتك وأبنائك يا عابد؟

قال: ماذا عنهم؟ هم شيء وأنتِ شيء آخر.

قالت: حسنًا وإلى متى ستظل تتحمل عملي بالملهى، فأنا أراك يا عابد وأرى نظراتك وأنا أغني.

قال: ما رأيك أن تتركي هذا العمل ونتزوج يا كاريمان؟

فضحكت بصوت عالٍ ضحكة مليئة بالسخرية ثم قالت: حقًّا؟

فقال: نعم بكل تأكيد.

قالت: جيد وهل سننجب أطفالًا؟ وهل الطبيب عابد سيقدمني إلى أهله على حقيقتي أم سنكذب عليهم بخصوص عائلتي وحياتي السابقة؟ وماذا عن أصدقائك الذين عرفوني كاريمان صوت الكروان الذي طالما اقترن سماعه بالملاهي الليلية والحانات، هل فكرت في كل هذا يا أيها الطبيب العظيم؟ (كانت تختبر صدق نواياه فلقد نظرت إلى عينيها فوجدتها وكأنها تصرخ راجية متوسلة أرجوك أن تصمد وكن صادقًا، لكنه رسب وبجدارة في اختبار كاريمان له)

فقال: نعم فكرت، ولهذا فأنا أريد أن يكون زواجنا هذا سريًّا، ولسنا بحاجة إلى أطفال على الأقل للفترة الأولى من زواجنا، ولم يكمل حديثه إلا وفاجأته كاريمان بالضحك مرة ثانية.

وقالت: قد قلت لك يا عابد أنت كغيرك، كم كنت أتمنى أن أجد فيك شخصًا مختلفًا، ولكن للأسف أنت مثلك مثل كل الرجال، أنت تريد كريمان التي في خيالك أنت، والتي لديها ما ينقص زوجتك، وتريد أيضًا زوجتك لما لديها وليس لدى كاريمان، تريد كل شيء يا عابد وأنا لن أكون في حياتك تلك الدمية التي سوف تضعها في عالم من صنعك

أنت إلى أن تمل منها ثم تبحث عن غيرها لتنسيك ملل كاريمان، أو قد تعود إلى رشدك وإلى زوجتك المحترمة وأولادك وتترك كاريمان محطمة بائسة لا قيمة لها، فأنا أبحث عن فرصة حقيقية لأنجو مع حب حقيقي يقبلني ويسامحني وينجيني، ولهذا أقولها لك من الآن يا عابد، اذهب إلى زوجتك فهي بحاجة إليك، وصدقني يا عابد النساء كلهن سواء، وإن كنت تبحث عن شيء معين فاذهب إلى زوجتك وتحدث معها وأخبرها بما تريد، واسمع منها ما تريد هي أيضًا منك، ولتحمد الله على أنك ما زالت لديك عائلة يمكنك الرجوع إليها والاحتماء داخلها، واترك كاريمان فإن قلب كاريمان لم يعد يتحمل، فأنا بالكاد أحيا هنا في الحانات إلى أن يذهب جمالي الذي هو لعنتي، فهذا طريق قد اخترته لنفسي وعليَّ أن أتحمل ثمن اختياراتي وتركته وعادت إلى الملهى.

هنا شعر الطبيب أنه قد أهانها وأشعرها بأنها سوف تكون مجرد ركن منزوٍ في حياته، بينما كانت تظن أنه يريد أن ينقذها من عالمها، وعندما واجهته بحقيقة ما بداخله شعر بالخجل من نفسه، ولكنه ما زال يريد أن يكمل حديثه معها، فذهب خلفها إلى الملهى فوجدها على طاولة أحد

الزبائن جالسة تضحك وتهمس له ويهمس لها، وعندما لاحظته قد زادت في تلك الأفعال حتى تجرأ الرجل ووضع يده على ظهرها فلم تمانع بل وتجاوبت معه.

هنا لم يتحمل الطبيب فذهب إلى الطاولة ونهرها أمام الجميع، فردت بحدة فتدخل الرجل الجالس إلى جوارها فصارت مشاجرة وتدخل الحراس، وكان الطبيب غير متزن وقد تلقى بعض اللكمات من الرجل حتى إن الحراس قد حاولوا إبعاد الطبيب وإزاحته إلى الخارج فوجد نفسه ملقى على رصيف الشارع أمام الملهى مضروبًا مهانًا، ولم يكن ألم الضرب هو ما يؤلمه؛ بل كان ألم الإهانة، لحظات وخرجت له كاريمان وساعدته ليتكئ عليها لعبور الشارع، وأجلسته على الجانب الآخر من الطريق ليرتاح قليلًا، ثم مشيت به إلى طريق الحديقة العامة وبعد مسافة قليلة من الصمت قالت: أتدري يا عابد أنا لم أكن كذلك، ولا تظن أني سعيدة بما أنا فيه، ولكني أريدك أن تفهم سبب ما حدث، لقد كان أحد أهم أسباب ما أنا فيه هو زوج مثلك قد شعر بالملل ولم يعطني فرصة، ولم يحاول أن يقاوم نزواته التافهة، وكنت أنا مثل زوجتك تمامًا، طيبة ساذجة بدون خبرات، وكان هو أول من عرفت وكنت أحبه، ولكنه

خانني وحين واجهته قال: إنني لم أستطع احتواءه، هنا شعرت بالكره وأول ما كرهت كانت نفسي وطبيعتي، لقد جعلني أكره طيبتي وعفويتي وسذاجتي، أنتم تريدون من يرهقكم وأنتم تلاحقونه، تريدون من يجعلكم غير مرتاحين في حالة من القلق.

أما المرأة الوديعة المستكينة التي أنهكها انشغالها بالأطفال والبيت وحياة هذه الأسرة تصبح لديكم مملة ونكدية، ومنذ ذلك اليوم قررت أن أكون امرأة متحررة ذكية تعرف كل شيء، وها أنا ذا كما ترى أستطيع أن ألعب بقلوب الرجال لعبًا، ولكن لا سبيل لي للعودة لما كنت عليه، ولست وحدي يا عابد التي فقدت براءتها، انظر إلى دلال أيضًا هي كانت ابنة لأب مثلك يومًا ما ترك الأولاد ورحل، كان أَبًا أنانيًّا فكبرت كما ترى وهي الآن راقصة الملهى الأولى، وتنتقم لنفسها من كل أبٍ تافهٍ مثلكم، غير مقدر لما حباه الله من نعم، وإذا بحثت عن كل امرأة ممزقة لوجدت في حكاياتها رجلًا كان هو سبب كل شيء، أنا لا أبرر لنفسي فأنا أعلم أنني أخطأت، ولا أقول إن كل امرأة ظلمت أو مرت بتجربة مؤلمة مسموح لها بأن تتحول إلى شيطانة، ولكن هذا لا ينفي الذنب أيضًا عن الرجال، دعك مني فأنا كما قلت: لك أدفع ثمن غلطتي.

ما كان عليَّ أن أخسر نفسي وأحول من طبيعتي لأجل رجل مر في حياتي، ولكن دعك مني، فأنت ما زالت أمامك الفرصة صدقني، فلتذهب واغتنم الفرصة المتاحة لك قبل أن تضيع من يدك، واعلم أن الحياة ليست كاملة، وليس فيها ما هو كامل يا عابد، فارضَ بما قسمه الله لك يريح قلبك ويعوضك عما فاتك، فقد تجد في حضن أبنائك ووفاء زوجتك ما يعوضك عن ألف كاريمان، الوداع يا عابد.

رحلت كاريمان وظل وحيدًا بالحديقة بعيدًا عن أعين الناس، وأخذ يبكي، جلس قليلًا ثم بعد أن فرغ من البكاء قرر العودة إلى بيته وكنت قد بدأت أشفق عليه، فلم أعد أريد قتله، بل وقد ترك كلام كاريمان هذه أثرًا كبيرًا في نفسي؛ كيف لفتاة مثلها أن تكون بهذا العمق؟! فلقد غيرت لي أفكاري، نعم فأنا لن أضع الناس في قوالب مجهزة بعد الآن، فإن هذا المتسول بالرواق لم يولد متسولًا، ولا البغي ولدت بغيًّا، نعم فليس هناك شخص يمثل الشر الخالص، ولا يوجد أيضًا من يمثل الخير الخالص، فنحن ذلك الخليط بين الاثنين، ممزوج بالظروف وأخطاء التجربة والانكسار، سِرنا باتجاه المنزل وعندما اقتربنا من المنزل رأى مالك يغادر بيته فجن جنونه وفزع إليه، ولكن مالك عندما رآه فر هاربًا، فصعد إلى

البيت في غضب شديد وكان رأسه ممتلئًا بالأفكار السيئة، فهو يعلم أن مالك هذا كان يحب نور وقد حاول الارتباط بها قبله ولكنها رفضته، فأخذ يهاجم نور في حدة وعنف ماذا كان يفعل هذا الشخص هنا في بيتي؟ وكيف تسمحين له بالدخول في مثل هذا الوقت يا أيتها السيدة الفاضلة؟

وكانت إلى جانب نور خادمتهم السيدة عفاف، فلم تجب نور وقالت للسيدة عفاف هلا أخذتي الولد إلى سريره؟ وبالفعل تحركت السيدة عفاف ومعها الطفل.

وهنا انفجرت صرخات نور الباكية كيف استطعت أن تفعل بي هذا، كيف يا عابد؟ ماذا فعلت لك؟! وألقت هاتفها في وجه الطبيب وعلا صوت نحيبها.

فأخذ ينظر في الهاتف فوجد صورته هو وكاريمان وهما يرقصان في الملهى، كانت كالصاعقة التي أصابته، يا إلهي ليس الآن.

فلقد كنت عائدًا أنوي الاعتراف لها، وأن أستسمحها وأن نبدأ حياتنا من جديد، ثم قال: يا نور والله لقد كنت قادمًا إليك لأبلغك بكل شيء، فلقد تغير كل شيء يا نور، لقد عاد إليَّ عقلي صدقيني.

صرخت نور: هل كنت تظن أنني لا أدري يا عابد؟ لقد كنت أعرف كل شيء، كل شيء يا عابد، ولكني كنت أقول إنك ستنتهي من ذلك، إنما هي نزوة، أتدري يا عابد لماذا لم أتحدث إليك من قبل؟ حتى حين كنت أساعدك في ارتداء ثيابك وكنت أختار لك العطر كنت أعرف أنك ذاهب لخيانتي، وكنت أقول لعل الله يهديه، لعل معاملتي الطيبة تعيده، وفي الحقيقة يا عابد لم أجرؤ على أن أواجهك؛ لأنه لم يكن لدي دليل ولم أرد حتى أن أبحث عن دليل، لأني كنت شاعرة بما يدور ولكني الآن واجهتك فلن أستطيع أن أكمل كما كنت، فأنت الآن تعرف أنني أعرف يا عابد، فأنا لن أستطيع أن أكذب على نفسي أكثر من ذلك، ولقد نفد صبري ولم أعد أتحمل، فأرجوك يا عابد طلقني ودعني أربي أولادي في هدوء، واذهب إلى من تريد كما تشاء.

صاح عابد باكيًا: أرجوك يا نور، أنا فعلت كل ذلك حقًّا ولكني كنت أعمى صدقيني، وقد جئتك اليوم وقد تخلصت من كل هذا، أرجوك لا توصدي الباب أمامي، أرجوك يا نور فقط هذه المرة أعطيني فرصة لأثبت لكي أنني تغيرت، من أجل أبنائنا يا نور.

فقالت: أبناؤنا! الآن تذكرت أبناءنا بعد أن جعلت من أمهم أضحوكة البلدة، الزوجة البلهاء الغبية المملة التي يخونها زوجها المسكين المقهور، أنا يا عابد! والله يا عابد لا أسامحك ولن ترى نور التي عرفتها مرة ثانية أبدًا، أريد الطلاق، وقد كلمت عمي وقد قال إنه سيأتي صباحًا لينفذ كل الإجراءات، أما الآن فأنا لا أريد أن أراك يا عابد، إن رائحة نساء الحانات تفوح منك، أرجوك اتركني واذهب.

- حسنًا يا نور سأذهب، ولكن يجب أن تعلمي أنه لم يكن ذنبي وحدي؛ فلقد انشغلتِ عني يا نور ولم تعودي تهتمين لأمري، كنت في كل يوم أبتعد خطوة عنك ولم تفهمي، لم تعد بيننا أشياء مشتركة غير الطلبات اليومية وقليل من الأحداث، ونسيتِ يا نور أني رجل أحتاج امرأة تحتويني، تشاركني اهتمامَاتي وشغفي، امرأة تبهرني أحيانًا، دائمة التغيير والتطور والتجدد في كل شيء، لقد تحولتِ من زوجة إلى أم فقط، أم يا نور، ونسيتِ هذا الزوج الذي ما زال داخله ذلك الطفل الذي يريد اهتمامًا أيضًا ومشاركة وصدامًا أحيانًا، كنت بحاجة إلى أن أشعر بك يا نور، أنا سأرحل الآن ولكني سأعود في الصباح بعد أن تهدئي وأرجوكِ

يا نور أتوسل إليك لا تغلقي أبواب الرحمة أمامي، أخطأت وتُبت أرجوكِ يا نور تذكري لي أي لحظة من لحظاتنا الجميلة ولا تتسرعي.

صرخت نور: اخرج أرجوك. فخرج عابد.

ولم أستطع تلك المرة أن ألحق بالطبيب بل ظللت إلى جانب نور أبكي على بكائها، ولكني حتى لا أستطيع أن أظهر لها، فإن أنا فعلت فهي سوف تراني في صورة زوجها الخائن، وهو آخر من تريد أن تراه الآن، فجلست إلى جوارها إلى أن غلبها النوم فرقدت بالأرض إلى جانبها ثم استيقظت على صوت صراخها تتألم، يبدو أنها تلد الآن.

ماذا أفعل، نزلت مسرعًا إلى غرفه السيدة عفاف وطرقت الباب وأسقطت كل شيء على الطاولة كي أوقظها، وبالفعل قد تمكنت من إيقاظها.

ثم سمعت صوت نور فهرعت إلى غرفتها مسرعة ثم طلبت لها الطبيبة التي كانت تتابع حالتها وبقيت أنا إلى جانب نور.

ولقد كان الألم يعتصرها فتبكي هي وتصرخ وأشعر أنا بأضعاف ألمها، إلى أن جاءت الطبيبة فخرجت من الغرفة لأنتظر بالخارج، ثم طالت المدة كثيرًا حتى تملكني الذعر فإذا بي أسمع كلمات مرتبكة من

داخل الغرفة وحركة غير عادية، دخلت فإذا بالطبيبة تقول إن وضع نور صعب جدًّا، وإن الطفل ليس في وضعه الطبيعي، وأنه يجب نقل نور حالًا إلى المشفى، لم أعد أتحمل يا رب، أرجوك فأنا إن رأيتها تموت ثانية لا أدري ماذا سيبقى مني، وبالفعل وصلت سيارة الإسعاف ووضعوها داخل العربة فأظهرت نفسي أمام العربة فظن الجميع أنني زوجها الطبيب، فأخذوا يزجون بي داخل العربة لأركب معها، وبالفعل ركبت معها فكانت تنظر إليَّ نظرة غريبة، فأخذت أقبل يدها وأبكي ونسيت كل شيء، فقط نور بين يدي مرة ثانية، عادت إلى الحياة، كنت أبكي كطفل ينهنه إلى أن قالت لي دعك من هذا، فإن حدث لي شيء فأرجوك كن أبًا صالحًا لأولادك، أما أنا فلي الله فهو القادر على تعويضي عما فعلت بي.

حدثتني على أني الطبيب، ثم وصلت العربة إلى المشفى فوجدت عابد أمامي. وقد أبلغوه وقد سبقنا إلى هناك، فاختفيت أنا وما زالت يدي تشعر بيدها فاحتضنت يدي وانتظرت بالباب حتى انهالت صرخات عابد من داخل غرفتها، لا يا نور، ليس هكذا، وليس الآن، لا يا نور، ليس قبل أن تسامحيني، نور، لا يا نور.....

هنا تذوقت الموت للمرة الثالثة، رحلت نور كعادتها تاركة آلامًا لا حدود لها، وتركت أيضًا خلفها طفلين والطبيب الذي لا أدري كيف سيتمكن من إكمال حياته، وأنا الذي كنت أظن أنني سأجد حياة أفضل وفرصة جديدة مع نور في هذا العالم، فما وجدت إلا الألم من جديد فقررت الرحيل سريعًا إلى عالمي، ولكني تذكرت الطبيب والطفلين فقلت: على الأقل يجب أن أترك له شيئًا يعينه على ما هو فيه، فإن حاله هذا أصعب من حالي حين رحلت نور، فلقد فقدها حين شعر بها وبقيمتها، والأصعب أنه يشعر بالذنب تجاهها، فهذا ما قد يقتله، فلهذا نويت أن أترك له رسالة تريح له قلبه قليلًا وتساعده، فذهبت إلى هاتف نور وكتبت رسالة إليه تقول سامحتك يا عابد لأجل أبنائنا سامحتك، ولأني ما زلت أحبك، وأرسلتها له لعلها تطفئ قليلًا من نيرانه، ولقد اعتمدت على أنه لن يلتفت إلى هاتفه الآن، بل سيقرؤها بعد يوم أو يومين فسيظن أنها أرسلتها له قبل أن تفارق الحياة.

❋ ❋ ❋

الفصل الخامس

(ساندرا والعودة للعالم الأصلي)

عدت إلى المنطقة الفاصلة وما زالت دموعي تغرق وجهي ورأتني ساندرا فلم تسألني، بل فاجأني ما فعلته، فلقد دفنت رأسي في صدرها وظلت تبكي لبكائي وكأنها أعطت الإشارة لقلبي أن ابكِ وأفرغ ما بداخلك، فانفجرت في البكاء والصراخ ولم أنطق بكلمة.

ولكني شعرت أنها علمت كل شيء، كانت تتأوه كأنها أنا وكأنها تقتسم حزني معي، شاركتني الألم، حملته معي ولست أدري من أين لها بهذه الشفافية! وظللت هكذا إلى أن صمتت كل جوارحي فأخذت تمسح دموعي وتقول: ابكِ يا عابد، دع الحزن يمر يا صديقي، فإن كتمانه يزيد من حجمه، ابكِ وتأوه كما تشاء.

وبعد قليلٍ من الوقت وبعد أن أخبرتها بما حدث قالت: عد إلى عالمك يا عابد وخذ وقتك في استيعاب ما رأيت، وانظر بعناية فلقد كانت هذه أحد احتمالات حياتك، وكان من الممكن أن تكون أنت هذا

الطبيب، فانظر جيدًا وقارن وافهم مما حدث، وإن عدت مرة أخرى إلى هنا فستجدني بانتظارك، الوداع يا عابد.

وبالفعل فعلت كما قالت وعدت إلى عالمي، ففتحت عينيَّ لأجد نفسي على سريري، ووجدت عمتي تنظر إليَّ في دهشة ثم هللت الحمد لله على سلامتك يا بني، قد أقلقتنا عليك، فقلت لها: لمَ؟

قالت: أنت نائم منذ يومين يا بني، بلا زاد ولا حتى شربة ماء، وكنت تصرخ وتبكي، أنا لا أدري ماذا أصابك يا بني، هون عليك، أرجوك لم تعد عمتك تتحمل أكثر من هذا.

فطمأنتها وقلت لها أشعر بالظمأ يا عمتي، فأحضرت كوبًا من الماء فلم أستطع أن أحرك ذراعي من شدة الإعياء، فسقتني وحين رفعت رأسي لأتناول الكوب وقعت عيني على صورة نور فوجدت الكلمات تهدر على لساني من دون تفكير فقلت: الحمد لله، فرمقتني عمتي في حيرة وقالت: منذ زمن لم أرك تذكر الله بالحمد؟

فقلت: لقد كنت أظن أنه ليس على الأرض من هو أسوأ مني حالًا ولكني كنت مخطئًا يا عمتي، فبكت عمتي واحتضنتني وأخذت تردد:

الحمد لله يا عابد، الحمد لله يا ولدي أنه قد هداك إلى الرضا بقضائه وقدره.

فقلت لها: باكيًا أريد أن أكلمه يا عمتي، أريد الوضوء فساعدتني وكانت تلك هي أول ركعاتي منذ رحيل نور، كبرت فكبر خلفي الكون بأكمله، وشعرت حتى بالجماد من الأثاث في غرفتي أنه يشاركني التكبير، وكأن الأرض تهتز من تحتي، وحين قلت: "إياك نعبد وإياك نستعين" لم أتمكن من تجاوزها، أقولها ثم أبكي، ثم أعيدها ثم أبكي وكأني أقولها للمرة الأولى في حياتي، أو كأني أفهم معناها لأول مرة، بل وحتى تلك الكلمات إياك نعبد وإياك نستعين كانت كأنها تسلل إلى مسامعي للمرة الأولى، وتنتشر في كل مسامي، وما إن لمس وجهي الأرض إلا وانفجرت كل ذنوبي واستحالت دمعًا وألمًا، وأخذت أشكو إليه وأستغفره وأحمده وأدعوه أن يريني ما لم أدركه، وأن يريح قلبي ويساعدني، كنت مشتاقًا إليه، كنت أكلمه كما يكلم الطفل أباه، كنت مشتاقًا إلى قول يا رب، صليت وصلى خلفي كل الكون أو هكذا شعرت، وكأن عالمي كله يسجد في هذه السجدة، كنت أتكلم من كل ذرة في جسدي، وشعرت بأنه معي الآن وفي تلك اللحظة بالتحديد.

وقد استغرق الأمر مني بعض الوقت حتى تمكنت من استعادة نفسي ولملمة بقايا عابد المبعثرة، وأخذت أعيد النظر في رحلتي مرة تلو المرة كل ليلة.

ولقد حاولت تقبل قدري ولكني كنت أبحث عن الحكمة من وراء ذلك، ولماذا هي بالتحديد كانت اختباري دائمًا، ومن المؤكد أن في هذا السؤال الموجه إليَّ هدفٌ وكان يجب عليَّ أن أفهمه حتى أتمكن من الإجابة عليه، وهنا شعرت بأني أحتاج إلى مقابلة ساندرا التي باتت هي الوحيدة القادرة على مشاركتي أفكاري وأحزاني، بل ولقد رأيت ساندرا في ذلك الوقت على أنها أولى مكافآتي على الرضا، فكانت هي السحابة التي تظلني طوال طريقي، فتحجب عني حرارة الشمس في رحلتي الروحية، وبالفعل ذهبت إلى لقائها وكانت كعادتها حارة الاستقبال، ودودة، مهتمة، جلسنا وقالت: أرى فيك اختلافًا كبيرًا.

فقلت: إنها محاولة الرضا يا ساندرا ليس أكثر.

قالت: تكلم يا عابد، أخبرني ماذا وجدت وماذا حدث، فإن حالتك حين خرجت لم تكن تسمح لي بنقاشك، لكني أراك الآن في حالة جيدة.

عابد: ذهبت لأرى نور فرأيت نفسي أو نظيري وهو يخونها ويدمر حياتي معها، أقصد حياته، رأيت كيف يمكن أن يكون المرء عدوًّا لنفسه يا ساندرا، حين لا يقدر نعم الله، وحمدت الله على أني قد اكتشفت أنني لست النسخة الأسوأ من احتمالات وجودي، وتعلمت ألا أحكم على الناس من ظاهرهم، فخلف كل فعل نراه من الناس هناك آلاف المبررات والقصص والدوافع والظروف.

وقد تأثرت نفسي بكاريمان التي تغرق في مصيرها البائس، وبالرغم من ذلك إلا أنها قد اختارت أن تمثل الخير في عالم قد شوه ملامحها بظلمه، ولكنها رفضت أن تمرر هذا الظلم من خلالها، وأصرت على أن تبحث عن النجاة.

وأدركت أيضًا أنه ما من نفس إلا وذاقت طعم الحرمان، ولكن أهم ما تيقنت منه هو أنه ما من خطأ نرتكبه إلا وله ثمن سيدفع لا محالة، ولكن ما لا أعرفه حقًّا هو لماذا كانت نور دائمًا هي اختباري؟! وهل لهذا من هدف أم لا؟ أريد أن أفهم، ساعديني يا ساندرا، فأنا بعدما رضيت بقدري لم يبقَ لي سوى أن أفهم العلة في هذا القدر.

ساندرا: أنت من يجب أن يجيب يا عابد صدقني، إنه اختبارك أنت وإنها لحياتك أنت، ما رأيك في طرق باب أحد العوالم الأخرى...

وقبل أن تكمل قاطعتها صارخًا: بالله يا ساندرا، ألم يكفِكِ أنني قد رأيتها تموت مرتين، هل تريدني أن أتجرع موتها للمرة الثالثة، لا؛ فأنا لن أخوض تلك التجارب مرة أخرى يكفيني ما قد رأيت.

ساندرا: يا عابد ليست كل الاحتمالات متشابهة، وليس من الضروري أن تموت نور مرة أخرى، بل قد يكتب لها مصير مختلف في عالم آخر، ألا تتذكر فلقد وجدت مالك زوجها المتوفى في عالمك، فلقد كان حيًّا في هذا العالم ولم يمت، على الرغم من موته في حياتك الأصلية أليس كذلك؟ فلربما هي الأخرى تكتب لها النجاة في عالم جديد.

وقد تجد معها الحلول لباقي ما تحتاج إليه لتسكن روحك وتتخطى ألمها وعذابها.

عابد: ولكن قلبي لم يعد يتحمل يا ساندرا، لقد أصبح ينزف ألمًا ومرارة.

ساندرا: تذكر يا عابد لقد أخبرتك من قبل، إن هذا مؤلم ولكنه سبيل الخلاص الوحيد للشفاء من أوجاع لم تتحملها أنت من قبل يا عزيزي.

عابد: وهل تعتقدين أنني قادر على هذا؟!

ساندرا: انظر إلى الأفق وسنرى إن كانت لديك فرصة أم لا.

نظرت في خوف ورهبة كما ينظر المريض إلى المشرط في يد الطبيب الممدودة إلى جسده، وبنفس المنطق قد استسلمت لكلام ساندرا راجيًا أن أجد السلام لروحي التي أصبحت كجمرة نار، كلما سعيت لإطفاء لهيبها ازدادت اشتعالًا وتسعرًا، فوجدت الثلاث عوالم كما هي، وقد ظهرت إلى جانبهم بوابة لعالم جديد، وحين أخبرتها قالت: جيد فلتختر يا عابد ولتواجه وتذكر أن الراحة قد تكمن في الألم أحيانًا.

❋ ❋ ❋

الفصل السادس

(العالم الثاني)

اخترت العالم الأول من ناحية اليمين إلى ذلك الذي قد زرته سابقًا، والذي قد انطفأ سطوعه بعد زيارتي له، وبالفعل قد تم الولوج إليه فكانت الخطوات مألوفة، نفس الضوء ونفس تداخل الألوان والأحاسيس المخيفة، إلا أن المدة الزمنية التي كان يحدث فيها الولوج قد طالت عن المعتاد، ولكن لا بأس فها هو الضوء ينفجر في كل مكان أخيرًا، وكان هذا يعني نجاح الولوج، ثم يبدأ هذا الضوء في الخفوت ليفصح عن تفاصيل هذا العالم برفق وتتكون صورته أمامي كأنها صورة ترسم على ورقة بيضاء، أول ما يظهر عادة هي الشمس ثم السحاب ثم الأشجار ثم كل ما على الأرض ثم الأرض التي تحملني، ولكي أتجنب المفاجآت آثرت أن أكون مختفيًا حتى أقرر ماذا سأفعل، وبالفعل كان أول ما وقعت عليه عيناي هو الناس، ومما أفزعني أن الناس كانوا يرتدون الملابس التي كانت تظهر في المسلسلات التاريخية أو الأفلام الدينية، وهنا تملكني الرعب أن أكون قد تحركت في الزمان إلى الوراء أي

إلى الماضي! ولكن هذا غير منطقي؛ فهو ليس عالمي لأعود إلى ماضيه، هل هذا العالم ليس في نفس زماننا؟ فإن الزمن فيه مختلف، أو إنهم لم يتقدموا في العلوم والاكتشافات مثلًا، لست أدري لكنها أيضًا فرصة عظيمة؛ فلكم حلمت بالعودة بالزمن، إن هذا سيكون شيئًا رائعًا أن أرى نور ونظيري وهما في هذا الزمان، أخذت أتجول في المدينة وكانت مدينة جميلة حقًّا، ولقد كانت البيوت البسيطة تفصح لي عن تفاصيل هذا العصر، وكان الناس يستخدمون الخيول في التنقل، وكانت ملابسهم جدًّا مريحة، ولكن ما كان يقلقني فقط هو السيوف على خصور بعضهم وأعتقد أنهم كانوا من الجنود.

فعندما كنت أشاهد هذا على التلفاز في عالمي لم أكن أفكر في أن هذا مفزع إلى هذا الحد، لأنك حين تكون في وسط ذلك الكم من السلاح الأبيض إنه حقًّا لشيء غير مريح بالمرة، ولكنني بعد قليل من الوقت قد اعتدت عليه.

كانت محلات الطعام لا تختلف كثيرًا عما لدينا، كان ينقصها فقط الزجاج والكاشير والعملات الورقية، فهنا لا يوجد عملات ورقية؛ بل كانت معدنية.

ولقد تابعت أحد الزبائن وهو يقذف العملة للنادلة في المطعم أو الجارية، لا أدري ولكنها تشبه النادلة تمامًا، وسرعان ما بدأت أن أشعر بالارتياح هنا.

ولكن يجب عليَّ أن أظهر لكي يتعرف عليَّ أحدهم قبل أن تغيب الشمس، ولكن ملابسي كانت لا تناسب هذا العالم أبدًا، إذن يجب عليَّ أولًا أن أجد ملابسًا لأرتديها، وهنا قررت ولأول مرة في حياتي أن أسرق.

فلم يكن هناك بديل عن السرقة، وبالفعل قد حسمت أمري وأخذت أبحث عن ملابسٍ يمكنني سرقتها، وقد كان هذا سهلًا، فهنا لن يتقيد المرء بمقاسات معينة؛ لأن تصميم الملابس كان يجعلها فضفاضة ويمكن ارتداؤها للعديد من المقاسات، ولكني بحثت في السوق كله فلم أجد محلًا لبيع الملابس.

إلى أن وجدته، دكان صغير يعرض العباءات الرجالية والجلابيب، ولكني وجدت بالداخل هذا الرداء الذي به غطاء للرأس ملقى على الظهر وكان هذا بالضبط ما كنت أريده حتى أتمكن من إخفاء ملامح

وجهي إذا ما أردت ذلك، دون الحاجة إلى التخفي فإن التخفي والظهور قد يحدث لي مشاكل إذا ما رآني أحد وأنا أظهر فجأة أو حين أختفي فجأة، المهم ارتديت الملابس وتسللت في خلسة وخرجت في هدوء أثناء انشغال البائع بتناول غدائه، ومشيت بين الناس أنظر للمارة حتى يتعرف عليَّ أحدهم كما حدث سابقًا ثم يقودني مباشرة إلى معرفة نظيري في هذا العالم ولكن هذا لم يحدث.

وقد مر وقت طويل ولم يتعرف عليَّ أحد من السوق، ولقد شعرت بالملل والتعب والجوع أيضًا، وهنا تحسست وجهي لأمسح عرقي وفوجئت بهذه اللحية.

قد أصبحت لدي لحية، جيد أريد أن أرى نفسي كيف أصبحت، لم أجد حولي مرايا ذهبت إلى سطل الماء بجوار المطعم وشربت ثم نظرت بالماء فكانت ملامحي تبدو كما هي، فقط كانت اللحية لكنني في نفس صورتي وعمري.

إذن يبدو أن نظيري هنا في نفس عمري فقلت: جيد، وكانت اللحية تناسب وجهي، لقد كان بها بعض الشيب ولكن لا بأس، وأثناء ما كنت سارحًا في تلك الملامح أتأملها شعرت بيد أحدهم تربت على كتفي

فاستدرت فإذا هي النادلة تعطيني بعض الخبز الذي يحوي قطعًا من اللحم وتبتسم وتشير لي بيديها إلى الركن لأجلس فيه، فتناولت طعامي في صمت وابتسمت لها شاكرًا فاستدارت لتغادر ثم عادت لتواصل عملها.

وجلست بجانب المطعم أتناول الطعام وأرقب المارة وأنا أفكر كيف سأجد نظيري هذا، وبينما أنا أفكر عادت إليَّ النادلة مرة أخرى وقالت: إذا كنت غريبًا وتبحث عن مأوى فعليك بالذهاب إلى بيت العارف، فهناك يمكنهم استضافتك، ولكن هنا لو رآك السيد عثمان صاحب الدكان فسوف يضرب عنقك فهو لا يحب عابري السبيل أو الشحاذين،

عابد: كيف عرفتِ أنني عابر سبيل؟ ولم ساعدتني إذا كنت تخشين من عثمان صاحب الدكان هذا؟

فقالت: من عرف الجوع يعرف الجائع يا رجل، عندما أطلت في وقوفك بجانب المطعم علمت أنك لست شحاذًا ولكنك متحير من الجوع، فتقدمت إليك قبل أن يأتي عثمان فينهرك.

- شكرًا لكي يا سيدتي.

فقالت ضاحكة: سيدتك !لم ينادِني أحد من قبل هكذا.

فقلت: فأنا لا أعرف اسمك، فماذا أقول؟

فقالت: أنا دلال.

- يا له من اسم جميل، شكرًا لكِ يا دلال، ولكن هلا وصفتِ لي كيف أذهب إلى هذا البيت؟

دلال: فقط سر في هذا الطريق مباشرة لتخرج من السوق ثم اسأل أي شخص عن بيت العارف فهو أشهر شيء هنا، ولقد كانت ترتدي سوارًا براقًا كان يلمع في يدها.

سلكت الطريق الذي أشارت إليه مسدلًا غطاء رأسي، وكنت أتفقد الناس والدكاكين من تحت غطاء رأسي حتى انتهى السوق، ومع نهاية السوق لاحت لي طرق مختلفة فلم أعرف أيها أسلك، وكان هناك رجلان يمشيان سويًّا فسألتهما؟

من فضلكما أريد بيت العارف، هلا أرشدتماني إليه فأنا غريب عن البلدة؟

فقال أحدهم في فظاظة: فلتتبع سوارك يا رجل ولا تزعجنا.

فلم أفهم ولم أرد أن أطيل الحديث مع أي شخص خوفًا من أن نتطرق إلى تفاصيل قد تعرضني للخطر فالتزمت الصمت، فهمس أحدهم إلى الآخر قائلًا: يا رجل مالنا به لعله من الدراويش الذين يرفضون ارتداء السوار، فلنرشده وحسب.

ثم قال: انظر يا رجل، فلتسلك هذا الممر الذي سيقودك إلى الطريق الكبير هناك، يمكنك رؤية قصر العارف واضحًا أمامك في نهاية الطريق، وأشار بيديه إلى اتجاه الشرق وقد لفت انتباهي ذلك السوار الغريب الذي يرتديه الرجل في معصمه حقًّا، لقد كان مميزا جدًّا ولقد كان مختلفًا عن سوار دلال، وكان مضيئًا في يد الرجل ولقد تعجبت منه ولم أستطع تحديد ما إن كان شيئًا حديثًا ينتمي إلى عالمنا نحن في المستقبل أم إنه مجرد سوار تتوسطه جوهرة تنتمي إلى ذلك العالم القديم لا أكثر!

شكرت الرجلين وتوجهت إلى ناحية الممر.

فلم يعلقا بعدها وتجاهلاني تمامًا وواصلا حديثهما سويًّا وتابعا السير، وتابعت أنا أيضًا سيري حتى لاح القصر في الأفق، قصر مهيب يشبه قصور بابل الأسطورية، لقد سحرني حقًّا، كلما اقتربت منه زادت هيبته وجماله، وحين دنوت من بوابته العملاقة وجدت عندها جمعًا من الناس

يصطفون أمام باب القصر، وكان هناك عمال على تلك البوابة يدخلون الناس على دفعات مكونة من سبعة أفراد، في كل مرة يدخلون سبعة أفراد، ثم ينتظرون قليلًا ثم يسمحون للمجموعة التالية بالدخول، اقتربت أكثر من البوابة وإذا به قصر ضخم، تتلو البوابات الضخمة حديقة شاسعة وفي نهايتها ترى طرفين لسلمين كبيرين، وفي أعلى السلمين يظهر باب القصر الداخلي، والذي لم أستطع التمييز ما إن كان هذا المعدن ذهبًا أم نحاسًا، كانت صفرته براقة تمامًا كبريق الذهب تحت أشعة الشمس، تحفة مزخرفة بنقوش باللون الأزرق تنسدل منه ستائر بيضاء ترفرف على جانبيه، وكان هناك مجلس لبعض الناس أمام الباب مباشرة أعلى السلم بحيث يطلون على الحديقة وأهلها كما لو كانت شرفة كبيرة.

وكان أسفل السلم بالطابق الأرضي بوابات ثلاث مفتوحات، وكانت ممتلئة بالحركة، وكان على كل بوابة منهن عمال أيضًا، وكانت حديقة القصر ممتلئة بالناس، يجلسون على شكل دوائر مكونة من سبعة أشخاص على موائد أرضية قد أعدت لهم، وكان الخدم أو العمال يأتون بالطعام ويضعونه أمام الناس، وكان العمال جميعهم يرتدون زيًّا موحدًا،

ملابس بيضاء وعلى رؤوسهم عمامات خضراء، وعلى خصورهم أحزمة بنفس لون العمامات، اقتربت من البوابة وكان من يتقدمني في الصف رجل مسن يبدو وكأنه من شحاذي المدينة، وكان من خلفي رجل من سكان المدينة العاديين، يمكن أن يكون صاحب حرفة ما بالمدينة، أو عاملًا، أو هكذا تصورت.

أشار إلينا عامل بوابة القصر بالدخول في ابتسامة واحترام، ثم دخلنا وجلست ووضع أمامنا الطعام وشرعنا جميعًا في الأكل حتى شبعنا، ولقد لاحظت شيئًا أدهشني.

لقد وجدت السوار نفسه في يد أغلب أهل القرية، إلا العمال الذين ينتمون للقصر فهم لا يرتدونه، وبررت ذلك بأنه لربما كانت تلك هي موضة عصرهم، ولكن يبدو أنه رخيص الثمن وإلا ما كان امتلكه كل أولئك الناس من العامة.

وبعد ما أنهينا طعامنا أخذ الناس يتفرقون في اتجاهات مختلفة، منهم من ذهب إلى الخارج، ومنهم من ذهب إلى الطابق الأرضي واختار إحدى البوابات ليدخلها، ومنهم من صعد السلم ليجلس في هذا المجلس الذي كان أمام باب القصر الكبير، ولم أعرف إلى أين أذهب

ولكنني قد أخذني الفضول فصعدت السلم ورأيت الباب الكبير، فلقد كان مفتوحًا أيضًا فنظرت داخل القصر، فوجدت مجلسًا يعج بالناس فدخلت ولم يستوقفني أحد؛ بل كان العامل على هذا الباب مرحبًا بكل من يريد الدخول، كان العمال في غاية الرقي يحترمون الحاضرين مهما كانت حالتهم، كانت هناك مساواة رهيبة في نظراتهم، كان الكل يعامل بنفس الطريقة، ترى الشحاذ يخدم بنفس الطريقة التي يخدم بها أرقى الحضور زينة وملابس، وكأنهم لا يرون من الحاضرين سوى كونهم بشرًا متساوين وفقط، بحثت عن مكانٍ لأجلس فيه وبصعوبة وجدته وجلست أنتظر أن يحدث أي شيء.

مضى بعض الوقت ثم قام أحد العمال بتقديم أحد الرجال قائلًا لقد حان وقت المتعة وترقيق القلوب، وإنه ليشرفنا أن يقودنا الآن صاحب الصوت العذب والمناجاة الودودة السيد أدهم الراوي منشد المدينة الأول، فليتفضل.

وفي وسط تكبير وتهليلٍ حارين جدًّا وقف السيد أدهم وبدأ الإنشاد، لقد كانت أناشيد في غاية الروعة حقًّا لشعر العشق الإلهي ثم تلاه بمدح المصطفى صلى الله عليه وسلم، وكان دائمًا ينظر إلى ناحية طرف المجلس

والذي كان يجلس به رجال يبدو عليهم أنهم من علية القوم، ملابسهم كانت أنيقة، وتعلو وجوههم الهيبة والوقار، وكان يتوسطهم شيخ يرتدي نفس ثياب العمال، الثوب الأبيض والعمامة الخضراء، ويحيط بخصره وشاح بنفس لون العمامة وكان ذا هيبة بينهم، وكنت مستمتعًا حقًّا، وكان يجلس إلى جواري رجل يبدو أنه يعرف المكان جيدًا، حيث أني لاحظت أنه ينادي العمال بأسمائهم، ولقد دعاني للشراب وطلب من أحد العمال أن يحضر لي كوبًا فقلت:

- شكرًا لك يا سيدي، ولكن ما هذا المشروب؟

- هذا منقوع الذبيب المحلى، وهناك قرفة بالعسل، فأيهما تريد؟

فقلت: لا أدري ولكن دعنا نجرب الذبيب، فطلبه لي وقال وهو يمد يده إليَّ بالشراب أنا صالح السرجاني صاحب دكان الأحذية، وأنت تبدو غريبًا عن المدينة أليس كذلك؟ أهلًا بك يا.... ما اسم السيد؟

فوجدت نفس السوار يشع بريقًا في يديه فتلعثمت ولا أدري لماذا قد قررت تغيير اسمي وقد حدث ذلك بينما كنت أنطق به بالفعل، وفي منتصفه بالتحديد قد تلاعبت بالحروف فخرجت مني في ارتباك.

اسمي عاااابر بدلًا من عابد.

ولقد كررت الاسم مرتين وكأني أؤكد على اسمي المستعار هذا، في محاولة مني لإثناء الرجل عن التفكير في سبب تلعثمي هذا.

فقال: إذن اسمك عابر وأنت هنا عابر سبيل وضحك.

فقلت: نعم يا سيدي، ثم سألته ما هذا المكان ومن يملكه فقال: هذا بيت العارف حاكم المدينة، وملتقى أهل المدينة جميعًا من ساداتها وعلمائها وشعرائها وجنودها وعامتها وعابري السبيل وأصحاب الحاجات، الكل هنا مرحبٌ به، لم أتمكن من الإنصات إلى إجابة الرجل فلقد قتلني الفضول ولم أستطع تجنب التأمل في ذلك السوار.

ثم سألت الرجل من يتكفل بكل ذلك؟ هل هو العارف حاكم مدينتكم؟

فقال في تأثر شديد: إن العارف هو آخر ما بقي لهذه البلدة من تاريخنا ومجد الآباء والأجداد، وهو الأمل في المستقبل، ثم صمت وراح يتأمل ثم قال بلهجة آسية متحسرة: لقد كان الزمان غير الزمان، وكنا أناسًا غير ما ترى، آه من تلك الأيام إنها لا تنفك تهاجم رأسي ولكن دون جدوى، ثم أفاق من تأملاته تلك بومضة من شعاع منبعث من هذا السوار الذي كان بيديه وكأنه وخزه، فأمسك معصمه وراح يتأمله بعمق

كالمسحور لبرهة من الزمن، فشعرت وكأن الرجل قد غاب عن العالم وقد سحب إلى داخل ذلك السوار ثم عاد إلى مجلسنا وكأنه شخص مختلف كليًّا ثم تابع حديثه في حالة من اللامبالاة وعدم الاكتراث: كان هذا كل شيء، ولكي تعرف أكثر فقط اجلس هنا قليلًا لتعرف كل شيء بالبيت، ثم صمت الرجل فجأة وأشار لي بالصمت حين رأى العارف قد هم واقفًا استعدادًا للحديث، فأدرت وجهي لأستمع إليه وبالفعل كما توقعت، كان هو الرجل ذو الهيبة في مجلس الوجهاء، الذي يرتدي نفس الزي الخاص بالعمال بالقصر، رجل نحيل له صوت دافئ، يرقب الناس كلماته في صمت وكأنه يسحرهم بكلماته.

قام ورحب بالحضور وشكر جلساءه من علية القوم على تشريفهم مجلسه، ثم جلس في هدوء وأشار إلى مقدم الجلسة بالبدء في فتح باب الأسئلة.

وبالفعل اصطف عدد من الحضور بجانب المجلس ثم انطلق أول السائلين يطرح سؤاله على العارف قائلًا: مرحبًا يا سيدي العارف، أنا أريد أن أعرف لماذا قد جعل الله الروح سرًّا من أسراره، وما الحكمة من ذلك؟

قام العارف ثم قال وهو يتحرك في المجلس ويوزع نظراته على كل الجالسين: دعنا نذكر القصة من بدايتها، عندما أراد مشركو مكة التأكد من كون سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبيًّا حقًّا أم لا، فلقد ذهبوا لأصحاب العلم (العارفين) في عصرهم، وكانوا في ذلك الوقت هم اليهود، فأشاروا عليهم أن يسألوه ثلاثة أسئلة إن أجابها فهو نبي، وإن لم يجب فهو كاذب (حاشاه) وكان هذا سبب نزول سورة الكهف، وكانت الأسئلة عن أهل الكهف وذي القرنين والروح.

فأجابهم النبي بالقرآن عن الأول والثاني، وقال عن الروح ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا.

هنا نجد شيئين مهمَّين، أولهما هو أنه في هذه الإجابة نبوءة عن محدودية المستقبل العلمي، بأنه مها بلغت البشرية من تطور علميٍّ فإن مدى ذلك العلم سيظل محدودًا في مجالات محددة، وأننا لن نتمكن من معرفة كل شيء.

والثاني تحديًا لإقامة الحجة أنه لن يتمكن أحد من الوصول لحقيقة كونه، تلك الروح والتحكم فيها ومن هنا نفهم أيضًا أن الله يريد أن

يحافظ على الخصوصية بينه وبين كل عبدٍ من عباده على حدة، فلا وسيط بينهم ولا ثالث لهذه العلاقة، ولما كانت الروح هي وسيلة العبد لتلقي رسائل ربه والتقرب والرقي، كان لا بد لها أن تكون سرًّا، فأنت بالروح فقط تصل إلى خالقك وتتصل به.

وهناك شيء آخر وهو ليس موجهًا فقط لدعاة التنوير الكاذب والمأجورين من حكومات الموصاركا لتضليل الشعوب في زماننا؛ بل إنه أيضًا إلى المستقبل الذي يبدو أن العلم سوف يكون سيده، فهو يجيب على كل متشكك من المتشككين، حين يقول أحدهم: أنا لا أرى الله فكيف أصدق بوجوده؟ فنقول وهذه روحك التي تحرك كل ساكنٍ فيك وتعطي الأوامر والنواهي والرغبات والأمنيات وتحب وتكره فأنت لا يمكنك أن تنكر وجودها، وفي نفس الوقت لا يمكنك قياسها أو اختبارها أو رؤيتها، فهل عدم رؤيتك لها تنفي وجودها؟ بالطبع لا وكذلك الله، ولهذا قد جعلها الله هكذا لتكون قرينة له، لعلهم يتفكرون، وإن تفكروا فلعلهم يخلصون لأنفسهم وألا يضللوا أنفسهم بكبر أو مرض.

أعجبتني إجابته وشعرت بأن فيه شيئًا مميزًا حقًّا، إن هذا الرجل يتحدث عن المستقبل وكأنه يراه، وقلت لنفسي لِمَ لا أسأله أنا أيضًا عن

الرضا والقضاء والقدر لعله يجيبني بما يريح لي عقلي، وبينما كنت أفكر في هذا حتى فوجئت به واقفًا أمامي مباشرة ينظر إليَّ ولا يتكلم، فارتبكت ثم ابتسم لي وقال: مرحبًا بك أيها العابر.

فقلت: مرحبًا بك يا سيدي ولكن كيف.....

فقاطع دهشتي لعلمه باسمي، قائلًا: هلا جلست إلى جانبي، تفضل، وأخذني لأجلس بقربه في وسط ذهول الحاضرين، وكنت أشعر بالرعب كيف عرف اسمي، هل أخبره صالح باسمي؟ ربما!! فأنا لم أكلم أحدًا غيره، ولكن هذا غير منطقي، فهو لم يتحرك من مكانه!

لعبت برأسي الأفكار ولكن لم يكن لدي بديل من اتباعه وبالفعل جلست بجواره وتوقفت الأسئلة الموجهة إليه بإشارة منه إلى منسق الجلسة وأخذ يتحدث إليَّ فقال: كيف كانت رحلتك يا بني؟

فقلت: أي رحلة تقصد يا سيدي؟

رحلتك يا عابد... ماذا لقد قال عابد، كيف عرف؟

ثم أخذ يتفحص جسدي وملابسي ثم قال: إنك تبدو بحالة جيدة؟

فقلت: نعم وما يدهشك في هذا؟

فقال: نعم نعم ولكن.... لا عليك لا عليك.

هنا قد ارتجفت، ماذا أصاب الرجل وماذا يريد مني وكيف يعرفني؟ ولكني حاولت جمع شتات فكري سريعًا لربما هو يظن أنني نظيري في عالمه، يبدو أنه يعرفه وهممت بتحضير جوابٍ يناسبه إلا أنه باغتني قائلًا في حدة وارتباك: أنا لا أظنك نظيرك يا بني، بل أكلمك أنت يا عابد وليس نظيرك، فإن من يرى الحق تفارقه الظنون يا بني.

ارتعدت فرائسي ومُلِئْتُ خوفًا منه، كيف عرف ما يدور في رأسي ولم أنطق به؟ من أنت وكيف عرفت.....؟

فقاطعني قائلًا: لا تشغل تفكيرك بهذا، فقط أريدك أن تعلم أنني كنت أنتظرك منذ سنين، وأن لدينا الكثير لنرويه، ولكنني أعلم أن رحلتك لم تكن هينة، فلتنم الليلة واسترح، وغدًا إن شاء الله لنا لقاء، ولا تنسَ أن تسدل غطاء رأسك فأنا لا أريد أن يرى الحاضرين وجهك.

فقلت: لمَ؟

قال: سأخبرك في الصباح، فلتثق بي يا سيد عابر.

ثم أشار إلى أحد العمال وأخبره بأن يصطحبني إلى الطابق العلوي.

قال العامل: تفضل يا سيدي، وحاولت أن أتحدث إليه فأشار لي أن أصمت وغدًا نكمل، ولكنه ظل يراقبني بنظرات غريبة مقلقة، وما إن ابتعدت عنه قليلًا فوجئت به يصرخ: يا عااابر

فرجعت إليه فقال: يا بني سامحني، ولكن هل أنت واثقٌ من أنك بحالة جيدة وأن جسدك خالٍ من الجروح؟

فقلت في نفسي ما هذا الرجل الغريب؟ وهممت لأنطق بالكلمات فإذا به يمتص غضبي ويقبل رأسي ويقول سامحني يا بني، أهلًا بك، فلتصحبه يا أيوب، وأسدل غطاء رأسي كأنه يخبئني من عيون الحاضرين.

فقام أيوب عامل القصر بقيادتي بالرغم من اندهاشه هو أيضًا الذي كانت تصرخ به عيونه، إلا أنه لم ينبس ببنت شفة، ولكن ملامح وجهه كانت تفضحه.

فتحركت مع العامل مذهولًا من هذا الرجل، ولكنه كان مكانًا مناسبًا لأقضي فيه ليلتي، وفي الغد أرحل في أمان لعلي أجد نظيري ونور غدًا.

مررنا بين الجالسين وشعرت بأن الناس يرمقونني بنظرة يملؤها التعجب والتساؤل، من أنت لتحظى بهذا الترحاب من العارف؟! وأثناء مروري وقعت عيني على دلال التي كانت جالسة في جلسة جانبية مع بعض النساء، فلوحت لي بيديها، لقد ميزتني رغم الغطاء فبادلتها التحية، وصعدت خلف العامل وكانت هناك رائحة تملأ أروقة القصر غاية في الجمال تبعث على الطمأنينة والاسترخاء وخصوصًا حين بدأت الأصوات في الانخفاض تدريجيًّا حتى عندما صعدنا إلى الطابق العلوي لم أعد أسمع إلا همسًا من المجلس، ففتح العامل باب إحدى الغرف وقال: ليلة هنيئة يا سيدي، سنوقظك لصلاة الفجر ثم رحل.

أغلقت باب الغرفة التي كانت تبدو كجناح لملك في العصور الوسطى، ولكن خوفي ومحاولتي لفهم ما حدث من هذا الرجل جعلاني مشتت التركيز، كيف عرف؟ وكيف تسلل إلى نفسي؟ لا أدري! ولماذا يخبئني هكذا؟ ثم حين لم أجد إجابات لتلك الأسئلة تجاهلتها وبدأت أتفقد الغرفة، فلقد سحرني هذا السقف الذي كان يبدو كلوحة لدافنشي عن الطبيعة الخضراء بجانب النهر، وتلك النجفة الكبيرة التي تتلألأ وهذا الأساس الملكي النزعة بلون الذهب.

وكنت أتساءل كيف لرجل زاهد مثله أن يملك مثل هذا القصر، حتى وقعت عيني على تلك اللوحة الزيتية الرهيبة لرجل وامرأة يجلسان على الشاطئ، فاقتربت منها لأتأملها فصعقت مما رأيت؛ فلقد كنت أنا ونور الرجل والمرأة المرسومين في تلك اللوحة، بل وإن هذا شاطئ يشبه شاطئ رين حين عانقتها أول مرة قبل زواجنا.

ما هذا؟! وماذا يحدث هنا؟! ومن هذا الرجل؟! لم أستطع أن أتحرك من أمام اللوحة التي كانت تبدو كمشهد حقيقي، مما جعلني أرى نور وأشعر بها، فدمعت عيناي حين شعرت بضمة نور إلى صدري وكأنها أمامي، لدرجة أنني أغمضت عيني واحتضنت نفسي بذراعي وكأنهما ذراعي نور الحبيبة اللتين قد التفتا حولي ليحتضناني، ورحت أنوح وأبكي بحرقة إلى أن وجدت يدًا تلمس كتفي، وصوتًا حنونًا يقول: هون عليك يا بني، ففتحت عيني لأجده أمامي، ولقد أفزعني الرجل كعادته منذ أن رأيته فقال: سامحني يا بني، فلقد كان صوت نحيبك الذي لم أتمكن من تجاهله هو ما دفعني للدخول عليك، فلقد خمنت أنك لن تستطيع النوم في ليلة كهذه، ولهذا قد قررت أن آتي إليك وأجيبك على ما يقلقك حتى تطمئن.

فقلت: كيف عرفت اسمي؟ ومن أنت؟ ومن هذه المرأة في اللوحة؟ وكيف رسمت أنا إلى جوارها؟! وماذا كنت تعني حين قلت إنك كنت تنتظرني منذ سنين؟ أرجوك أجبني.

قال: ألم تتعرف عليَّ يا بني؟! أنا عابد نظيرك في هذا العالم.

قلت: ماذا؟ لكنك لا تشبهني، فكيف تكون نظيري؟! ثم إن اسمك عارف كما يناديك الناس، وأنت شيخ وأنا ما زلت شابًّا في عالمك.

- يا بني أنا عابد، فلتدقق النظر إلى ملامحي جيدًا، فتفحصت وجهه برفق فإذا به حقًّا يشبهني ولكنه شيخ في عقده السادس على ما يبدو!

فقال: أنت هنا في العالم الأصلي للنسخة الأصلية يا بني، فلا يأخذ أحدكم صورتي أبدًا، ولهذا كنت لا أريد أن يراك الحاضرون فيلاحظون الشبه بيننا، أما عن اسم العارف هذا فهو لقب قد منح لي، وأما عن اللوحة فهذه صورتي أنا مع نور زوجتي رحمها الله منذ عشرين عامًا تقريبًا عندما كنا في مثل عمرك.

وسأروي لك كل شيء، ولكن لتهدأ ولتطمئن أرجوك، فلقد كنت أنوي أن أدعك ترتاح قليلًا، ولكن إذا كانت هذه رغبتك فلا مانع لدي،

ولكن دعنا نخرج من تلك الغرفة ونصعد إلى خلوتي بالأعلى لنتحدث هناك، فأنا لا أقوى على البقاء في هذه الغرفة كثيرًا، فهي تذكرني بمن رحلوا، فهيا بنا.

كانت هذه الشرفة هي أعلى مكان بالقصر، شرفة قبة القصر، وخلوة العارف الخاصة التي يمضي فيها معظم أوقاته، وكانت تطل على البلدة كاملة، وكان القمر بدرًا، وكانت النجوم ساطعة، وكأنها تهيأت جميعًا لمجلسنا، وكان الهواء صافيًا منعشًا يشعرك بأنك تولد من جديد مع كل شهيق يدخل صدرك، والرائحة المنبعثة من المبخرة كانت كالمخدر للأعصاب، فشعرت بالحنين إلى هذا المكان وكأني أعرفه جيدًا، أو إنني قد كنت هنا يومًا ما، جلسنا ثم قال: الآن يا بني سل ما شئت.

فقلت: أريد أن أفهم كل شيء، من أنت؟ وماذا تعرف عني؟ وأرجوك أخبرني عن تلك اللوحة التي رسمت لي ولنور؟ وكيف تعرف ما في رأسي دون أن أتحدث به؟ ووو....

فقاطعني قائلًا: على رسلك يا بني، دعني أزيح الستار عن كل ذلك الغموض، فكل شيء وله علته.

أنا عابد، وأنا أمثل الصورة الأصلية لكم، أي إنني أول من ولد في تلك السلسلة المكونة من سبعة نظراء، كما تظن أنت، ولكنها في الحقيقة صورة أصلية وستة نظراء فقط، وأنت آخر هذه السلسلة يا عابد على ما أعتقد، لأنك أصغرنا سنًا، ولأنني كنت أول من بدأ السفر والمرور، فلقد زرتكم جميعًا، ولكن قد كان أغلبكم في سن صغير، فلم أقترب منكم ساعتها، ولكم تمنيت بأن يستطيع أحدكم أن يأتي إليَّ، وكنت أدعو الله أن يحدث هذا وأنا حي، حيث إنني أصبحت غير قادر على المرور مؤخرًا، أما عن سبب مناداتي لك بالعابر فهذا السؤال لا أستطيع إجابتك عليه الآن، ولكني أعدك أنني سأجيبك عنه لاحقًا.

وأما عن علمي بما يدور في رأسك فأنتم كما تعلم جميعكم داخلي، وأشعر بما تشعرون به، فأنتم جميعكم أنا ولكن باختيارات مختلفة، ولكن عامة الناس ممن لم يتمكنوا من الخروج لا يدركون ذلك، فيعتقد الشخص البسيط أن إحساسه بما يحدث لكم أو الاختلاف في هوياتكم بأنه عبارة عن مجرد أفكار تراوده هو شخصيًّا، أو رغبات نابعة من داخله هو، فيقاومها أحيانًا، أو يستجيب لها أحيانًا أخرى، وهكذا وقد

لا يدرك المرء أن ما يشعر به من تناقض في شخصيته ما هو إلا شعوره بنظرائه، وهذا يفسر كثيرًا من التناقض والتنوع في ميول وفكر الشخص نفسه، أو هكذا أعتقد أنا، ولا تنسَ أن للنسخة الأصلية بعض الامتيازات يا بني.

أما عن اللوحة ونور فلقد قلت لك: هذه اللوحة قد رسمت لي أنا وزوجتي بشاطئ المدينة وليست لك، ولأنني كنت أشبهك تمامًا عندما كنت في مثل عمرك فلقد اعتقدت أنت أنها لك، أما عن الشيخ الذي تراه الآن أمامك فدعني أبشرك يا بني بأن هذا ما ستصبح عليه حين تصل إلى مثل عمري، أطال الله عمرك وضحك.

لقد كانت إجاباته منطقية، ولم تدع لي مجالًا للشك بالرغم من الهالة من الغموض التي أحاطت به في بادئ الأمر، وأظهرته أمامي وكأنه رجل ذو قدرات غريبة.

طال صمتي وأنا أفكر فيما قاله لي حين قال: (زوجتي يرحمها الله) إذن نور قد رحلت من هنا بالفعل، فقطع الصمت قائلًا: والآن يا بني هلا أخبرتني عن نور الحبيبة، كيف هي في عالمك؟ لا بد أنها في ثلاثينات العمر مثلك، وأنتما تعيشان الآن أسعد أيام حياتكما، وضحك ثم تابع:

ولكن صدقني يا بني لقد كانت أجمل سنيِّ عمرنا أنا ونور تتمثل في العشرة أعوام التي سبقت رحيلها، عندما هرمنا سويًّا، فلقد كانت تضحك عندما أغازلها أو أختطف قبلة منها، وكانت تقول: يا رجل ما زلت صبيًّا! وهذا الجلد المجعد! ألا تستحي؟ فكنت أقول لها: بل ما زلت أراكِ نور بنت الثلاثين عامًا، وما زادك الشيب والتجاعيد إلا جمالًا وبريقًا يا نصف الروح، آه يا بني لقد كانت أيامًا... أتدري يا بني لقد كان من أهم أسباب حزني لفقدي القدرة على الولوج مرة أخرى هو أنني لن أتمكن من رؤية نور في عوالم أخرى، فأنا أفتقدها كثيرًا؟ لقد بحثت طويلًا عن عالمٍ تكون فيه نور لم تتعرف على نظيري بعد، ولم يلتقيا لكي أستعيد نفس المشاعر التي خضناها سويًّا في أول لقاء لنا مرة أخرى، ولكي أرى هل سيكون شعورها بي نفس الشعور أم لا، كان هذا منذ زمن بعيد.

هنا قاطعته سائلًا: وما كانت نتيجة ذلك؟

فضحك ثم قال: لقد نال منك الفضول، الحقيقة يا بني لقد صدمت حين وجدت أنني لم أكن محل اهتمامها، بل وحتى أنا لم أجد فيها نور التي أعرفها، لم تكن هي نور عالمي، كانت صورة منها فقط.

نعم كانت مجرد صورة لها لا أكثر، لكنها كانت نور التي تناسب عابد عالمها، وهذا ليس أنا، وكانت هذه المرة الوحيدة التي سعيت إلى رؤيتها خارج عالمي في حياتها، وعندما عدت إلى عالمي قبلتها كثيرًا وقلت: لا توجد إلا نور واحدة في كل الدنيا، أقصد نوري أنا طبعًا.

هنا لاحظ الرجل خيبة الأمل تملأ وجهي، وقال: أشعر بحزن شديد يأتيني من خلالك، أنا أعرف هذا الحزن جيدًا، لقد شعرت به من قبل، وعلمت أنه من نظيري في مدينة رين، ولكني لم أعلم وقتها ما كان سبب هذا الحزن، لعدم قدرتي على الولوج حينها، أجل أنا أعرفك، فقام واحتضنني وقال: أيها المسكين، أنت عابد الريني، يا إلهي! كم أنا محظوظ لأنك أنت من جئتني يا بني، لكم تمنيت أن أصل إليك لأعلم من أين أتيت بكل هذا الحزن، هون عليك يا بني وشاركني همك.

فشعرت في حضنه وكأنه أبي وكأنني أحتضن نفسي، ولم أرغب في الحديث عن قصتي، فلقد أردت فقط البقاء في حضنه للحظات، فلقد كان صدره يشع نفس حرارة الألم التي عرفتها لسنين، نفس رائحة الحزن المريرة.

وبينما أنا كذلك قد شرد فكري فيما قاله العارف عن أنه وجد نور العوالم الأخرى مجرد صورة لنور عالمه، ولم تكن هي نور التي عرفها فزادني هذا ألمًا على ألمي، ليس فقط لأن نور قد فارقت الحياة في عالمه؛ بل لأنه قد صد عني باب الأمل في أن أجد نوري في عوالم أخرى، فلقد كان محظوظًا حين عاد إلى عالمه فوجدها وقبلها، ولكن ماذا يفعل من هو في مثل حالتي؟ حتى حين رحلت إلى عوالم أخرى لأراها فوجدتها قد رحلت، لم تبخلي عليَّ يا نور برؤياك، فأنا ما زلت أتمنى أن أراكِ أو حتى أن أرى صورتكِ تتحرك وتتنفس أمامي، ولو كانت مجرد صورة منك، أو كانت نور عابد آخر، فأنا لا أبالي، فقط أريد رؤياك، الشوق يتسعر في أحشائي وصوتك الرنان قد سلب عقلي، أتمنى ضمة واحدة لا أكثر منك وبعدها فلئن قامت قيامتي فلا بأس.

وبينما أنا أحدث نفسي بتلك الأحاديث سمعته يشاركني في حواري مع نفسي قائلًا وأنا والله يا بني أشعر وكأنك ولدي.

ولكنه لم ينطق بالكلمات بل بثت من قلبه إلى قلبي مباشرة، ولا أعرف كيف أو لماذا قد دارت أمام عينيَّ كل أحداث حياتي مرة أخرى وكأنني أحلم، ولكنني لم أكن أحلم؛ بل لقد استدعاها هو من روحي

ليشاهدها، فكانت تبث من روحي إلى روحه وكأننا نتشارك حلمًا واحدًا، حلمًا يحكي كل ما حدث لي، وغرقنا في تفاصيل قصتي إلى أن انتهت، وما إن انتهت حتى باغتني ألم شديد في قلبي، وكأن شخصًا قد غرس نصله داخل قلبي، لحظات وسقط الرجل مغشيًّا عليه.

لم يكن الألم من جسدي أنا؛ بل من جسده هو، لقد كان شعوره هو بالألم الذي قاسمته فيه كما قاسمني ألمي، لم يتحمل قلب الشيخ مرارة ما حدث لي في حياتي..

مرت لحظات حتى تمكنت من استعادة وعيي ولم أعرف ماذا أفعل لأنقذ الرجل، فصرخت بالعمال من الشرفة فهموا إليَّ مسرعين ونقلوا العارف إلى غرفته، ووثبوا يقفز بعضهم فوق بعض مرتبكين مذعورين لإحضار الطبيب، وجلست بجواره كاليتيم أدعو له وأقبل يديه، ولم أكن وحدي يتيم هذا المكان؛ بل تحول كل من بالقصر إلى إطفالٍ يتامى يرتعدون إلى أن أتى الطبيب.

كنت أحاول الهرب من أعينهم التي باتت يملؤها الغضب مني، ولكنهم يسيطرون على أنفسهم حتى يتبينوا أمرهم، فآويت إلى ركن

بالغرفة ليعصمني من نظراتهم، واحترق فكري بتلك الأسئلة: أهكذا تنتهي حكايتي؟! هل هذه هي النهاية إذن؟! لقد أوصد كلام هذا الرجل أبواب العوالم الأخرى وأطاح بذلك الأمل الكاذب في رؤيتها مرة أخرى، ولكن إن كان كلامه صحيحًا فماذا عن رسالة نور لي إذن بأن اخرج من نفسك لتراني؟ هل كانت كذبًا؟ أم إنني أخطأت الفهم؟ وبماذا أفادني هذا الخروج إذن يا نور؟!

كاد عقلي يشتعل من تلك الأفكار، ولكني تمنيت أن تكون لدى هذا الشيخ إجابات على كل تلك السموم التي تحرق عقلي وقلبي، وبقيت إلى جواره آملًا أن يستعيد وعيه وأن تكون لديه تلك الإجابات أو بعضًا منها، فلقد كانت ساعات قليلة العدد لكنها مرت ثقيلة كالجبال إلى أن استعاد الشيخ وعيه، وأخذت تدب الحياة في القصر مرة أخرى، فنظر حوله في خوف شديد، فلقد كان يبحث عني بلهفة شديدة، ولقد سمعت نداءه داخلي أين عابد؟ وكنت لا أكاد أن أرى من كثرة من يحيطون به من أتباعه وعماله ومريديه، ولكني تواصلت معه كما علمني بالبث.

فقلت: أنا هنا يا سيدي فاطمئن

فأجابني قائلًا: خشيت أن تكون قد رحلت إلى عالمك وتركتني.

- وكيف أرحل يا سيدي وأنت آخر الفرص المتاحة لدي.

فقال: بل أنت الذي تمثل أهم الفرص لدي. فتعجبت مما قاله!

فاستقام في جلسته وتكلم فحمد الله، ثم طمأن الناس من حوله على صحته، ثم أشار إليهم أن ينصرفوا ودعاني للقرب منه، وقال: اسمعني جيدًا يا بني، فلقد استمعت إلى حوارك مع نفسك عن نور وأنت يجب أن تعلم أنه لا يوجد في هذا الكون من يمكنه إحياء نور مرة أخرى لك، إنه أمر الله وقضاؤه وقدره، ومد يده ليمسح دمعاتي وقبلني وأخذ يمسح بيديه على ظهري، ثم تابع: وأريدك أن تعلم أنه من كرم الله عليك أنه حين رآك وقد استحوذ عليك الشيطان وأخذ يزج بك إلى طريق الكفر فلم يتركك يا بني، ولقد سمح لروح نور بأن ترسل لك تلك الرسالة التي من شأنها أن تنجيك من ذلك التيه والظلام، ولربما كانت تلك رحمة من الله بنور أيضًا، حيث أنه من المؤكد أنها كانت تعذب لعلمها بما قد ألم بك، ولأن هذا الطريق الذي كنت تسلكه لم يكن ليقودك إلا لفقدها الفقدان الأعظم، ولربما إن لك مصيرًا آخر تغفله وكانت نور تحاول دائمًا توجيهك إليه من خلال رسائلها لك أو لغيرك.

- أي مصير هذا يا شيخ؟

- الله وحده يعلم يا بني، ولكن دعنا نرى الرسائل من منظور آخر.، نعم يا بني فأنت لم تحظَ بالحياة التي تمنيت في الدنيا، فلا بأس من ذلك إن كنت سوف تتدارك ذلك في آخرتك حين تنتظرك نور في جنة عرضها السماوات والأرض بإذن الله، وهذا ما دفع نور بأن تلقي إليك بتلك الرسالة التي أراها واضحة وضوح الشمس.

فقلت له: بالله عليك أرني هذه الشمس التي قد حجبت عني.

فقال: هي إرادتك أن تسلك طريق العارفين بالله يا بني، حتى لا تحرم منها في الآخرة أيضًا، فهي تريدك معها.

- ولماذا لم تأتِني أنا إذن يا سيدي؟ لماذا قد بخلت عليَّ برؤيتها ولو حلمًا؟

فتمتم العارف قائلًا: لست وحدك يا بني ثم عاد إليَّ ببصره وقال: وما يدريك أنه لم يكن أنت من بخل عليها بهذا اللقاء ولم تكن هي؟ صدقني يا بني فأنا أعرف ذلك جيدًا، حين تتحول نفسك لتصبح ألد أعدائك.

فقلت: أنا! ولكن كيف؟

- بجحودك وظلمك لنفسك، إن روحك هي مرآتك التي تعكس لك حقائق الأمور، وتفتح لك أبواب المعارف والقرب، فكيف الحال إذا كانت هذ المرآة مكسرة ملوثة بالآثام، فكيف لها أن تعكس أي نور ليضيء لك حياتك؟ أنا لا أتحدث إليك من مكان بعيد يا عابد، بل لقد غرست قدماي في تلك العثرات قبلك، فأنا أبث إليك عصارة أيامي وآلامي، يا بني ما منعك الله إلا ليعطيك، وما ابتلاك إلا ليطهرك، ولست وحدك من حرم فلتكن صابرًا ولتري الله من نفسك خيرًا.

- ولكن ما العلة من أن يكون اختباري في شيء لا يمكنني تحمله يا شيخ؟ ولِمَ الموت؟ لم لم يكن في أي شيء آخر؟

فصمت الشيخ قليلًا ثم همس وكأنه كان يتحدث إلى نفسه: الآن قد رأيت جرحك ودماءك يا عاااابر.

فقلت له: ماذا؟

فقال: لا عليك فلنعد إلى حديثنا، يجب أن تعلم يا عابد أن الله يبتلي عباده ليردهم إليه رحمة منه بهم، ولا أقول لك ازهد الدنيا، ولكن تذكر أننا جميعًا زائلون، فإن كنت أنت باقيًا لكان لك الحق فيما تفعل، ولكننا جميعًا زائلون يا بني.

- وماذا أفعل في شوقي لها يا شيخ؟ وكيف سأصبر على كل تلك الحياة إلى أن ألقاها؟!

- فلتسل من يملك الجواب يا بني.

فقلت: من؟

- من قد أتى بك إلى هذه الدنيا، ومن قدر عليك هذا القدر، والذي يمكنه إراحة قلبك، فلتسأله يا بني، أخبره بما تريد وبما تشعر، أتدري حين فارقتني نوري ماذا فعلت؟ فقط طلبت لقاءه، واقتربت منه وتحدثت إليه وقلت: يا خالقي أنت قد قدرت هذا، وأنا لا أملك إلا الرضا، وها هو قلبي قد سلمته لك فصبره على ما قضيت.

- وهل قابلك حقًّا؟

- نعم.

- كيف؟

- صلاتك يا بني هي لقاؤك به، وسجودك يا بني هو قربك إليه، ودعاؤك يا بني هو حديثك معه، دعني أكن عونك في طريقٍ لم تسلكه من قبل، طريق العارفين يا بني، وصدقني فأنت لن تخسر شيئًا، فإن لم تجد راحتك فيه فلتعد إلى ما كنت عليه.

فقبلت أن أخطو أولى خطواتي في ذلك الطريق في صحبة العارف، وطلب مني أن أبقى معه حتى يأذن لي بالعودة وقد قبلت، ثم قال لي: والآن فلنأخذ قسطًا من الراحة وفي الغد إن شاء الله نكمل.

أيقظني أحد العمال في صباح اليوم التالي وقال لي إن الشيخ ينتظرك لتشاركه إفطاره، وأشار إلى ملابس قد وضعت بجانبي لأرتديها تشبه ما يرتدونه هم، وبالفعل لقد ارتديتها وهممت إلى الشيخ.

- السلام عليكم يا سيدي.

- وعليكم السلام يا بني، تفضل.

ثم قال: يجب أن تعلم يا بني أن أول عقبة لدينا في تأهيلك هي طريقتك في فهم الأمور، والتي يجب عليك أن تعيد النظر فيها، ولا يجب على طالب هذا الطريق أن يربطه بغاية معينة، بل يجب أن تطلب القرب للقرب لا للنيل، فإنك في هذا الطريق تتقرب إلى الله يا بني بأن تحارب نفسك التي داخلك والدنيا والشيطان، ولكي تنتصر على كل ذلك فلا بد للغاية أن تكون عظيمة، ولا يوجد أعظم من غاية التقرب إلى الله من دون طلب، فإن اقتربتَ فستدهش من العطاء، ولكن لا يجوز

التقرب بغاية أو مطمع، فهذا يصدك عن ذلك، خذ وقتك في التفكر فيما قلته، ولتجلس يا بني وأسرع في تناول الطعام فنحن لدينا طريق طويل لنقطعه لزيارة زوجة القاضي علام رحمه الله، فلتتجهز.

لم أعلق على ما قاله فلقد كنت مستسلمًا له مطمئنًا بصحبته، ولقد مررت بسنوات طويلة لم أذق فيها طعمًا للراحة، وكنت بحاجة لأن أنعم بها قليلًا، وبالفعل قد انطلقنا ومضى وقت طويلٌ بلا حديث، حتى توقف الشيخ وأخذ يتطلع إلى تل مرتفعٍ على مرمى البصر، وكان غاضبًا بشدة فسألته: هل أنت بخير يا سيدي؟

فقال: نعم يا بني لا عليك.

فقلت: هل هناك شيء ما بهذا التل؟

فقال: لا شيء لا شيء، هيا بنا.

فأخذت أتطلع إلى التل من كل جانب فلقد كان تلًّا عاديًّا ليس فيه شيء مميز، ولكني شعرت بأن هناك شيئًا ما يخص هذا التل؛ لأنه كان يكتظ بالحراسة من حوله، ولكننا تابعنا السير.

ولما طال الطريق وطال صمتنا بعدها، أردت أن أطرق باب الحديث فسألته: من تكون هذه السيدة يا شيخ؟ ومن هو القاضي علام؟ وما

سبب تلك الزيارة؟ ولكن يا شيخ اعلم أني ما سألتك إلا للاستئناس بحديثك فقط، وإن لم ترد أن تجيب فلا بأس.

فقال: بل سل يا بني ما شئت، فوالله ما أصطحبك إلا لتسأل فأجيبك، سبب الزيارة هو أنني أريدك أن تقابل السيدة سليمة؛ فإن لقاءها بك مهمٌّ جدًّا، فلقد كانت هي من بشرتني بقدومك، وهي من أطلت عليك العابر.

فقلت: ماذا؟

فقال: دعك من سبب الزيارة الآن ويكفيك ما علمت وتحلَّ بالصبر، أما عن سؤالك عنها وعن القاضي علام فهذا حديث طويل، ولكنه يلخص تاريخ بلادنا.

- هلا حدثتني به يا شيخ، لعلي أعرف أكثر عنها قبل ملاقاتها، ولكي نطوي هذا الطريق الطويل؟

فأجاب بالقبول وشرع يروي لي قائلًا: إن هذه المرأة يا بني كانت هي الشرارة الأولى والسبب الأعظم في تحريك شعبنا لمناهضة الاحتلال ضد حكومات الموصاركا الظالمة.

- وكيف كان ذلك يا شيخ؟

- كنت في منتصف العشرينات وكانت اهتماماتي تتلخص في إمتاع نفسي وطموحاتي للمستقبل وحسب، وكان لي صديقان، نعيم اليهودي وعمار تلميذ عالم الطبيعيات الشهير السمعاني، وقد كان لهذا العالم دور كبير في حياتنا، ولقد بدأ كل شيء عندما ألف السمعاني كتاب (الوقفة والمسار)، وقد انقلبت بلادنا رأسًا على عقب، فهو كما قلت: لك كان عالم طبيعيات، أي إنه يهتم بأمور الطبيعة والكون وهكذا، ولكنه تطرق إلى أشياء في كتابه هذا كادت أن تطيح برأسه، واتهم بالكفر وتحريض الأمة عليه، واتهامه بصنع تصنيفات للبشر غير معتادة ومبتدعة، ولقد انهالت عليه الاتهامات من كل جانب.

قاطعته قائلًا: يا شيخ لم لا تريني هذه الأحداث كما فعلنا سابقًا؟

فضحك وقال: يا بني إن هذا التواصل مرهق جدًّا لشيخٍ مثلي، ولقد رأيت ما قد حدث لي، فلهذا أنا لا أستخدمه معك إلا للضرورة القصوى، وصدقني يا بني، أنا أدخر طاقتي لك، واعلم أن هذا التواصل ليس متاحًا لكل الأشخاص، فلولا أنك كنت قادرًا عليه أيضًا ومؤهلًا له ما كنت لأقدر على ممارسته معك، ولتحذر يا عابد فإنه يجب عليك ألا تخبر أحدًا عن هذا.

- أمرك سيدي ولكن هلا أكملت حديثك، فلقد توقفنا عند ذكرك لكتاب (الوقفة والمسار) وتصنيفه للبشر.

- آه نعم التصنيف، كان هذا التصنيف هو الثغرة التي تلاعب بها شياطين العلماء الذين قد اشتروا الدنيا بعلمهم وبدينهم، وباعوا كل شيء، ولقد حاولوا الإطاحة بالرجل بغية إرضاء الموصاركيين واستجلابًا لعطاياهم وشوهوا الرجل بين العامة حيث قال الرجل في كتابة أنه يرى الناس من بعد سن الرشد فصيلين لا ثالث لهما، إنسان يعقل، وهذا هو الذي وجد الأسئلة الأولية وهم في البحث عن إجاباتها من خلال التجارب والبحث وبالتحقق من كل شيء، والنوع الآخر كانوا هم الدواب، وهم من شغلهم أي شيء في الدنيا مهما كانت أهميته عن الإجابة على تلك الأسئلة والانشغال بها، وقد أضاف أن الوارثين أيضًا إذا لم يعيدوا النظر في كل ما ورثوه فهم من الفئة الثانية، وإن كانوا على الصواب، وكانت هذه هي الجملة التي كاد أن يقتل بسببها في بادئ الأمر.

- ومن هم الوارثون يا شيخ؟

- لقد كان يقصد وارثي الاعتقاد يا بني، أيًّما كان هذا الاعتقاد، دينيًّا كان أو علميًّا.

- ولكن هذا شيء جدًّا مرعب، فماذا عن عامة الناس وغير المتعلمين والبسطاء من القوم؟

- نعم نعم يا ولدي لقد قوبل بكل هذا، ولكنه كان له منطقه في الرد على كل سؤالٍ على حدة، فلقد أقيمت له محاكمة في وسط المدينة وشهدتها كل البلدة.

ولقد كان كلامك هذا هو أحد الأسئلة الموجهة إليه، والتي قد اتهم من خلالها بأنه يفسد عقول العامة بحثهم على التفكير في مثل هذه الدروب، ولكن رده أيضًا كان ذا منطق حيث قال: أنا لا أقول لأي شخص أن يتنصل أو أن ينسلخ من معتقده، ولكن وجب على كل شخص حين الوصول إلى سن الرشد من وقفة مع النفس ليجيب على تلك الأسئلة، وبعد أن يجيب على تلك الأسئلة يجب على الشخص أن يعيد تصحيح مساره إذا ما كان لا يعرف وجهته، أو إذا وجد نفسه منحرفًا عن طريقه، أو أن يثبت نفسه على طريقه إذا ما كان على الطريق الصحيح، ولهذا قد سميت الكتاب (الوقفة والمسار) وقال أيضًا: لَمَ

تلومونني على ذلك؟! فإن ذلك هو ما فعله كل البشر تقريبًا، وإلا ما كان أحد من السابقين قد ترك عبادة أصنامه التي ورثها عن آبائه وحكم عقله فيما قال النبي.

إن أهم ما يميزنا كمخلوقات هي تلك القدرة العجيبة التي حبانا بها الله في التحليل وبناء المعرفة ونقلها وتراكمها، فنحن نتسيد هذا الكون فقط بقدرتنا على التحليل وقدرتنا على نقل المعلومات والخبرات والاستفادة من تراكمها.

ولست أنا من قال لكم فكروا، بل إنه الله من قد أمر بهذا، وإذا كنتم تتحدثون عن البسطاء والعامة فليبحث كل منهم على قدر استيعابه، وليحاول قدر استطاعته، وإلا فانظروا على أحد أولئك البسطاء في السوق إذا أراد شراء شيء أو إنشاء تجارة له، فإنه يتحول إلى خبير بهذا الشيء لحرصه على المال، فلقد تعلم كيف يحميه مهما كان بسيطًا؛ فهو يتعلم.

يا أيها الناس خلقتم لتكونوا خلفاء لله على تلك الأرض، وليكن كل منكم صورة من صورة الإبداع، لم تخلقوا عبسًا أو بلا فائدة، فلا تقبلوا

أن تتحولوا إلى دواب تساق من مولدها إلى موتها تبحث عن الطعام والشراب والمال والغرائز، ثم تموتون دون أن تعلموا حتى لماذا خلقتم، فإن لكل منا دور قد خلق ليقوم به ويبدع فيه، ولا تسكن روحه أبدًا إلا إذا عرف هذا الدور وسعى له، ومن يتجاهل ذلك فليبشر بحياة تعيسة، سيظل يبحث فيها عن سعادة لن يصل إليها مهما امتلك من الدنيا.

(فسلام على أرواحٍ قد عرفت دورها فارتاحت وأنست به وأسعدت نفسها وغيرها، أولئك هم الخلفاء حقًّا).

ولا أقصد بكلامي الحديث عن المعتقد الديني فقط؛ بل أتحدث عن كل معتقد موروث دون بحث منا، فالتاريخ أيضًا قد زوره الحكام على رغبة كل حاكم يأتي ليمحو أمجاد من سبقوه، وليثبت للعالم أنه كان المخلص الأعظم.

وهكذا وبهذه الطريقة قد ضاعت منا الحقائق، وغيبت عقول الناس وتحولوا إلى عامة يسوقهم من ملك المال والسلطة لتحريكهم كما يشاؤون، أفيقوا أيها الناس من غفلتكم، اقرؤوا وعلموا أبناءكم، واعلموا أن أهم ما يورثه المرء لأبنائه هو كمية الحقائق التي اختبرها بنفسه، وإلا فلا تلوموا إلا أنفسكم إذا ما سمعتم من أحفادكم أن

أجدادهم شهداء النضال لم يكونوا إلا جماعة من الخونة أرادوا إفساد المجتمع الراقي الذي أنهكت الحكومات الموصاركية نفسها لصنعه لشعبنا المسكين الطموح، فالمجد للموصاركا إذن ولا عزاء لمن ورثوا المال وضيعوا الحقائق.

وما إن انتهى من كلماته تلك حتى هاجت جموع الناس، ولا أنسى هذا اليوم أبدًا، لقد كنت حاضرًا بساحة المحاكمة وحاول تلامذته أن يحلوا وثاقه وأن يثوروا على جنود الموصاركا بالساحة، وانهالت السهام من أسوار الساحة عليهم فكانت مذبحة حتى صرخ فيهم ارجعوا، لا حاجة لي بكم وأنتم ضائعون، اذهبوا واسألوا أنفسكم تلك الأسئلة وأجيبوا عليها أولًا، فما حاجتي بجاهل يحمل سيفًا لا يدري ماذا يفعل به؟ فإن بلادنا تحتاج إلى أن تدركوا الحقائق أولًا، وأن تنشروا الوعي بين أبناء جلدتكم، فإنكم إن فعلتم ذلك فإن قهر عدوكم سيصبح أسهل عليكم من خلع نعالكم.

فضت المحاكمة وتفرق الناس وأعيد إلى سجنه ولكن ما حدث بعدها كان له العجب، فلقد كان القاضي علام رغم اختلافه مع السمعاني في طرحه، وبالرغم من خوفه على عامة الناس من مواجهة

هذه الأفكار، إلا أنه لم يشكك فيه وفي أن هذا الرجل كان يريد الخير للناس، ولقد قال إن السمعاني قد أخطأ في عرض وجهة نظره، ولكنه لما وجد أن كتاب الرجل قد انتشر بين الناس وأصبح الشباب يلهثون وراء تلك الأسئلة فقرر أن يصحح تلك المفاهيم للناس.

ويعيد إرساء صحيحها، ويفسر ماذا كان يقصد السمعاني منها، فيسوق البسطاء إلى استنباط النتائج ويحول بينهم وبين الولوج في فتن هذه الأفكار، وبدأ القاضي باستغلال تلك الصحوة لدى شباب بلدتنا وكون أول نواة للجيش ممن يظن فيهم رجاحة العقل والعلم، وكان العلم وصلاح الفكر هو المعيار الأول للاختيار في ذلك الجيش، وبدأت الفكرة تؤتي ثمارها، حتى علمت حكومات الموصاركا بما يحدث، فقبض على القاضي وفي نفس ساحة المحاكمة تعرض القاضي للتعذيب ليشي بمعلومات عن هذا الجيش السري، ولكنه رفض فوضع في السجن هو أيضًا، ولكن غيابه في سجن الموصاركا قد أحدث ارتباكًا كبيرًا بين المجندين الشبان، وبدأت النزاعات بينهم.

وهنا ظهرت السيدة سليمة زوجة القاضي، فلقد فوجئ أفراد الجيش بالسيدة سليمة زوجت القاضي علام قد جاءتهم ومعها ولدها الحارث

ابن السبع سنوات وابنتها الشابة نور التي كانت في العشرينات من عمرها، وكانت أجمل وأنقى فتيات البلدة، ولقد كانوا جميعًا يرتدون زي الحرب، وخطبت في الجنود وجمعت شملهم مرة أخرى، وكانت امرأة عالمة في أمور الفقه، فكانت خير مهيمن على هذا الجيش حتى انتقت من القادة ونصبت قائدًا لهم، وقامت بتأسيس (حلف المشورة) ليكون رقيبًا وناصحًا لهذا القائد، حتى مرت الأزمة واجتمع شتات هذا الجيش حديث العهد واستقر أمره.

ويمر بعض الوقت ثم وللمرة الثانية تتسرب المعلومات إلى الموصاركا ويهرعون إلى بيت القاضي ويجرون السيدة سليمة وابنها الحارث وابنتها نور إلى ساحة المحاكمة، وكان الحكم قد صدر مسبقًا بإعدام سليمة وابنها الحارث وابنتها نور إذا لم تشي بالجيش وقواده، وبدؤوا بالطفل فقيدوه وأشاروا للرامي برمي السهام ففزعت السيدة سليمة من بين أيدي الحراس وتلقت السهم عن ولدها فأسقطها أرضًا ثم أمر برمي السهم مرة أخرى.

ففزع عمار من جانبي وتلقى السهم الثاني عن الطفل، ثم أمر الجنود بالرمي ثالثة فإذا بقادة الجيش الوليد يظهرون لنجدة زوجة القاضي

وولده، ودارت المعركة، فكلما زاد عدد جنود الموصاركا ازداد ظهور أفراد الجيش، حتى تحولت سليمة وولدها إلى محور القتال، فكان إنقاذ سليمة وولدها بالنسبة لأفراد الجيش هو النصر الوحيد الذي هم على أتم الاستعداد للموت دونه، وصارت هي وولدها رمزًا للمعركة، فبقاؤهم أحياء هو النصر ولا سبيل غيره، وتحول الأمر إلى ثورة فصارت النساء تدفع أزواجهن إلى الساحة دفعًا، وصارت الأمهات تزج بأبنائهن، حتى صار رجال البلدة إما بالساحة وإما مطاردًا حتى من أقرب الناس إليه، حتى اجتمع كل رجال البلدة بالساحة وأصبح للشعب جيش حقًّا، وذبحوا جنود الموصاركا في الساحة، وأخرجوا سليمة وولدها، وهنا عرف الناس أنه قد أصبح لديهم درع يحتمون به، ومنذ تلك اللحظة أصبحت سليمة وولدها هما رمز انتصارنا على الموصاركا في بلدتنا.

هنا صمت عابد قليلًا وكنت مستغرقًا في كتابة ما يرويه لي، وحين نظرت إليه وجدته متفاجئًا من كوني أكتب فقال لي: ماذا تكتب يا آدم؟

- أكتب كل كلمة قلتها يا عابد.

فقال: لمَ؟

فقلت: لا أدري، ولكني وجدت نفسي أكتب ما تقول ولا أدري لماذا، ولكن يملؤني شعور بأني أحتاج إلى كتابة كل حرف مما تقول حتى أحتفظ بتلك الأحاسيس، ولأسجل ما دار بيننا، فإن الذي يحدث لي الآن شيء لا يصدق، وأخشى أن أنسى بعض التفاصيل، هل تمانع في هذا؟

فقال: لا مانع لدي يا صديقي.

فقلت: ولكنني أحمل سؤالين يكاد عقلي أن يحترق بهما رغم أنني آثرت الصمت حتى لا أقاطعك، ولكن ما دمت قد توقفت فأرجو أن تجيبني على هذين السؤالين اللذين يطاردانني دون توقف.

فقال: سل يا آدم.

- أولًا: أين كان العارف في كل هذه الأحداث، أم إنه كان شاهد عيان فقط؟

والسؤال الثاني: ما هي نوعية تلك الأسئلة التي من شأنها تغيير فكر من يجيب عنها وتجعله يعيد النظر في معتقداته وأفكاره ومحاسبة نفسه؟ وهل هي إلى هذا الحد أسئلة معقدة؟ وإن كانت معقدة جدًّا فكيف يجيب عنها الشخص البسيط إذن؟!

ضحك عابد كثيرًا ثم قال لي: قد تختلف الصور وتتشابه الألباب.

- ماذا تقصد يا عابد؟

- لقد كانت هذه نفس أسئلتي للعارف بنفس الصيغة وفي نفس التوقيت سبحان الله العظيم.

ساد الصمت قليلًا بيننا ثم تابع عابد قائلًا: ما دمت قد سألت فإليك رد العارف بنفسه على سؤالك. قالها مبتسمًا.

فأنا حين وجهت نفس تلك الأسئلة إليه نظر إليَّ وقال: أجيبك على سؤالٍ واحدٍ الآن، وأما الثاني فتجيبك عنه السيدة سليمة.

فقلت له: حسنًا يا سيدي كما تشاء.

فقال: أما وإنك سألت عن العبد الفقير عارف فإليك حاله، كنت ممن قبض عليهم ووضعوا في السجن مع القاضي، حيث كنت ممن تم اتهامهم بالانضمام إلى الجيش السري، وذلك لقربي من القاضي علام قبيل إلقاء القبض عليه، ولقد احتجزت معه في نفس اللية، فلقد ألقوا القبض على كل من يشكون به من قريبٍ أو بعيد، بل إنهم حتى قبضوا على نعيم اليهودي لصداقته لي، وكان يصرخ أنا نعيم اليهودي ليس لي شأن بالجيش، وليس لي علاقة بالقاضي، أنا نعيم اليهودي يا أيها

الحراس، ورغم أننا كنا مكبلين بالأصفاد إلا أننا لم نتمالك أنفسنا من الضحك مما فعله نعيم ساعتها، وكلما ضحكنا ثار نعيم أكثر وأخذ يسبنا ويقول إن صداقته لي ولعمار ستكون هي السبب في هلاكه كما كانت تقول له أمه، فيضحك الجميع رغم كل ما نحن فيه.

كانوا يحتجزوننا في ساحة الاحتفالات المكشوفة، وذلك لكبر عددنا وليتأكدوا من عدم اختلاطنا بالمساجين العاديين؛ حتى لا نخرب لهم عقولهم كما كانوا يقولون، ولقد كان سجني هذا هو ما غير لي حياتي بالكامل.

فقلت له: كيف هذا يا سيدي؟

فقال: تخيل أن يشاء الله لك أن تكون محبوسًا في نفس المكان الذي يضم أفضل العقول في عالمك، وتخيل تلك الفرصة العظيمة بأن تكون أحد الحضور في مناقشات السمعاني والقاضي علام، وأول لقاء بينهما بالسجن الذي قد حفر في تاريخ بلادنا بعدها، هل يمكنك تخيل ذلك؟ بل إن الأغرب من ذلك كان هو ردود أفعالهما وصدقهما ونزاهتهما في نزاعهما الذي أرهقني وأرهق أغلب الحضور لنفهم كلتا وجهتي النظر، اثنان يختصمان في التعبير عن نفس الحلم، فبالرغم من أن المقصد كان

واحدًا لدى الاثنين؛ إلا أنهما قد اختلفا في طريقة التعبير عنه، وكان اختلافًا جوهريًّا من وجهة نظرهما، فلا يمكن تجاوزه، دعني لا أطيل عليك في تحليلي لما حدث وأتركك مع الأحداث...

وصلنا إلى الساحة الداخلية وكان كل المحجوزين بالداخل ملتفين حول السمعاني يسألونه ويستمعون إلى آرائه، إلى أن وصلنا بصحبة القاضي وفوجئنا بالسمعاني يترك كل الناس ويأتي إلى القاضي ويصرخ فيه قائلًا: لمَ العجلة؟ وقل لي من قد نصبك عليهم رقيبًا؟ لم تسلب منهم حقهم في خوض التجربة واستنباط الحقائق؟ فهم لم يكونوا بعد مستعدين لذلك، كيف فعلت ذلك بهم أيها القاضي؟ ليس هذا ما حلمت به، لقد استغللتني واستنزفت فكري ومشروعي الذي ضحيت من أجله بكل شيء، هم كانوا أملي في إخراج جيل أفضل منا، جيل مؤهل للبناء، وأنت قد أضعت ذلك بتسرعك، لم تعطهم الفرصة ليتعلموا، لم يخطئوا ولم يغرقوا في تفاصيلهم، لم يخوضوا حتى تجاربهم الإيمانية بما اعتقدوه، لماذا فعلت هذا بهم؟

القاضي: هل انتهيت من صراخك؟ هل تظن أنني من تلامذتك أو أحد أتباعك؟ فوالله لولا خوفي من الله والمروءة في الخصومة لكان ردي

عليك مختلفًا، ولكننا أمرنا بحسن الظن في المسلمين، ولولا هذا لكنت أول من ظن أنك تحرض الناس على الكفر حقًّا.

السمعاني: إذا كنت ترى ذلك فلماذا جلست تشرح أفكاري لهم وتحللها إذن يا سيادة القاضي العلامة.

القاضي: لقد كنت مرضًا انتشر بين الناس، وكان لزامًا عليَّ أن أدرسه وأنقحه حتى لا يعصف بالناس، فتعاملت مع فكرك على هذا الأساس، وليس هذا فقط؛ بل وأحسنت الظن بك، وأقنعت نفسي بأنك كنت تريد الخير ولكنك لم تحسن طرح أفكارك على الناس، طرحتها مجردة غير مقيدة، مطلوقة اللجام لشباب في مقتبل العمر لم يصيبوا من الدنيا إلا نذرًا، ودفعتهم دفعًا في بحار من التيه والفتن دون معين أو علامات إرشادية تحميهم من التلاعب بقلوبهم النقية التي لم يصِبها بعد فساد الاعتياد على الباطل، حاولت مهاجمة أفكارك وكنت سأنهيها لولا ما كان فيها من صحة، ولقد كان قدر الصحة فيها قليلًا لعلمك، ولكنه تلاعب بألبابهم وخلط عليهم أمرهم، ولقد أسكرتهم بلغتك المنتشية وبأفكارك ومنطقك الذي طوعته ليخدم وجهة نظرك دون رحمة بعقول في مهدها، وتقول لي إنك كنت تبني جيلًا من العلماء؟! بل كنت تصنع أشباح

متشككين في كل شيء، باحثين عن كل شاذ وغريب من الفكر، تائهين في إجابات لأسئلة لولا الله ما كنا عرفنا لها جوابًا مهما بحثنا، أفكار لطالما أطاحت بأعمار فطاحلة الفكر والعلم من غير المؤمنين، فلقد غررت بهم ودفعتهم دفعًا حتى صاروا يريدون اختبار كل شيء وإلا نزعوه عن أعناقهم، وكم تكفي أعمارهم لخوض كل التجارب والنزاعات الفكرية التي أدمت كبار العقول سلفًا؟ ولماذا كل هذا العناء والمشقة؟ وكم ستفقد منهم في هذه الرحلة؟! وكم سيبقى منهم مشوه الفكر والاعتقاد؟ بل رأيت أن كل ما كانوا يحتاجون إليه هو القليل من الثقة بالنفس والتثبيت والدعم، والإشارة لهم على الطريق الصحيح، فبفطرتهم السليمة وقلوبهم النقية سيميزونه قطعًا.

ولا يحتاج المرء أبدًا إلى تجرع كل أنواع السموم ليعرف خطر السم ويتجهز له، يكفيه أن يعرف تجارب من سبقوه ويعتبر منها.

وظل هذا الحديث هكذا في وسط ذهول وفزع الناس لاكتشافهم أن من أضاءا لهم مصباح الصحوة هذه لم يكونا متفقين، وهناك نزاع حاد بينهما، ولقد احتار الناس في أمرهم واهتزت العقول، وانقسم الناس على أنفسهم بالساحة حتى لاحظا هما الاثنان ذلك، فصمتا ثم انزويا بعيدًا

وأخذ النقاش بينهما يحتد ويهدأ، ثم تعلو أصواتها ثم تنخفض، حتى غابت الشمس فجمعا الناس وخطبا فيهم قائلين:

القاضي: أيها الناس، إن الحق واحد، ولكن طرق الوصول إليه مختلفة، فلقد اتفقنا على الهدف ولكننا قد اختلفنا على الطريق، فسلك كل منا مسلكه، ولكن ولله الحمد لم ننافق ولم نخن الله فيكم، ولم نخن أنفسنا، ولله الفضل والمنة إذ هدانا إلى توحيد الصف ونبذ هوى النفس والانحياز لغير الحق، وعلى ذلك، وبعد الصلاة والسلام على أشرف الخلق الهادي محمد سيد الأولين والآخرين، فلقد اجتمعنا على ما صح لدينا سويًّا وتركنا ما قد اختلفنا فيه، فمن فضل الله علينا أن رزقنا سعة الاختلاف ما لم تمس الأصول بتحريف أو زيغ، وسوف يقوم أخي عالم الطبيعيات الفذ السمعاني بشرح وجهة نظره إليكم وسأعلق بعده على ذلك، فقط ليظهر للناس حقيقة أمرينا، ولكيلا يختلط عليكم أمركم وتتلاعب بكم الظنون، رزقنا الله وإياكم الإخلاص والقبول.

السمعاني: ما أصعب ما كنت أريده! كيف يمكن لك أن تجعل شخصًا ما يقف ليعيد التفكير في كل ما يفعل، ويطرح على نفسه أسئلة

ربما هي لم تشغله من قبل، وربما كان يظن أنه يمتلك الإجابات القاطعة لها بالفعل.

وكيف يمكنك أن تجعله يواجه نفسه على حقيقتها بتجرد يكاد أن يكون أسطوري النزعة؛ فليس كل البشر لديهم هذا القدر من الشجاعة، ومع كل ذلك فأنت تريده ألا يكره نفسه مهما رأى من عيوبها؛ بل تريده أن يقبل كل ما سيراه ويعترف بالنقص في نفسه، بل ويحتوي ذلك ويسعى لإكمال النقص الكامن فيه.

فمن هذا الذي يقبل على تجربة مثل هذه ويترك الحياة وراء ظهره بكل ما فيها؟!

كيف تخرج هذا الشخص من واقع هو غارق فيه بكل ما يملك من إمكانيات مادية ومعنوية، وتدخله إلى منتهى الصفاء والإدراك والتجرد، فأنت مهما حاولت إقناعه فلن يستجيب لك، إلا من رحم ربي، وذلك لأسباب كثيرة، وخصوصًا إذا ما كنت تتحدث إلى شخصٍ غير مؤمن أو غير مهتم أو مؤمن غافل عن الهدف الأساسي لوجوده، أو ضحية قد تم تضليله للسيطرة على مستقبله ونزع صفة البشرية منه، وتحويله إلى آلة في يد من يتحكمون فيه، باحتياجاته الأساسية للعيش دون معرفة الهدف

من العيش أساسًا، ولا أقول بأني أريده أن يزهد الدنيا، لا؛ بل فقط أن يقف ويصحح مساره وأن يعيش واعيًا بهدفه، فإنه إذا عرف الهدف عمل عليه وراقبه وعايشه واستحق فرصته لأن يكون بشريًّا فذًّا كما أريد له أن يكون.

فلقد كان هذا هو هدفي؛ أن أنزع ذلك الغطاء عن عقول البشر، بل بالأحرى كان يجب أن أقول عن أرواحهم، فإن هذا الإدراك الكامن في أرواحنا هو أهم ما يميزنا، وهناك فرق كبير بين مخ الإنسان وعقله وروحه وقلبه، فإن مخه هو أداة تستخدمها الروح للحكم والموازنة بين ما يريده القلب وميوله، وبين ما يعقله العقل بمنطقه ويصدر عليه حكمًا بأنه صحيح أم غير ذلك، فإذا اعتمدنا هذا النمط واتفقنا عليه تصبح الروح هي المسيطرة على كل تلك الأدوات، ولأنني أتحدث إلى المؤمن وغير المؤمن هنا، فلقد افترضت أنني أتحدث إلى إنسان في سن الرشد، أي إنه قد اكتملت لديه أدواته التي سيستخدمها في بحثه، وأنه غير متحيز إلى أي شيء سوى الحقيقة، أي الإنسان الذي يبحث عن حقيقة كل شيء، وعلى ذلك فكانت بدايتي معه، دعوة بأن نعد أطفالًا عباقرة كما خلقنا قبيل أن تلوثنا إضافات من حولنا.

فلنتخيل إنسانًا قد فتح عينيه على كل ما حوله للمرة الأولى، ولنبدأ تلك الرحلة سويًّا، ولهذا كانت مقدمة كتابي هي أننا سنبدأ رحلة البحث معًا، رجاء أغمض عينيك للحظات وتنفس بعمق ثم افتحهما.

أنت الآن خلقت، هيا لنكتشف كل شيء سويًّا من خلال أدواتك التي خلقت بها مؤهلة ومعدة لفعل ذلك.

فإن العقل قد خلق فيك ليعمل، وأنا أتحداك أن توقفه عن العمل بإرادتك، بل إن كل ما يمكنك فعله هو محاولة شغله فقط بأشياء أخرى، لكنه يظل يطاردك لتجيب عن احتياجاته، فأنت لم تخلق فارغًا كما يظن البعض؛ بل خلقت بغرائز، أو فلندعها دوافع قد وضعت بداخلك لتكون هي المحرك لك لتلك العملية، فعملية البحث تلك قد تكون أهم ما تفعله هنا.

وأنا أقصد هنا بالخلق بداية استخدام تلك الأدوات وتكوين الأسئلة البديهية.

فلنعد لإكمال طريقنا بأن ندع تلك الأدوات تقوم بعملها ولو لمرة في عمرنا يا صديقي، حتى وإن بدت لك تلك الأسئلة معلومة أو إنك غير معنيٍّ بها فقط ضع إجابتك وسنرى.

واعلم أننا جميعًا خلقنا عباقرة منذ الصغر كما قلت لك، الفرق بين من ظل عبقريًّا على حالته وبين من تبدل حاله إلى شخصٍ عادي هو أن العبقري قد احتفظ بروحه المتسائلة عن كل شيء ولم يتوهم أن كل شيء واضحًا أو معلومًا؛ بل ظل يتساءل ويتساءل.

إنما هي القدرة على التساؤل ومراقبة نفسك وحسابها التي تمثل أهم علامات النبوغ، ثم يليها عدم الاستسلام لما يفرضه الآخرون، حتى وإن كان صحيحًا إلا بعد التفكير فيه بعمق، ولتنظر إلى كل من قد اكتشفوا الحقائق العظمى في عالمنا ستكتشف أنهم أناس لم يستطيعوا أن يعتادوا الكون أو يفهموه للوهلة الأولى، وصرحوا بذلك وبحثوا عن إجابات لأسئلتهم، ولولا أنهم فعلوا ذلك ما كانت عرفت البشرية شيئًا من علمهم.

ولكنا ظللنا نضلل أنفسنا بوهم أن كل شيء واضح ومعلوم، إنها معلومية السذج والبلهاء، فلا تكن منهم، كن نفسك، بأن تكون لك تجاربك الخاصة ومعاركك الخاصة التي تنتصر فيها على جهلك، ولنبدأ سويًّا ونرى ماذا سيحدث.

وعلى هذا كنت أبدأ مع قارئ كتابي بالرحلة التي نكتشف فيها سويًّا كل شيء، لم أرد أن أهاجمه أو أصدمه أو أجعله ينفر مني، فأنا أريد تلك الروح أن تنضم إلى السرب، ولهذا كنت حريصًا على أسلوبي هذا، فلم أتعالَ عليه بأنني أملك الحقيقة فتعال لأبثها إليك، ومن يتحمل أن يواجه بقول مثل هذا مثلًا (أيها الأنسان أنت مقصر، أنت تائه وفي غفلة، أفق من غفلتك، فتعال انظر لماذا خلقك الله؟) لا، فلقد رأيت هذا تقصيرا من الداعية، ورأيت أنه يجب على الداعية البحث عن مدخل مناسب لعقل وقلب وروح من يدعوه، ولم أبتدع هذا، فلقد تعلمته من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، عندما كان يتظاهر بعدم المعرفة ويبدأ رحلة البحث مع الناس حتى تقودهم المعرفة والمنطق إلى الحقيقة فيؤمنوا، فلقد كان هو مؤسس هذا الفكر الذي يبنى على الشك المنهجي ليقود من أمامه لاستقراء الحقائق واستنباطها بنفسه، والذي تعلمه من الله سبحانه الذي لطالما رأيته في أرجاء الكتب السماوية.

ولا تنسوا، فأنا لست عالم دين، ولكنني أدركت أن بضاعتنا غالية ولهذا وجب علينا تزيينها وتهيئتها للمشتري، حتى يتقبلها ويهديه الله ويفيق من غفلته ويحاسب نفسه، حتى يعرف أن له إلهًا معرفة يقينية،

وهنا لا أقصد أن يقول لك المرء أنا أعرف أن الله موجود، لا؛ فإنه هناك فرق كبير بين من بحث وفكر وأدرك يقينًا هذا المعنى، ومن تلقاه هكذا فحفظه وسجله في خانة الإجابات السريعة لديه، ولكن في الحقيقة تجده معطلًا لكل معانيه في حياته.

هذا ما أردته أن يعرفه حقًّا، فإنه إن عرفه يقينًا، بحث عن أوامره وطلب وده، ولم يجد من نفسه جهدًا أو مشقة في التقرب منه؛ بل تسبقه نفسه إلى طريق الله.

وعلى هذا وإذا تبعنا هذه التجربة بأن يترك كل منا ما يعرفه جانبًا وأن نبدأ تلك الرحلة سويًّا فهذا يعني أنه بمجرد أن يفتح عينيه سيجد الكون مبهمًا وسيشعر بالقلق لعدم المعرفة، وستبدأ تلك الأدوات بممارسة عملها، فإن تلك الروح تريد أن تطمئن وهذا غريزي؛ لأنه لا أمان مع الجهل، ولذلك فإن تلك الروح ستعطي الأمر إلى العقل بأن يجد لها تفسيرًا فيقوم العقل بإنتاج الأسئلة عن كل شيء، ويقوم بتكوين الأسئلة الأولية مثل:

من أكون؟ أو ماذا أكون؟ وما هي حقيقة كينونتي تلك؟

وما هذا الجسد الذي أسكنه وأستخدمه؟

وكيف أتيت إلى هنا؟ وما هذا المكان؟

وإذا كانت الأشياء تحدث أمامي فقط إذا ما كان هناك محرك لتلك الأشياء، فمن كان المحرك في عملية إيجادي أو خلقي؟

وإذا كان هناك فاعل لكل فعل، فلماذا فعل هذا الفعل؟ ولمَ قد يخلق كيانًا منفصلًا ويجعل له قدرة خاصة به وكيانًا منفصلًا عنه؟!

فكما أرى أمامي أن الإنسان قد يصنع أشياء ولكنها مشروطة القدرة، فلماذا قد صنعت أنا منفصل الإرادة مستقلًّا بها إذن؟

ونظل هكذا نجيب على سؤالٍ تلو الآخر في رحلتنا، حتى نصل إلى أن يعرف من هو ولماذا خلق، ولينظر إلى حياته هل يعيشها بالطريقة التي تقربه من هذا الهدف أم لا، وإذا كان لا فليعِد حساباته وليضع لنفسه عهودًا وخططًا لتصحيح مساره ومراقبة نفسه، ولينزع عن أعناقه تلك القيود التي يكبل بعض الناس بها أنفسهم، أو يكبلهم بها من حولهم ليضيعوا عليهم فرصتهم في أن يكونوا ما قد خلقوا لأجله، أي أن يكونوا خلفاء الله في الكون.

كان هذا مقصدي وكنت أرى أيضًا أنه إذا ما جمع الناس الآن وهم ما زالوا لم يستيقظوا من تلك الغفلة فلا قيمة لهذا الجمع، فهو جمع يسهل

تضليله والتأثير عليه واللعب بعقله، لأنه لم يعرف من الأساس ما الدافع الذي يحركه، فعلق نفسه بشخصٍ أو جماعة أو أفكارٍ غير مكتملة، فإن مصير جمعٍ كهذا لا شيء سوى الهلاك، حتى وإن سطع نجمهم قليلًا، فإن هذا لا وزن له؛ لأن الثبات يأتي من المعرفة وتوحيد الهدف والغاية.

فكان هذا سبب ثورتي على أخي القاضي علام، ولكنه قد رأى طريقتي هذه مليئة بالمخاطرة بعقول البسطاء، حيث كانت وجهة نظره أن هذه الطريقة يمكن لها أن تقودهم إلى التشكك وعدم الإيمان، وأنني بهذا أضحي بهم حين أزج بهم إلى مثل تلك المعركة الفكرية، ولكننا لم نسئ الظن في أنفسنا، فأنا لم أتهمه ولم يتهمني، وكان مترفعًا متواضعًا، وبالرغم من اختلافنا فهو لم يظلم فكري ويرمِه بالفساد كاملًا، بل دعم ما فيه من خير وتجنب ما فيه من زلَّات، فكانت لديه مروءة كعهدي به، وبعد أن جلسنا سويًّا رأيت أنه كان أحرص على الناس مني فبارك الله له.

هنا صرخ الناس من إعجابهم به وبمنطقه حتى بدأ القاضي حديثه.

القاضي علام: أولًا لا ننكر فضل السمعاني وجهده، ولا نقفز على ما قدمه، ولكننا قد خلقنا الله هكذا يحتاج كل منا لآخر، أما عن الخلاف

فكان في نقاط مثل تلك التي تبدو غير واضحة في كلامه عندما قال: (وعلى هذا وإذا تبعنا هذا التجربة بأن يترك كل ما يعرفه جانبًا وأن نبدأ تلك الرحلة سويًّا) فقلنا هنا نقف، فقد يفهم من هذا التبرؤ مما هو عليه الآن، حتى وإن كان صوابًا، وهذا لا يجوز، فبدلناها، وأيضًا هناك توضيح لتلك الأفكار التي كان يجب أن يفصل فيها أكثر، فلقد قال: خلقنا مجهزين بأدوات البحث والعقل لنبحث عن الله ولهذا خلقنا وقال الله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)

وليس هناك خلاف كبير إلا أن يعبدوا، تلك أعم وأشمل، فمعناها هنا يفرض علينا أن نفهم معنى العبادة، ولكي نفهم معنى العبادة يجب أن ندرك المعبود أولًا وهو الله، ثم ندرك معنى العبادة والتي قد يظن البعض أنها مقتصرة على الصلاة والصيام والزكاة فقط، ولكن لا؛ فالعبادة تأتي من كلمة عبد ويقال "طرق معبدة" أي مجهزة ومبذول بها مجهود وحركة، ومنه أن أي فعل في الدنيا يجب أن يكون عبادة لله.

فأنت بهذا تفهم أن الله يحثك أن لا تضيع وقتك في الدنيا وتنشغل بها وتنسى أنك مفارق لها، وأنها دار عمل، ولهذا فنحن يمكننا أن تستنبط من ذلك المعنى أنك حين تقوم بأي عمل ينفعك أو ينفع الناس فهو

عبادة، وإن رفضك للظلم ومحاولتك لتحسين حال أمتك هي أيضًا عبادة، ومحاسبتك لنفسك هي أيضًا عبادة، وأن تبحث عن إيمانك إذا ما كان إيمانًا حقيقيًّا ينعكس عليك وعلى أفعالك أم لا هي أيضًا عبادة، ولا نقلل من شأن العبادات كالصلاة والصوم وهكذا، لا والله؛ ولكن العبادة أشمل من ذلك، فكيف تكون ظالمًا مصليًّا وتقول أنك تعبد الله؟! وكيف تكون خوانًا وتقول أنك تعبد الله؟! ولهذا ستجد بأن مفهوم العبادة هو أن تتحول كل لحظة لك في هذا الكون إلى عبادة، حتى حب زوجتك وأبنائك عندما يكون لله أولًا يصبح عبادة، نصرة المظلوم عبادة، العدل عبادة، وانظر أيضًا يا أخي حين سألت الملائكة الله عز وجل حين خلق الله الإنسان، لمَ خلقته؟ وقد ورد ذكر ذلك في الآيات.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ * وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ......)

ومن هنا تضح إجابة أهم الأسئلة لدى السمعاني والذي أثبتت الآيات أنه لم يكن السمعاني أول من سأل هذا السؤال (لماذا خلقنا الله؟) بل كانت الملائكة هي أول السائلين، وكان رد الله عز وجل عليهم هو أنه خلقنا وعلمنا ومنحنا هذه القدرة على التعلم حيث علم آدم الأسماء، وأيضًا علمه اللغة حتى يتمكن من نقل تلك المعرفة، وبهذا يصبح قادرًا على الوصول إلى ربه بتلك الأدوات، فيعبد الله، لا لأن الله أجبره على ذلك؛ بل لأنه بعقله وبقدرته على التعلم ونقل المعرفة الذي أوجدها فيه الله سيصل إلى الله ويعبده، لأنه أدرك أن الله يستحق العبادة، ولهذا فإنه مكرم على الملائكة بسجودهم إليه، حيث إن الإنسان قد أتيح له الاختيار، وقد عبد الله طواعية لا جبرًا، أما الملائكه فلم تكن لها الخيرة في ذلك، فأنت إذا ما أطعت الله وعرفته وعبدته تكن أعلى قدرًا من الملائكة، فأنت العبد الذي أوتي حرية الاختيار والإرادة، واستغل أدواته التي أعطاها الله له مثل ما شرح السمعاني، ووصل بها إلى ربه يقينًا،

وكانت له تجربته الإيمانية مع الله، وقد اختبر وعبر، وكان يناجي ويترقب ويفهم إشارات ربه إليه، فإن الله حي وقريب ويتواصل مع عباده، ولكن يعي ذلك فقط من كان منا طاهر الروح، باذلًا جهده في البحث عن الله في كل شيء، فبهذا قد يستحق حقًّا أن يكون العبد والخليفة.

واعلموا أن الكمال لا يدرك، ولكن المطلوب أن نظل على الطريق محاولين أن تقترب قدر ما استطعنا، وألا نستسلم لهوى أو ضعف، ولنحمد الله، فلولا كرم الله علينا بأن عرف نفسه إلينا ما كنا لنعرف أي شيء.

ولهذا فلقد أرسل إلينا الرسل الذين هم أقرب العباد إلى الكمال، وعلى رأسهم سيد ولد آدم المصطفى (محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم) والذي قد قدم المعرفة في رسالته المكتوبة من القرآن، وقدم تجربته العملية لتطبيقها في حياته التي عايش فيها الناس وعرفوا أدق تفاصيل أفعاله، وكانوا على وعي كافٍ ليسجلوها لمن خلفهم، وكانت حياته تلك المثال التجريبي الحي على ما يقول هذا الكتاب.

فلا تكن من المرددين بألسنتهم فقط لعبارات الإيمان؛ بل اجعلها حقيقية بينك وبين الله، فلقد كان هذا هو ما يرمي إليه السمعاني.

فمثلًا إذا أصابك شيء أزعجك هل أول ما كنت تفعله هو أن تسأل الله الذي تعبده أن يعينك ثم تبدأ في عمل ما في وسعك؟ أم ينصرف فكرك إلى نفسك أو أحد أقاربك لتسأله العون والمؤاذرة؟ وحين تقبل على أي شيء هل تبحث عن الله في هذا الشيء وتسأل نفسك هل هذا يقربني إلى الله أم لا؟ هنا تعرف حقًّا من أنت وما إيمانك، أما إيمان الألسنة فهو ليس أكثر من كلمات محفوظة كما قال: السمعاني في خانة الردود السريعة لديك، وفي نهاية الأمر أراد السمعاني أن يبرز لكم أنه هناك فرق بين حقيقة الإيمان والإيمان الظاهري، وأن أهم شيء هو الجوهر، كانت هذه بعض النقاط لضرب المثال والتوضيح، ولا نريد إقحام كل النقاط هنا والآن، ولكنني أبشركم فلقد اتفقنا على الآتي.

لما كان الكتاب قد لاقى ذلك القبول بين الناس مما جعله كما يقولون محفزًا مهمًّا لهم، وأصبح رمزًا لكفاح شبابنا وشاهدًا عليه، كان لا بد من شرح المقصود من الكتاب للناس، ولقد قررنا اختيار عشرة رجال منكم ليكونوا مرجعكم بعدنا، حتى إذا ما طال سجننا أو قتلنا فيكون لديكم عشرة من العارفين ينيرون لكم طرقكم، وسيقومون بإذن الله بتعليم من بعدهم وهكذا، وبناء عليه فمن يرى منكم في نفسه الرغبة والقدرة على

ذلك فليتقدم إلينا، ونسأل الله أن تسع أعمارنا ذلك قبل أن نلقى الله، وفقكم الله.

وما إن أنهى القاضي حديثه إلا وقد أصبحت قلوب كل المساجين متعلقة به حبًّا وإعجابًا، وكنت ممن تقدموا وقبلوني ضمن العشرة، وتتلمذت على أيديهم لمدة أربعة سنوات، وكنت بفضل الله أنبغ الدارسين العشرة، وقد خطب لي القاضي علام ابنته نور الغالية، وأوصى لي السمعاني بقصره ليكون بيت العارفين، على أن أسكن الطابق العلوي منه أنا ونور، رحمهم الله رحمة واسعة.

هنا صرخت فيه متعجبًا: ماذا قلت؟! هل كنت تقصد أن نور هي نفسها نور ابنة القاضي وسليمة يا عابد؟!

فضحك وقال: نعم، ألم أشر إلى ذلك من قبل؟!

فقلت ضاحكًا: لا لم تشر يا سيد عابد، ولكن لا بأس، فلقد اعتدت على أسلوبك في السرد الذي يعشق أن يفاجئني، فابتسم عابد، ولقد دارت في نفسي أحاسيس غريبة تجاهه، من هذا الرجل؟ وهل كل هذه الأحداث حقيقة أم لا؟ فإن هذا أكبر من استيعابي وأنا أعترف بأنني غير

قادر على الحكم عليه، وغير قادرٍ أيضًا على منع نفسي من أن أحبه، نعم لقد أحببتك يا عابد، فلقد ظهرت لي في أنسب أوقات حياتي، وتمامًا في اللحظة التي كنت أحتاج إليك فيها، فلقد كنت بدأت أشعر أن هذا العالم الذي أعيش فيه أصغر من أن يحتويني، بل وقد مللته أيضًا، لقد كنت بحاجة إليك يا صديقي، وأرجو أن تبقى للأبد يا عابد، وأن تقودني في رحلتي تلك للتعرف على نفسي كما فعلت أنت، ولكن كيف أطلب هذا منك؟ وهل يمكنك أم لا؟ فأنا لا أدري حقًّا!

وهنا قطع عابد حديثي مع نفسي صارخًا: يا آدم، أين أنت يا رجل؟

فقلت: لقد كان الشيخ سعيد محقًّا.

فقال: ماذا؟

قلت: لقد كان الشيخ سعيد دائمًا يقول إنه لا بد لك من معلم حتى تتعلم، ولقد كنت دائمًا أقول له ليس بالضرورة، فأنا يمكنني التعلم وحدي، ولكنني قد اكتشفت الآن أن هناك فرقًا كبيرا بين ما ستعرفه وحدك بدون معلم، وبين ما سيمنحك إياه ذلك المعلم.

فقال: بالطبع يا آدم، وخاصة إذا ما كان هذا المعلم يروي ظمأك من نهر تجاربه الحقيقية، وليس مجرد ناقل لمعلومات أو كلمات، فالكلمات

التي لم تروَ بدماء التجربة لا تصل إلى قلب المتلقي يا صديقي، ولكن ما الذي قد أشعل هذا في ذهنك؟

- ما كنت تسرده يا عابد، فلقد شعرت بالتيه، حيث كنت أميل في بادئ الأمر إلى كلام السمعاني بشدة، ولا أرى فيه من شيء يدعو إلى احتجاج القاضي عليه، ولكنني حين تكلم القاضي شعرت بمعنى مختلف، فليس كل ما يقبله عقلك صواب، فهناك دائمًا الأصوب، وعلى الرغم من ذكاء السمعاني المخيف إلا أنه يظل هناك شي آخر فوق الذكاء والتجربة والخبرة، إنها الهداية والتوفيق يا عابد، وهذه الأشياء من الله.

أتدري يا عابد لقد كنت أفكر في كل ما ترويه لي، ووجدت أنني حقًّا لم أسأل نفسي يومًا هذه الأسئلة ولم أنشغل بها، فهل أنا أنتمي إلى فئة الدواب؟

فضحك عابد واحتضنني وبالغ في ردة فعله الفرحة.

فقلت: ما بك؟

فقال: إن هذا السؤال هو البداية التي ستقودك إلى البحث عن نفسك.

فقلت: نعم، لربما أنت محقٌّ في هذا، ولكن وماذا عنك أنت أيضًا، ألم تفكر في هذا وقتها؟!

فقال ضاحكًا: لهذا كنت أضحك، فأنت تفعل ما كنت أفعله تمامًا، فضحكنا سويًّا ثم قلت: أين هذا الكتاب فوالله وددت أن أقرأه بشدة.

فأجاب عابد: انتظر وستعرف كل شيء.

فقلت له: إذن أكمل رجاء.

عابد: لقد كنت مثلك تمامًا يا آدم، كنت مهتمًّا بالتفاصيل، ولقد لاحظت مفارقة في حديث العارف حين قال: إنه كان موجودًا حين أحضر الجنود سليمة وأبناءها للميدان، وقال إنه كان مسجونًا، فكيف ذلك؟ فسألته فأجاب: نعم يا عابر، فلقد كانت حادثة السيدة سليمة بعد مرور أربعة أعوام ونصف العام، ولقد قتلوا الشيخين بعد خروجنا مباشرة، وكان هذا سبب تسريحهم للجميع ما عدا الشيخين، ليتمكنوا من قتلهما بالسجن من أن يدافع عنهما أحد.

- ثم ماذا حدث بعد ذلك يا سيدي؟!

- جاء دورنا يا بني نحن العشرة ولقد انضم إلينا علماء المدينة الأوفياء، وبالطبع لم تتركنا حكومات الموصاركا الظالمة، فلقد أرسلوا

جيشًا مهيبًا يزحف إلى مدينتنا ويقتلع كل شيء في طريقة إلينا، ولما علمت باقي المدن تشجع الناس وراحوا يفزعون إلى مدينتنا من كل مكان ليساندوا الجيش، وجاءتنا قبائل الغجر متضامنة وانهالات علينا التبرعات من الأغنياء، وفوجئت بالناس ينصبونني حاكمًا للبلدة، وأنا ما زلت ابن الثامنة والعشرين! ففزعت ورفضت ولكنهم قالوا أنت من ائتمنك الشيخان على علمهما، فأنت أولى من نأتمن على مصيرنا.

وتحت ضغطهم عليَّ وأملهم فيَّ لم أستطع التهرب من ذلك، وكنت مرعوبًا أرتجف من سماع أخبار الجيش، إلى أن رأيت الشيخين في رؤيا كان لها دور مهم في تثبيتي وتشجيعي على تحمل تلك المسؤولية.

- هلا رويتها لي يا سيدي.

- لقد جاء الشيخان مبشرين وناصحين بما يجب عليَّ أن أفعل، وبشراني بفرجٍ قريب سيأتي ولكن بعد الصبر والجلد، فقلت: يا شيخيَّ أنا لا أقوى على ذلك، فنحن لا طاقة لنا بمثل هذا الجيش، فكيف أصبر ويصبر الناس؟

فقال لي القاضي علام: يا بني اعلم أن الدنيا أحوال، وأول تلك الأحوال هو الابتلاء، ثم يكون الصبر واليقين من العباد، ثم يأتي الفرج

من رب العباد، ثم الشكر من العباد، ثم التمكين من رب العباد، فأبشروا وصابروا، إن الله عدل ومن عدله أنه يمتحن عباده، فاصبروا ولا تتعجلوا، وتذكروا قول الله تعالى.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾

فاستيقظت وقد تغير قلبي وتثبت، ولله الحمد وكان ما كان من ملحمة شعبنا.

ثم صمت العارف وغرق في نوبة من الحزن قد وجدت أثرها يبث في نفسي.

فقلت: ماذا حدث يا سيدي؟ ولم قد أصابك هذا الأسى؟

فقال: ما قد آل إليه حالنا بعد ذلك يا بني.

ثم تابع باكيًا: لقد كنا عظماء حقًّا يا بني.

لقد اكتشفنا أنفسنا في تلك الحرب يا ولدي، فلقد أخرجت تلك الحرب حقيقة أرواحنا ووحدتها، بل وحتى إنها قد وحدت أجسادنا وأعراضنا وأبناءنا ونساءنا، لم نكن ندرك من أي جسد قد بتر هذا الذراع

أو هذه الساق الملقاة في أرض المعركة، لم يبقَ بيننا شيء من التفاخر أو الخصوصية، ولقد تداعت كل صفات البشر الفردية فلم يعد أحد يذكر بصيغة الفرد، فلقد كان حديثنا كله بصيغة الجمع مثل (فعلنا، تقدمنا، قاتلنا، انتصرنا وضحينا وقتلنا وفارقنا وودعنا).

أتدري يا عابد حين تدرك أنك لم تكن تعرف حقيقة المحيطين بك ممن كانوا يمرون حولك، بسطاء لدرجة أنك لم تكن تميز ملامحهم حتى، وتراهم فجأة يتحولون إلى أبطالٍ يكتبون بدمائهم قصصهم تاركين لمن وراءهم إرثًا ثقيلًا من التضحيات في أعناق من بقي من إخوانهم، كنا كما لم نكن من ذي قبل، فلقد أجبرنا التاريخ على الوقوف احترامًا وهيبة لذكرنا.

وما يبكيني أنني لا أدري ماذا سأقول لرفاقي حين ألقاهم ويسألونني كيف ضاع أبناؤنا من بعدنا، كيف صاروا مسخًا يا أيها العارف؟ أتدري يا عابد لقد كانوا يذبحون من حولي حتى يحمونني في تلك المعارك، كنت لهم الأمل في الحرية والكرامة، وكان بقائي على قيد الحياة انتصارًا لهم، كانوا يفارقون مبتسمين، ولا أنسى نظراتهم وهم يفارقون، كانت عيونهم توصي بمن تركوا من ذرية وأعراض، هل

تصدق يا بني أن كل وصية وكل نظرة تطاردني؟! وهذا ما يقتلني يا بني، فهم معي كل يوم يلومونني على ما فعلت، ويصرخون فيَّ: أين ما ضحينا لأجله؟ أين؟ تركتنا يا أيها العارف، آه يا ويل العارف.

فقلت: لماذا تحمل نفسك كل هذا؟ هون عليك يا شيخ.

فقال: لأنه كان خطئي يا بني.

هنا لم أستطع أن أنطق ولا أدري ماذا يجب أن أقول؛ بل وحتى التفكير، فلقد كنت أخشى أن يدري بما أفكر فيه، فالتزمت الصمت وعدم التفكير حتى.

ثم تابع: بعد أن هدأ قليلًا قائلًا، وبعد أن انتصرنا يا بني ورحلت الموصاركا من بلادنا واستقر أمرنا، رأيت أن دوري قد انتهى وأنه يجب عليَّ تسليم الحكم لغيري، فلقد كنت مثقلًا بما رأيت، وأيضًا كان يملؤني شعور بأن دوري قد انتهى، ولذلك قمت بتسليم الحكم للناس ليختاروا من يحكمهم، ولقد اختار الناس رجلًا حكيمًا من بعدي ليحكمهم، كان يدعى السيد شمس الدين، ولقد كان رجلًا صالحًا وعلامة دينيًّا له سمعته الطيبة وشعبيته بين الجماهير، وأردت أنا العيش مع أسرتي في سلام ونسينا أمر الموصاركا.

ولكننا كنا مخطئين، فلقد تعلمت الموصاركا الدرس، فلقد حفظوه ونسيناه نحن يا بني، نعم نسينا أن حقيقة انتصارنا قد جاءت من الوعي ولم تكن من القتال، قد كان القتال وسيلة فقط، ولقد أدركوا أنهم لن يهزمونا في ساحات المعارك إلا إذا دمروا عقولنا أولًا، وبالفعل شنو حربًا على عقولنا مستغلين ضعاف النفوس من بيننا والخائنين والطامعين لتشتيتنا وتفكيك وحدتنا بنزاعات طائفية مرة، وطبقية مرة أخرى.

بل إنه أينما وجد احتمال للنزاع فزعوا إليه وأوقدوا فيه النيران لتستعر، وسعوا لإفساد العامة وتحويلهم عن حالتهم السابقة، فصنعوا اختلافات طبقية غير معلنة دون أن نشعر بذلك، حين قسموا الناس إلى فئات وطبقات، وبالرغم من أن السيد شمس الدين كان رجلًا صالحًا إلا أنه لم يكن الرجل المناسب لتلك المرحلة، فإن بناء الأمم يلزمه نوعية خاصة من الرجال يا بني، ولقد كان الرجل غير قادرٍ على اتخاذ القرارات اللازمة، وبذلك الوضع قد تمكن الخونة من بيعنا قطعة قطعة وتضليل الناس، وأصبحنا مختلفين في مأكلنا وملبسنا وفي أفكارنا، فتغيرت قلوب الناس ثم بدؤوا في زراعة الخونة في كل مراكز اتخاذ القرارت بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى.

من لا يضعفه المال قد يميل إلى النساء أو السلطة، وإن لم يجدِ هذا فسوف يخشى على أبنائه القتل، ومن لا يهاب الموت قد لا يتحمل التشهير به أو توريطه أو توريط أحد أفراد عائلته في أشياء مشينة، المهم أنهم يجيدون البحث عن مدخل لكل شخص، فلكل إنسان نقطة ضعف، وكانوا يستغلونها يا بني.

خصوصًا إذا كانوا قد تمكنوا من إفساد غالبية متخذي القرارات، بل وأفسدوا قطاعًا عريضًا من المجتمع، فأصبح الفرد في مواجهة الفساد عاريًا بلا قانون ولا ضمير مجتمعي يحميه، وإن فشلت كل حيلهم مع شخص ما فسيبقى القتل آخر حلولهم.

- ولكن كيف حدث ذلك دون أن تشعروا بهم وبدون أن يتصدى لهم أحد؟

- لقد حدث ذلك على مدار سنوات يا بني كنا فيها غافلين وكانوا هم يشتتون الناس، فلقد كانوا يحرضون شياطينهم من بني جلدتنا على سن القوانين التي سمحت لهم بالتضييق على الناس في أرزاقهم، وفرضوا الضرائب ليصبح ما يشغل الناس فقط هو أن يسعوا للقمة عيشهم لا أكثر، وأنت تعلم يا بني أنه حين يصعب العيش على الناس

فإنهم يخرجون أسوأ ما فيهم، بل ولكي يؤمِّنوا أنفسهم من أي صحوة قد تحدث للناس، فلقد قاموا بتسفيه العلم والعلماء، وحقروا من شأنهم ورفعوا أقدار التوافه، وقدموا صاحب أي بدعة أو انحراف بدعوى الحرية، فهوى الناس إلى القاع، فمن هذا الذي يترك الجوع والخوف يفترس عائلته ويجلس ليفكر في أسئلة السمعاني؟ ليعرف حقيقة نفسه بعد الآن؟ ولقد أخفوا عن الناس ميراثهم، تاريخ آبائهم، بل وزوروا التاريخ لصالحهم لتضيع الحقائق في غيمة من الجهل والفقر والمرض.

وبالرغم من كل ذلك إلا أنه قد يحدث طفرة في بعض الحالات لتنتج لنا عالمًا ما في أحد المجالات من بني جلدتنا، فيهرعون للاستحواذ عليه واستمالته، فإن رفض الانضمام إليهم يصبح مصيره القتل.

وتحولنا بمرور الوقت إلى دواب كما قال السمعاني وكما يمكنك أن ترى، وأصبحوا هم من يملكون العلم والتكنولوجيا وكل شيء، وبقينا عالقين هنا في تلك البدائية، وانتقلوا هم بالعلم إلى عوالم مختلفة من التحضر بالجانب الآخر من النهر.

بل واستغلوا تلك التكنولوجيا للسيطرة علينا فقط يا بني، فلقد ابتكروا هذا السوار اللعين، الذي يرتديه معظم السكان لما فيه من فوائد،

ولقد اضطر الناس إلى ارتدائه لأنك بدونه لا تتمكن من التعامل مع أحد، فلقد أصبح دليل الناس وأصبح حاملًا لهوياتهم، بل إنه أصبح وسيلة إمتاعهم أيضًا، فإن هذا السوار يرسل إلى عقولهم المعلومات التي تغزية، وهو الذي يتحكم في كل من يرتديه أيضًا، وهناك قلة من الناس قد رفضوا ارتداءه ولكنهم يعانون حتى في أبسط أمور حياتهم اليومية، ولا ندري كيفية إبطال مفعول سحره هذا على الناس، هل تتذكر التل الذي قد توقفت أمامه في أول طريقنا؟

- نعم يا سيدي أتذكره.

- لقد وضعوا على ذلك التل شيئًا ضخمًا ووضعوا عليه حراسة تحميه، ولذلك فأنا أعتقد أن هذا التل هو مركز التحكم في ذلك السوار.

فقلت: الآن فهمت أمر هذا السوار يا سيدي، فلقد كنت أتعجب منه منذ ولوجي إلى عالمكم ولكني الآن فهمت، سيدي أنا أعرف هذا جيدًا، إنه يشبه الهواتف في عالمنا.

فتعجب الشيخ وقال: ولكنني قد رأيت الهواتف التي تستخدم في نقل حديثكم عبر الخيوط، لقد رأيتها سابقًا في إحدى زياراتي للعوالم الأخرى.

- إذن أنت تعرف الهواتف فهذا جيد، وأنت تعرف الراديو والتلفاز أيضًا، ألم ترهم هناك؟

- يا بني كانت آخر زياراتي منذ سبعة عشر عامًا، ولم أقوَ بعدها على الخروج، ولكن نعم أنا أعرف الراديو والجرامفون التي كانت تستمع إليه نور في أحد العوالم، ورأيت أيضًا صندوقًا بداخله رجل يتحدث.

- هذا هو التلفاز يا شيخ، جيد أنك قد رأيت ذلك، فلقد تطورت هذه الاختراعات حتى أصبح لدينا القدرة على إتمام عملية التواصل المرئي بالكامل بالصوت والصورة لشخصين بعيدين عن بعضهما ولو كان أحدهما في أول الأرض والآخر في آخرها، وتمكنا من تسجيل الأحداث وإعادة بثها بعد حدوثها وتوثيقها لنتمكن من الاحتفاظ بها والعودة إليها متى أردنا، وكل ذلك يتم عبر موجات تمر في الهواء ويمكن التحكم بها تمامًا كما حدث بيني وبينك، ولكن هذا يتم خارج عقولنا، يتم في الحقيقة أمام الكل، فهذه الصورة والأحداث تعرض من خلال صفائح تسمى الشاشات، ويمكن لكل الناس رؤيتها.

صرخ الشيخ: يا الله! أحقًّا فعلتم؟

فضحكت ثم قلت: وأنا الآن أعتقد يا شيخ أن ذلك السوار ما هو إلا وسيلة مثل تلك الوسائل في عالمنا، قد ابتكرتها الموصاركا للتحكم بكم ومراقبتكم في نفس الوقت، ولكن يبدو أنهم حرصوا على أن تظل بدائية المظهر حتى لا تثير فضولكم، ولتكون أقرب للسحر في تصوركم.

فقال الشيخ: الآن أعتقد أنك قد علمت لماذا كنت أنتظرك، تخيل يا بني فلقد كنت أرى تلك الأشياء في سفري عبر العوالم وأحاول نقلها لأبنائي لكنني لم أستطع ذلك، ولقد كنت أنت بشارتي ورؤيا سليمة التي تتحقق، بل وكنت أنت الاستجابة لدعواتي إلى الله، فلقد دعوت الله مرارًا أن يزورني أحدكم ليساعدني في التخلص من هذه اللعنة التي لحقت بشعبنا.

- تمهل يا شيخ فأنا لست خبيرًا بهذه الأمور، فأنا مجرد مستخدم لها فقط.

- بل أنت بالنسبة إلينا عالم كبير، فهي أشياء لا ندري عنها شيئًا يا بني، ثم انتبه الشيخ من تلك النشوة التي أصابته وقال: اسمع يا بني، فلتخفِ ما دار بيننا سرًّا ولا تطلع عليه أحدًا حتى أخبرك، فنحن الآن

قد وصلنا على أعتاب دار السيدة سليمة ومن الآن إلى أن نخرج من هناك لا تتفوه بكلمه واحدة إلا إذا أذنت لك، اتفقنا؟

فقلت: أمرك يا سيدي.

فتهلل وجه الرجل ودبت في عروقه الدماء وكأنه عاد شابًّا أربعينيًّا من الفرحة.

وهنا تذكرت أنني ما زلت لا أدري ما هو السبب الحقيقي لإصرار العارف على لقائي بالسيدة سليمة، وبالرغم من أنني بالطبع أرغب الآن في رؤيتها، لأنها أم نور الغالية، وآخر ما بقي من عطرها على أرض هذا العالم، ولقد كان لما علمته من قصتها أثر كبير في نفسي أيضًا، وبينما أنا سارحٌ في ذلك كله إذا بالعارف يرمقني بابتسامة ويقول لا تكن عجولًا يا عابد، الآن ستعرف كل شيء.



الفصل السابع

(سليمة والدار)

وصلنا إلى دار سليمة ولكنها لم تكن دارًا صغيرة أو قصرًا كما تخيلت؛ بل كانت تبدو وكأنها حصن كبير ذو أسوارٍ عالية لا تظهر من ورائها أي شيء، وما إن اقتربنا من الطريق الممهد الذي يخص البوابات إلا وفتحت تلك الأبواب العملاقة على مصراعيها فدخلنا، ولم يكن هناك من أحد ينتظرنا عند البوابات لا حراس ولا أي شيء.

ولكن حين عبرنا تلك البوابات ظهرت أمامنا بلدة كامة داخلها كانت تخفيها تلك الأسوار، فكما توقعت لم تكن الدار بيتًا للسيدة؛ بل كانت تبدو كمدينة بأكملها داخل تلك البوابات، منعزلة كليًّا عما خارجها، ولا يوجد ما يوحي بوجودها من خارج تلك الأسوار العالية الحصينة، مررنا بالكاد بين الجموع وسط استقبالٍ مهيب للعارف، فلقد تزاحم الناس على دوابنا حتى ظهرت السيدة سليمة على مرمى بصرنا، فترجل العارف من على دابته مهرولًا إليها صارخًا فرحًا وهو يقول: الجريح يا أماه، الجريح يا أماه، وأخذ يقبل يدها...

فتحول بصر السيدة إليَّ مباشرة وأخذ العارف يقربها باتجاهي، وكانت ترمقني بنظرة فاحصة حتى تهلل وجهها وأشارت إليَّ أن أتقدم، فنزلت عن دابتي وتقدمت في هدوء كنت أعرف أنه غير لائق مني، ولكني كنت مرتبكًا جدًّا وأردت أن تطول تلك المسافة بيني وبينها لأتمكن من تفحصها جيدًا، امرأة متقدمة في العمر لكنها قوية، لم تنحنِ قامتها، تملؤها الهيبة والوقار، وكان لها نفس زرقة العيون التي كانت لنور، فلقد كانت تبدو كنور ولكن في عقدها الثامن أو التاسع، كانت تشبهها حقًّا، وحين دنوت منها مددت يدي لأصافحها فلم تصافحني، بل كانت يدها ممدوة إلى وجهي تتحسسه وتقول: إنه أنت يا بني -مخاطبة العارف- إنه الجريح حقًّا، ولكأني أنظر إلى العارف في عرسه إلى جوار نور.

ثم أخذت تتفحص جسدي وقالت: ولكن أين الدماء؟

فقال العارف: سأشرح لك لاحقًا يا أمي.

ثم قالت لي: لقد طال انتظارك يا عابر، وقبل أن أنطق بكلمة فوجئت بها تضع يدها على فمي لتسكتني ولقد تغيرت ملامح وجهها فجأة، ثم جذبت العارف من ثيابه وقالت فلتذهب به إلى خلوتك يا ولدي.

ففطن العارف لم قالته سريعًا وأشار إليَّ لأتبعه إلى إحدى الدور بالبلدة ممسكًا بيدي كما يمسك الوالد بيد ولده فقلت: يا سيدي أنا لا أفهم شيئًا!

فقال: صبرًا يا بني وستعرف كل شيء، ولكن دع الحديث الآن جانبًا وسأفسر لك لاحقًا كل شيء، ثق بي يا عابد.

فقلت: أمرك يا سيدي.

مكثنا بعض الوقت بالدار التي كانت بسيطة ومتواضعة إلى أبعد درجة ثم قلت له: أريد أن أفهم يا شيخ، فأنا غير قادر على تحمل كل ذلك الغموض.

فقال: حسنًا يا بني ماذا تريد أن تعرف؟

أريد أن أعرف لماذا قد جئت بي إلى هنا؟ ومن هذا الجريح الذي تتحدثون عنه؟ ولم تبحثان أنت والسيدة بحرص عن جرحٍ بجسدي؟ ولماذا تصرُّون على تسميتي بعابر؟ وكيف عرفت هي بكل ذلك؟ فمن الممكن أن يقبل عقلي بمعرفتك أنت ببعض الأمور لكونك نظيري كما قلت، ولكن كيف لهذه السيدة أن تعرف بتلك الأشياء؟

فقال: هي لا تعرف كل شيء، ولكنها تعرف ما يكفيها، ولقد كان هذا فضل الله عليها وكرامة لها؟

- ثم ما السر وراء لقائها الغريب ذلك والذي لم أفهم منه شيئا ولم أستوعب ردود أفعالها الغير مبررة تلك؟

- أما عن هذا فحتى أنا لا أدري ما سبب رد فعلها الغريب هذا في لقائكما الأول، ولكني أثق بها ثقة عمياء، ومن المؤكد أنها ستأتي وتزيح الستار عن ذلك التصرف الغريب من جانبها، أما عن علمها بك وبقدومك وانتظارها لك فلتعِرني انتباهك يا بني، فبالرغم من أنها لا تعرف شيئًا عن العوالم الأخرى والنظراء وكل تلك الأشياء، إلا أنها قد رأتك في رؤياها، ولقد كانت هي أول من بشرني بقدومك إلي وقد حدث ذلك حين كنت مقيمًا هنا بهذه الدار، ولقد كانت حالتي يرثى لها، فبالرغم من كوني ما زلت قويًّا حينها ولم أهرم إلى هذا الحد الذي تراه الآن، إلا أنني كنت زاهدًا في كل شيء، يائسًا، محبطًا، غير مبالٍ، رافضًا لواقع بلادنا، آسفًا عليه، وحيدًا بعد فراق نور الغالية ولا أرى أملًا في تلك الحياة مطلقًا، فلقد كنت رجلًا مهزومًا بكل ما تحمله الكلمة من

معنى، وكانت هي على العكس تمامًا، فلقد كانت واثقة مطمئنة يملؤها الأمل، وكانت تعمل مع أفراد قريتها على إكمال بناء الدار، بل وكانت تفكر وتتمنى وكأنها كانت تعيش في عالم آخر، وكانت رغم كبر سنها إلا أنها كانت تمتلك روح شابة في الثلاثين من عمرها رافضة أن تقبل بالخسارة، ولقد كانت لديها مقولة لم تفارق ذهني أبدًا، كانت تتعمد تكرارها عليَّ حين تراني مستسلمًا يائسًا كانت تقول:

(إن يأس طالب الحق ما هو إلا خيانة لنفسه، وعدم ثقة في وعد الله، فإن كنت خائنًا لنفسك فلا تتوقع أن يفي لك الآخرون).

وفي إحدى الليالي جاءتني زائرة كعادتها، محاولة أن تساعدني في التخلص من حالتي تلك، فنهرتها بعنف وقلت لها: من أين لكِ بهذا الأمل والتفاؤل؟ وعن أي أمنيات تتحدثين؟ فلقد ضاع كل شيء، ألا ترين ما نحن فيه؟

فقالت: بل إنني قد جئتك لأبشرك يا بني.

فقلت: وهل لا يزال لدينا ما يبشر به في بلادنا تلك؟!

فقالت: إني أبشرك بزائر سيغير حالتك.

فقلت: أي زائر هذا؟

فقالت: لقد رأيتك بالقصر وقد صرت شيخًا عجوزًا شاحبًا تتداعى على فراش الموت، وكان الشيخان إلى جانبك، فسمعنا صوت نور الحبيبة تناديك من حديقة القصر، فأقمناك لتنظر إليها من الشرفة فوجدناها تسحب فرسًا يحمل فارسًا مجروحًا قد صبغت دماؤه أرجل الخيل والأرض من تحته، فسألتها أنت: من هذا يا نور؟ فقالت لك: إنه محارب قد أصيب بجرح غائرٍ قد أدمى قلبه، فلتأخذه ولتسقِه من ماء وضوئك، ثم اغتسل أنت من دمه، ولتخبر قومك أن يتطهروا بدمائهم، فإن دماءهم كفارة غفلتهم، وحين يتم شفائكما وقبل أن يرحل أخبره أنه يمكنه بث النور إلى حبيسة الأفق، وأخبره أنها ستكون شريكتي فيه وأنني أقبل بهذا، وأخبره أنه هو العابر الذي سيعبر بإرث الشيخين إلى الأحفاد، ثم تركته ورحلت، فأرسلتَ العمال لإحضار الجريح فأحضروه لك، فدنوت منه ومسحت عن وجهه الدماء فوجدنا أنه أنت ولكن عندما كنت شابًّا، فعانقته وحملته بين ذراعيك ووضعته في حجري وكنت تصيح: الجريح يا أماه، الجريح يا أماه...

هنا تحدثت السيدة سليمة التي قد زلفت إلى الدار من دون أن نشعر بها وقالت: ومنذ ذلك الحين ونحن ننتظرك يا بني، فنظرت إلى العارف

وكنت في حالة من التخبط والتيه، تتلاحق الأفكار في رأسي وأحاول أن أجمع معاني هذا الحلم ورموزه، ولم أستطع الرد على كلامهما.

حدثت نفسي متجاهلًا وجودهما: مرة ثانية تسوقني رؤياكِ يا نور من تيه إلى تيه، لقد تعبت وخارت قواي، ما لي وكل هذا؟! وما الذي منعك أيها العارف من أن تخبرني بذلك منذ الوهلة الأولى في لقائنا؟

العارف: لم أكن متيقنًا يا بني من أنك هو، وحين تأكدت خشيت عليك أن يعلم أحد بأمرك فيشون بنا إلى الموصاركا فيقتلونك يا بني، فآثرت أن آتي بك إلى مكان آمن حيث يمكنني إخبارك فيه.

هنا قاطعتنا سليمة قائلة: من فضلكما فلتستمعا لما لدي لأرحل بعدها، ثم بعد ذلك يمكنكما إكمال حديثكما، فأنا لا بد أن أذهب، لقد رآكم اليوم أهل البلدة، ولقد سألوا عن هذا الشاب الذي جاء به العارف، فلا أدري لماذا قد هدرت الكلمات على لساني بأنه ولدك الذي كنت تخفيه بعيدًا عن أعين الموصاركا، فلقد فكرت في أن المجاهدين القدامى الذين سيرونه لن يفوتهم ذلك الشبه بينكما، ولذلك كانت فكرة أنه ولدك هي ما قد حضرتني في تلك اللحظة، فمن الآن أنت عابر ابن

العارف، ولسوف أذهب أنا الآن وسأرسل لكما طعامًا، فلتحظيا بقليل من الراحة حتى أعود إليكما، وانصرفت.

هنا شعرت بانفصالي وغربتي عن الشيخ، فلقد كنت حتى تلك اللحظة أشعر بتوحد روحي مع روحه، فلقد كان يمثل لي كل ما أحتاجه لأنقذ نفسي، معلمًا حقيقيًّا للحياة، بل لقد وضعته في مكانة الأب الذي طالما افتقدته، ولكنني لا أدري لماذا شعرت بهذا الانفصال حين فهمت أنه كان يريد الاستفادة مني، ولم يكن كل ما دار بيننا إلا مقدمة لجذبي وإقناعي بمساعدته، ولقد شعر هو أيضًا بأن ذلك الشعور قد تسلل إليَّ.

فقال: ألم أقل لك ألا تسئ بي الظن يا عابر؟

فصرخت فيه بحدة: اسمي عابد، وأنا لا أهتم بعابركم هذا، لقد نسيت كلامك يا شيخ، فلقد قلت: لا ينبغي التقرب بمطمع أو غاية، وأنا أراكم الآن أصحاب غاية، ولم يكن كل ما حدث شفقة على رجل مسكين مثلي يتخلى عن عمره ويفقد جزءًا منه مع كل زيارة لعالم جديد فقط ليلتقي بحبه المفارق، الكل يبحث عن مصالحه وحسب.

فقال الشيخ: فليرحمك الله، أهكذا تراني؟

فقلت: لا؛ بل هكذا قد فسرت رؤياكم أنتم.

- وكيف كان تفسيرك لها يا سيد عابد إذن؟

- لقد كانت فرحتكم بلقائي لأنكم كنتم تبحثون عن المنقذ المخلص الذي قد علقتم عليه كسلكم وغفلتكم وخوفكم، فبدلًا من أن تبذلوا ما في وسعكم لتستعيدوا حقوقكم قلتم فلننتظر المخلص الذي سيأتي ومعه العصا السحرية لينقذنا، ولكنك يا شيخ قد نسيت دروسك التي قد صدعت بها رأسي منذ أن رأيتك بتلك العبارات (لا تستسلم يا ولدي فأنت إن مت على الطريق محاولًا خير لك من أن تموت مستسلمًا أو منتكسًا) فلماذا لم تفعل هذا أنت أولًا؟ ولماذا كنتم تنتظرونني إذن؟! آه كم كنت مسكينًا ساذجًا حين صدقت أنه كان هناك من يمكنه أن يشعر بجرحي الدامي، لم يكن ذلك إلا قناعًا يا أيها الشيخ أليس كذلك؟!

فاقترب مني الشيخ وقال: اهدأ يا بني، أيها المسكين! ألهذا الحد تفتقد أن تشعر بأن هناك من يحنو عليك ويدرك ما تشعر به؟! فوالله يا بني إنني لأشعر بك، بل وحتى تلك الرؤية، فلقد كان فيها شفاؤك وشفائي، ولكن ما بداخلك من وحدة وألم قد أعميا عينيك عن قراءة تلك الرؤيا جيدًا، وتفسيرها كما يجب، ولم تلتفت إلى أهميتها.

- عن أي أهمية تتحدث يا أيها الشيخ؟ إن نورك تضللك كما فعلت نوري أنا أيضًا، ما هي إلا أوهام صدقناها، فلماذا لم تأتِ إليك مباشرة؟ ألم تكن زوجها وفضلت أن تأتي إلى أمها؟

فقال في حدة: لم تكن نوري أنا أيها الغبي؛ بل كانت نورك أنت التي تصر على إرشادك حتى في عوالم أخرى، أو لنقل إنه قدرك الذي يبحث عنك وأنت تهدره بغباء كطفل مدلل يرفض التعلم، إن مشكلتك الحقيقية مع نفسك يا عابد، ولكي تتأكد مما أقول فلقد قلت لك إنها قد قالت (وحين يتم شفائكما وقبل أن يرحل أخبره أنه يمكنه بث النور إلى حبيسة الأفق، وأخبره أنها ستكون شريكتي فيه، وإنني أقبل بهذا، وأخبره أنه هو العابر الذي سيعبر بإرث الشيخين إلى الأحفاد).

فهي تحدثك عن امراة أخرى يمكنك إنقاذها، وتأمرك بأن تتزوجها، وتخبرك بأنها راضية بأن تكون تلك المرأة شريكتها فيك، هل فهمت؟

فقلت: تقصد أنها لم تكن نورك أنت! نعم نعم.

فقال العارف في أسى: نعم لم تكن نور عالمي، ولقد كان هذا ما قتلني في تلك اللحظة حين سقطت مغشيًّا عليَّ بالقصر، لأنني كنت طوال تلك السنوات أظن أنها نوري أنا، وحين رأيت حياتك علمت أنها لم تكن

كذلك، ولكنني لم أرد أن أخبر سليمة بهذا لكي لا أفقدها سعادتها برؤية ابنتها وإمكانية التواصل معها، تلك السعادة التي قد منحتها الأمل والدافع النفسي للعيش والاستمرار، هل فهمت الآن أيها الغبي؟

كانت هذه هي آخر كلمات الشيخ ثم تركني وخرج، ولم أدرِ ما هذا الذي فعلت، بل ولم فعلت ذلك؟ وعلى ماذا ألومه؟ يا ويلتي! يا لك من طفل مدلل أحمق حقًّا يا عابد، فلقد أسأت الظن بالرجل، وأخذت تكيل له الاتهامات، وقد ضللتك نفسك المغرورة المتسلطة عن إدراك الحقائق بل وحتى عن محاولة فهم الرسائل الممنوحة لك لتساعدك على النجاة من ظلماتك التي أوقعت بها نفسك، فرُحت تلوم وتهاجم كل من حاول مساعدتك بدلُا من أن تقدر جميل صنعهم تجاهك، وصبرهم على جنونك وأنانيتك، حتى وإن كانت نوره هو، فلسوف يصبح محقًّا أيضًا، فأنت في نهاية الأمر مجرد فرد وهو يحاول إنقاذ أمة بأكملها، فلقد كانت غايته أنبل من غايتك وأشرف يا أيها المعتوه، نعم أنت محق يا عارف، لقد كانت هذه هي مشكلتي منذ البداية، منذ أن تركتني نور فجن جنوني، فلم تقبل نفسي المريضة بأن يترك عابد الثري المدلل الوسيم ورحت

أنتقم لنفسي كالمجنون من كل فتاة بريئة بالبلدة، ثم أعطاني الله فرصة أخرى بكرمه وأعاد إليَّ نفس الاختبار مرة أخرى، اختبار الحرمان والرضا، لعلي أجتازه تلك المرة بأن أرضى وأدرك أنني عبد ضعيف فتطاولت على خالقي واعترضت بل وسعيت كفرًا وطغيانًا، ولكي أعطي لنفسي الحق في ذلك تلبست رداء الضحية المسكين المظلوم.

لقد كنت تعبد نفسك طوال تلك الفترة دون أن تدري، فلتبكِ أكثر وأكثر أيها الضال المضل، لعل تلك العبرات تمسح عن روحك اتساخها وخبثها.

وهنا عاد العارف مسرعًا وهم يحتضني ويقول: فلتحمد الله على أنك قد استطعت وأخيرًا التحرر من قيود نفسك، وتذكر يا بني، حاسبها ولا تذبحها، لا تكره نفسك يا بني، ولكن قومها.

- سامحني يا شيخ، اغفر لي جنوني وخبثي، فأنا والله أحاول التخلص منه، فلا تحزن ولا تحقد على مريض مثلي.

- وهل يحقد الأب على ولده يا بني؟

ثم قال وهو يرتب لي ركنًا بالبيت لأرقد فيه: فلتنم قليلًا الآن ولا تفكر في شيء إلى أن أعود إليك ثم رحل.

وجلست أعيد تفسير تلك الرؤيا في رأسي، فلقد كنت أنا ذلك المحارب الجريح، ولقد كانت هي جرحي الذي أدمى قلبي، وكانت هي من حملني على السفر عبر العوالم لتحملني إلى المجيء إلى هنا لأقابل قدري في أن أساعد هؤلاء الناس على التخلص من سيطرة الموصاركا الظالمة عليهم، ولكن من هي حبيسة الأفق تلك وكيف ستشاركها فيَّ أنا؟ هل كانت تقصد أنني سأتزوج غيرها؟! مستحيل يا نور، مستحيل. وماذا عن إرث الأجداد هذا الذي سأعبر به إذن؟ وإلى أين؟! وظلت تلك التساؤلات تراودني حتى غفوت إلى أن أيقظني صوت العارف وهو يقول: هيا بنا يا بني فإن السيدة سليمة تنتظرنا بدارها.

فاعتدلت وجلست قليلًا حتى أفيق ثم قال العارف: هل ارتحت قليلًا؟

فقلت: بل كثيرًا يا سيدي، وإنني على استعداد تام لأي شيء تريده مني.

فقال: حسنًا يا بني، لقد حدثت السيدة سليمة بما دار بيني وبينك وأخبرتها عن السوار، وقد وضعنا خطة سنخبرك بها حين ننضم إليها في

دارها، فلتسرع لنذهب إلى هناك ولترتدِ تلك الملابس التي قد أحضرتها لك، فأنت يجب أن تظهر بمظهر لائق، فأنت اليوم أمير البلدة وابني وضحك.

وبالفعل تجهزنا وانطلقنا إليها، فلقد كانت السيدة سليمة بانتظارنا بعد أن أفرغت دارها من كل العالمين فيها حفاظًا على ما سنقول.

جلسنا بعد أن رحبت بنا وقالت: رغم أنني لم أفهم من حديث العارف إلا القليل، إلا أنني أثق بكما، فلهذا قد وضعنا خطة لتمكنك من الوصول إلى التل، سيشرحها لك العارف، ولكن أريدك أن تعلم يا بني أن ما تقوم به لنا ليس شيئًا بسيطًا، وإنها لمخاطرة كبيرة، ولهذا أردت أن أقول لك شيئًا مهمًّا، فنحن في حياتنا قد تتاح لنا الفرص أحيانًا لفعل أشياء عظيمة، ولكن ولكي تصبح عظيمة حقًّا ولكي لا نحرم أجرها عند الله، كان لا بد من أن نصلح نياتنا أولًا، واعلم يا بني فهذه النصيحة من امرأة عجوز قد رأت من دنياها الكثير (إن الناس مهما حفظوا جميل صنعك فهم يجحدون في نهاية الأمر، هذه طبيعتنا، ولهذا أردتك أن تستحضر النية الخالصة لله، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، فإن

كنت تفعل ذلك لنا نحن فقط يا بني فلا تفعل، أما إن أخلصت نيتك لله فلتبشر بنصر الله إن شاء الله).

فابتسمت لها شاكرًا لتنبيهي لذلك، ثم تحدث العارف: أما الآن يا عابر فلقد رأيت أنك بحاجة إلى أن تذهب إلى التل وترى كيفية عمل هذا السوار، ولكي يتحقق لك ذلك فلا بد أن يقودك جنود الموصاركا بأنفسهم إلى هناك، ويجب أن نجعلهم بحاجة لأن يفهموك كيف يعمل هذا السوار.

فقلت: ماذا؟ إن هذا يبدو مستحيلًا يا سيدي.

فقال: بل هو ممكن جدًّا إذا استطعنا تنفيذ خطتنا بالدقة المطلوبة، فلتصغِ إليَّ جيدًا، إن الموصاركا يعلمون أنني ألد أعدائهم، وهم يتمنون موتي اليوم قبل غدٍ، ومن المؤكد أنهم قد علموا بوجودك الآن، فلقد أذاعت السيدة سليمة هذا الخبر، فلقد بنينا خطتنا على أنك يجب أن تختلف معي، بل ويجب أن نتشاجر أنا وأنت، ويجب أن تترك الدار وسيصحبك نصف من بالدار اتباعًا لك وإيمانًا بك، ويجب أن يحدث هذا الشجار اليوم بالتحديد.

فقلت: ماذا؟ لا يا شيخ فأنا أحتاج إلى وقت لكي أفهم كثيرًا من الأشياء.

فقال: لا تخف يا بني، ولا تنسَ فنحن يمكننا التواصل سويًّا طوال الوقت، فأنا سأكون دائمًا معك، ولكن لا بد لهذا أن يحدث اليوم، لأنني قد اعتدت على أن أقيم مجلسًا كبيرًا إذا ما جئت إلى هنا، وعادة ما يجتمع الناس لهذا المجلس، فستكون تلك فرصة عظيمة لإعلام الجميع بأن ابن العارف ليس على وفاقٍ مع أبيه، وأنه يرفض وصايته عليه، بل وأنه قد انشق عن أبيه وقد خرج معه عدد كبير من الناس، ثم إنك سوف تذهب مباشرة إلى القصر وتحتله وتجعل منه مركزًا لحكمك، فإذا ما وصلت تلك المعلومات إلى السيد عاصف قائد جنود الموصاركا، فسوف يقرر استقطابك بدلًا من قتلك.

فقلت: ماذا؟ قتلي!

فقال: نعم يا بني بالطبع فلقد قلت لك إنهم يحلمون بالتخلص مني فما بالك بأن يظهر لهم عارف جديد؟! فبالطبع أول ما سيفكرون فيه هو التخلص منك، ولكن إذا ما استطعنا إقناعهم بأنك لا تتبع فكري وأنك على خلاف معي فسيذهب فكرهم إلى استقطابك مباشرة وفي هذه الحالة

سيرحبون بك ويقربونك وسيعرضون عليك بالطبع ارتداء سوار مما لديهم، في هذه الحالة سترفض وستطلب أن يكون سوارًا مختلفًا، فأنت ابن العارف وأمير هذه البلاد، وبالبطبع سيأخذونك إلى التل حيث يأخذون إلى هناك كل من يرغب بارتداء هذا السوار ليضعوه له، فستكون هذه فرصتك لمعرفة المكان جيدًا، وأيضًا يمكنك فهم طريقة عمله، ثم تعود بعدها مباشرة إلى الدار.

وأول شيء يجب عليك فعله عند الخروج من التل هو نزع ذلك السوار عن ساعدك، فلقد علمنا أن هذه الأشياء تحتاج يومين حتى تبدأ في عملها، فإن أنت نزعت ذلك السوار قبل أن يمر اليومان عليك فهو لن يؤثر فيك، ولكن احذر يا بني، فإن لم تفعل ذلك فإن ذلك السوار سيتحكم فيك كليًّا وسيكون من الصعب جدًّا نزعه بعد ذلك، المهم بعد أن تنزعه ونطمئن على حالتك تذهب إلى هناك مرة أخرى، وكما نعلم أنا وأنت أنه يمكنك الاختفاء إذا أردت ذلك.

فستختفي عن أنظارهم وتتسلل إلى داخل التل وتقوم بإبطال مفعولها عن البلدة، فإن كل ما نتمناه فقط هو يوم واحد من دون أساور

للبلدة، وسنقوم أنا والسيدة سليمة بترتيب احتفالٍ كبيرٍ لأهل البلدة ليقام في نفس ذلك اليوم، وسنقوم بإيقاظ أهل البلدة من غفلتهم بأن نشرح لهم ما حدث لهم، ونقنعهم بنزع تلك الأساور لنحررهم منها، فإذا فعلنا ذلك يا بني فأنا واثق إن شاء الله من أن الناس سيعودون إلى طبيعتهم، وسنتمكن من تحرير بلادنا وشعبنا تحريرًا حقيقيًّا.

فقلت: ولكن لم قد ينشق ابن عن أبيه يا سيدي؟ هذا غير معقول!

فقال: لقد كان هذا أصعب شيء في خطتنا، ولقد بحثنا كثيرًا عن دافعٍ قويٍّ يقنع الموصاركا فلم نجد أنا والسيدة سليمة خيرًا من إيرام وابنها الحارث، ليكونا شرارة الخلاف بيني وبينك.

فقلت: وكيف ذلك؟

فقال: إن كل أهل البلدة قد علموا أن الحارث ابن القاضي علام رحمه الله قد طلب من أمه السيدة سليمة أن تخطب له إيرام، وكان ذلك في مجلسهم منذ شهر، فقالت له فلننتظر قدوم العارف لنأخذ رأيه ولنعطي إيرام فرصتها في التفكير والرد إلى أن يحضر العارف.

فقلت: ومن تكون إيرام تلك يا سيدي؟

هي فتاة من بلاد ما وراء النهر، وهي أحد البلدان التي تسعي الموصاركا لتدميرها والسيطرة على عقول شعبها وتضليلهم للتحكم فيهم، ولقد كانت لتلك الفتاة قصة عظيمة ولكن الوقت لن يسعني لذكرها لك الآن، ولكن أعتقد أنه سيكون لديكما وقت كبير لترويها هي لك بنفسها في رحلتكما، المهم أن هذه الفتاه قد هاجرت إلى بلادنا ولقد استقبلتها السيدة سليمة استقبالًا عظيمًا، وهي ستكون زوجة ابنها الحارث إن شاء الله، ولكن دعني أكمل لك الآن ودعك من إيرام، فلقد وجدنا أن هذه ستكون أفضل وسيلة لإشعال الخلاف، ولقد بدأت السيدة سليمة بالفعل بالترتيب إلى ذلك الأمر بإعلام إيرام والحارث بخطتنا، ولسوف يفتعل الحارث شجارًا كبيرًا مع إيرام أمام الناس الآن هناك قبيل ذهابنا وسيزج في هذا الخلاف باسمك حتى يفهم الناس أنها قد تبدلت وأنها تميل إليك، ليعلم الناس أن بينك وبينها شيئًا ما، وحين نصل إلى هناك وفي أثناء جلستنا سيطلب الحارث يدها أمام الناس فستعترضان أنت وإيرام، فيشتعل الخلاف، ثم إنني ولكي أرضي الحارث سأجعله وليًّا للعهد من بعدي، ثم ستغضب أنت وترحل برفقة إيرام، وبهذا نكون قد أشعلنا فتيل الخلاف كما قلت لك، ولقد كان لا بد

لإيرام من أن تكون معك، فهي تعلم لغة جنود الموصاركا، حيث إنها قد ولدت وعاشت في بلاد ما وراء النهر كما قلت لك، والآن أخبرني ما رأيك في خطتنا تلك يا بني؟

- لقد بدأت أخشى على نفسي منك يا سيدي.

فضحك وقال: إن الحرب خدعة يا بني، ومصير بلادنا لا يحتمل الخطأ، ثم إن هذا كله كان من تدبير السيدة سليمة يا ولدي، فضحكنا وقالت السيدة سليمة: عابر فلتطع إيرام، فإنها تعلم الكثير وهي كابنتي تمامًا.

فقلت لها: أمرك يا سيدتي، ولكن هكذا سيكون أول لقاء بيني وبين الحارث ولدك، حرب حقيقة! ولذلك فأنا أرجو أن ترسلي له تحياتي واحترامي، فإن ما فعله هو وخطيبته إيرام لشيء صعب حقًّا، فلقد ضحيا بسمعتهما بين الناس من أجل بلادهم، وأرجو أن تنجح خطتنا من أجلكم جميعًا.

فقالت: لكل منا قدره يا بني.

وبالفعل قد انطلقنا إلى الدار فوجدت أهل البلدة جميعًا حاضرين، وكانت تلك الدار عبارة عن ساحة كبير يتوسطها مجلس العارف،

وكانت مكونة من طابقين بحيث يستطيع من يجلس في أي من الطابقين مشاهدة القاعة والمجلس، وبالطبع كان المجلس هو مكان مجلسنا بصحبة السيدة سليمة وبعض أعوانها.

وللمرة الأولى تقع عيني على تلك الفتاة إيرام، فلقد وجدتها تجلس إلى جانب السيدة سليمة مباشرة، لقد كانت جميلة جمالًا لا يمكن وصفه، سلمت عليها فقالت: مرحبًا بك يا سيد عابر، وجلسنا ولم تتح لنا الفرصة في حديث أكثر من هذا، حيث قامت السيدة سليمة بتقديمي إلى أهل البلدة على أنني عابر ابن العارف الذي قد أخفاه عن عيون الموصاركا حرصًا عليه وعلى سلامته، والذي قد عاد ليبث الأمل في نفوسكم كعلامة لقربنا من تلك اللحظة التي سنسترد فيها حقوقنا وبلادنا للمرة الثانية.

هنا نظرت إلى العارف في خوف فقال: فلتثق بي ولا تقلق.

فهتف الناس باسمي مرحبين، فاضطررت إلى الوقف احترامًا لهم، ثم جلست وهنا شرعت إيرام في إدارة الجلسة، وكانت تمتلك شخصية قوية صارمة فقالت: وكعادتنا في أول كل جلسة نقوم بعرض الراغبين

في الانضمام إلى قصر العارف وتعلم علم الشيخين والاختبار فيه ليصبح عارفًا بالقصر.

وكما هو معلوم لدى الجميع أنه على المتقدمين أن يحصلوا على موافقة العارف والسيدة سليمة، بالإضافة إلى حصوله على شهادة أربعة من مواطني البلدة بأنه رجل ذو سمعة طيبة، وأنه يصلح لأن يكون معلمًا لأبنائهم في المستقبل، ولدينا اليوم أربعة متقدمين.

ونحن نتشرف بانضمام السيد عابر ابن العارف، وصديقي الذي كنت أدرس معه علم الشيخين على يد العارف في آخر ثلاث سنوات بالمعزل، قبيل أن يقرر العارف السماح له بالظهور والانضمام إلى مجلس الحكماء، ليصبح لدينا صوتان حكيمان وصوت شاب يعبر عن فئة الشباب في مجلسنا.

قالت كلمتها في دلال يشير إلى اهتمامها الزائد بشخصي، ولقد ارتبكت من ذلك بالرغم من علمي بأنها تتبع خطتنا، ولكني قد ارتبكت حين همهمت بعض الحاضرات من الفتيات وابتسمن في خبث الفتيات المعهود عنهن، فلقد فهمن على الفور ما تحاول إيرام إرساله لهن من رسائل.

فأمسك العارف بيدي وبث لي أن اهدأ ولا تجزع.

وكانت إيرام تتابع حديثها: فلنبدأ على بركة الله بالمتقدم الأول: السيد (مازن) فليتقدم وليذكر لنا ما هي الأسباب التي دفعته إلى التقدم للالتحاق بالقصر، فليتفضل.

هنا برز شاب من بين الأربعة الجالسين أمامنا، وقام بتحية المجلس ثم وجه كلامه للعارف قائلًا: لقد جئت من أسرة فقيرة يا سيدي، أبي وأمي من البسطاء، وهما لم يحظيا بفرصة التعلم، ولكنهما وبالرغم من ذلك كانا من أوائل المدافعين عن بلادنا فيما مضى، ولقد كان أبي يذهب لمجلس القاضي علام ليستمع إلى شرحه، وكان يحفظه عن ظهر قلب، ولقد تمنى والدي ووالدتي أن أصبح عارفًا معلمًا للأجيال، ومدافعًا عن حقوق شعبنا، وأردت أن أعوضهما عن صبرهما وشقائهما بأن أحقق لهما حلمهما، حتى أكون قد وفيت ولو جزءًا بسيطًا من أفضالهما عليَّ.

فقال العارف: ولكن هذا حلم أبيك وأمك، ولكنه يجب أن يكون حلمك أنت يا بني، ولكي تحيا سعيدًا يجب أن تبحث عن حلمك أنت الذي يمثل السكينة لروحك يا بني، فلكل نفسٍ منا حلمها الذي لا يمكنها أن تسعد بدونه، فإن طرق تحقيق الأحلام صعبة وعرة طويلة يا

بني، فإن لم يكن الحلم نابعًا من روح صاحبه فلن تتحمل تلك المشاق وسيكون هذا إهدارًا للعمر الذي يمثل المنحة الربانية التي قد منحت لتلك الروح.

فقال: الشاب حلمي أن أجعلهم سعداء يا سيدي، وأنا أعرف أن سعادتهما في ذلك، هنا وقف الشيخ ونادى على والديه ليتقدما فتقدما إلى جانبه، فسألهما أمام الجميع هل تريدان أن يحيا ابنكما حياة سعيدة، أم تريدان أن تكونا أنتم سعداء بأن يحقق لكما حلكما؟

فقالت الأم: بل أن يحيا سعيدًا، فإن كان سعيدًا سعدنا، وقال الأب كما قالت الأم.

هنا نظر الشيخ للشاب وقال: أرأيت؟ فهم لن يكونوا سعداء إذا لم تكن أنت سعيدًا، ولكي تحيا سعيدًا يجب أولًا أن تحدد ماذا تريد ثم تسعى إليه، وليست السعادة في أن تحقق الحلم؛ بل إن السعادة الحقيقة ستراها في كل خطة تخطوها في طريقك لتحقيق ذلك الحلم، والتي ستجعلك تتقبل ما سوف تلاقيه من عناء في تحقيق ذلك الحلم بصدر رحب، وستصبح صورة من صور الإبداع الكوني، فلئن سعى كل منا بجد لمعرفة حلمه الذي يخلق بداخلنا منذ البداية وبذل كل طاقته

لتحقيقه، فلن يبقى لدينا أي وقت لنهدره في أي بذاءة من بذاءات البشر مثل الحقد أو الحسد أو الظلم، إن حياةً بدون حلم أو هدف الموت أولى بها يا بني، هل تفهمني؟

هنا قال: الشاب نعم أفهمك يا سيدي، وولكنني قد دعوت الله أن يحبب إليَّ حلم أبي وأمي حتى صار حلمي، فتوحدت أحلامنا، فما المشكلة في ذلك؟!

فضحك الشيخ وضحك الناس.

ثم قال الشيخ: للوالدين بارك الله لكما في ولدكما، أين شهودك يا بني؟ فقام كثير من رجال البلدة ليشهدوا له، فضحك الشيخ وقال مقبولٌ إن شاء الله، فصرخ الناس فرحًا وأخذ والداه يقبلانه، ثم هدأ الناس لتتحدث إيرام لتقدم لنا المتقدم الثاني.

وما إن استهلت إيرام حديثها حتى اقتحم المجلس شاب قويٌّ وسيم ذو هيبة، أدركت بعدها أنه الحارث حين اقترب من مجلسنا وألقى التحية على العارف وأمه وإيرام ثم حياني بتحية جافة حادة جعلتني أشعر بالقلق، رغم علمي المسبق بخطتنا، وبأن ما ذلك إلا محض ادعاء منه لإتمام خطتنا.

المهم أنه قد جلس إلى جواري، ولقد تابعت إيرام حديثها وقد أكمل باقي المتقدمين عرضهم لطلباتهم إلى العارف، فقبل من قبل ورفض من رفض حتى شارفت إيرام على الانتهاء من حديثها موجهة الشكر إلى المجلس، وكررت ترحابها بي، فهنا تكلم الحارث قائلًا: ما رأيك يا سيد عابر بأن تلقي علينا كلمة لننهل من علمك، ولنتعرف عليك أكثر، فإن الناس مشتاقون لمعرفة المزيد عن أميرهم.

هنا نظرت إلى العارف وكنت أرتعد فقال: لا عليك فأنا معك.

فهممت واقفًا ثم قلت: ولكني لم أجهز لحديثٍ مثل هذا ولم أرتب لذلك، فلتكن في مرة قادمة، أكون فيها مستعدًا لذلك.

فقال الحارث: لا بأس فلتجيبنا إذن على ذلك السؤال الذي قد اختلفنا فيه كثيرًا من بعد الشيخين، في رأيك أنت يا سيد عابر أي الشيخين كان نافذ البصيرة أكثر، وأيهما كان أقرب للحق وصولًا من الآخر؟

سكن الجميع ليستمعوا إليَّ ولكنني لا أدري ماذا أقول، هنا بث العارف إليَّ كلماته فرحت أستمع إلى ما يبثه وأقوله للناس فقال: إن طرح هذا السؤال من باب الحكم على الشيخين يبدو فيه كثير من تعدي حدود

الأدب مع من جعلهم الله سببًا لإنقاذ أمتنا، وأضاءا لها نور الهداية في أحلك لحظات ليلها ظلمة، أما إن كان من باب الدرس والإفادة لتفادي أخطاء تجربتهم في مستقبل أمتنا، فإن هذا قد يقبل ولكن في حدود تقدير من سبقونا، والذين قد أدوا مهمتهم على أكمل وجه في نقل العلم لمن خلفهم، فلم يتركونا فارغين بلا دليل أو إرشاد، فعلى هذا فقط يمكنني أن أتحدث.

فهلل الناس إعجابًا بما قلت، بل بما قال العارف بثًّا، ثم أشار لهم العارف بالهدوء حتى أكمل حديثي، ولكنني لم أرد إكمال الحديث وبثثت إليه أن يكتفي بهذا، فبث لي بأن لا يا بني، فأنت يجب أن تتحصل على شعبية كبيرة بين الناس في هذه الليلة، ويجب أن تكون حديثهم في الليالي المقبلة، فيجب أن تترك أثرًا كبيرًا في نفوسهم، فقط اتبعني وأكمل حديثك، ثم تابع بثَّه لي قائلًا: ولكني وللأمانة أرى أنه كان لكل فكر منهما مميزاته وعيوبه، وهكذا هي الدنيا، فلا بد لكل جيل من أن يظهر فيه عارفون جدد، يعيدون الاستنباط من كلام الأولين، ليعيدوا صياغته بلسان حالهم حتى يسهل على أهل جيلهم فهم وصايا وسير أجدادهم وعلمهم، ولأن لكل جيل طريقته المختلفة في الوصل إلى الفهم،

ويتوقف ذلك على عوامل كثيرة، فمنها مثلًا مستوى ما يتحصل عليه الفرد من العلوم في هذا الجيل، وظروف كل جيل من الأجيال المختلفة، فمثلًا إن تحدثنا عن شابٍّ من شبابنا اليوم في سن السادسة عشرة مثلًا، فإننا سنجد أن هذا الشاب قد توفرت لديه معلومات ومعرفة لم تتوفر إلى أحد أجداده، وذلك لأن البشرية تتقدم دائمًا، وعلى هذا يصبح مبررًا لنا أن نعيد استنباط المعرفة من أحداث الماضي، فهذا هو دور العارفين في كل زمان.

ولكي لا أطيل عليكم فأنا أرى أن السمعاني رحمه الله كان على حق كبير فيما يخص تحليل المشكلة وتحديد العلة، فلقد أدرك أن المشكلة كانت في الوعي، وقد طرح فكرًا مناسبًا لذلك، وكان معه الحق حين قال: إن جمعًا من الناس بدون وعي كافٍ، قد ينهار سريعًا، وقد يسهل التأثير عليه، ولقد أثبتت الأيام صحة مقولته بما قد حدث لنا بعد انتصارنا، ولكن هذه أمور حياتية تعتمد على العلم والفكر، ولأنه كان رجل علم؛ كان أبرع في هذا، ولكنه قد أخطأ كما قال القاضي في عرض أفكاره مجردة على عواهنها، فلقد كانت تفتقر إلى الوعي العقائدي الفقهي، ولقد ظهر هذا في اختيار ألفاظه وترتيب الجمل لديه، التي قد تطيح بعقول قارئه

إلى الهلاك، وهنا ظهر جانب القوة لدى القاضي، فلأنه كان رجل دين؛ فعل الصواب حين استفاد من فكر السمعاني وبعلمه التجريبي في تحليل المشكلة وإيجاد الحل، ولكنه وضع ذلك في إطار عقدي سليم يرسي للباحث قواعد بحثه لتتوافق مع تأمينه فقهيًّا، ولكنه قد تسرع أيضًا في جمع الناس، فلم يكونوا قد تحصلوا على الوعي الكافي ليحفظهم من التلاعب بانتصارهم الذي حققوه، فلقد كان أدرى بما يقال، وبصياغة الأفكار وبثها إلى نفوس العامة، ولهذا نجد أنه يجب أن توكل الأمور إلى العارفين فيها في أي مجال، حتى نتمكن من الحصول على أعلى النتائج وأفضلها للجميع، ولقد كان هذا درب الأولين فاسألوا أهل الذكر، وفي نهاية الأمر فلن ننسى فضل الشيخين، فليرحمهما الله رحمة واسعة. ولقد أنهيت حديثي ها هنا.

فصرخ الناس باسمي، وانسجمت معي أبصارهم، يا له من إحساس مرعب! قد يفتن به المرء حقًّا. قلتها في نفسي فنظر إليَّ العارف ضاحكًا وقال حفظك الله يا ولدي من الفتن.

هنا استشاط الحارث غضبًا ولم أعد أفرق بين جده وادعائه فقال:

والآن أتقدم إليك يا سيدي العارف لطلب موافقتك على زواجي من إيرام، فلتأذن لنا في مباركة هذه الزيجة.

فقال العارف: بارك الله لكما، ولكنه يجب علي سؤال العروس أولًا، فنظر إلى إيرام وسألها فلم تجب، واقتربت مني وقالت فلتتحدث يا عابر،

فتذكرت على الفور بأن هذا كان دوري في الحديث، وأنه يجب أن أتحدث الآن وأقول (نعم فأنا وإيرام نريد الزواج) ولكني قد شدهت بأدائهم الرائع ونسيت بأن لي دورًا في هذا الحوار، ولكنني سرعان ما استجمعت نفسي سريعًا وقلت جملتي في حزم: يا أبي إنني وإيرام قد اتفقنا على الزواج إذا ما سمحتم لنا، هنا همهم الناس وكأننا في مسرحٍ نقوم بأداء مسرحية درامية، المهم أن العارف قد قام ثم أشار إلى الحارث ليقترب منه ثم أمسك يده وقال له إذا فلتبارك لهما يا حارث على زواجهما وليبارك الجميع لولي عهدي وعارفكم من بعدي، الحارث ولد سيدي القاضي علام رحمه الله.

فكنت مستعدًا هذه المرة بجملتي الغاضبة فقلت: ولكن كيف ذلك يا والدي؟ وماذا عن سنوات قضيتها متخفيًا عن أعين الناس؟ هل كنت تخدعني أيها العارف؟ فلطمني وقال تأدب في الحديث مع أبيك، ولكنه

صفعني حقًّا فشعرت بالألم في نفسي، فانفعلت وتركت الدار قابضًا على يد إيرام في يميني، ورحنا نندفع إلى الخارج في مشهدٍ دراميٍّ رائع.

ولقد تبعنا عدد من أهل البلدة ممن كان قد رتب معهم العارف تلك الأحداث ليتبعوننا، وبالفعل أخذنا خيولنا وتحركنا متجهين إلى القصر كما رسم لنا بخطة العارف وسليمة، وما إن ابتعدنا عن الدار إلا وانفجرت إيرام ضاحكة فقلت: على ماذا تضحكين؟ فهو لم يقل لي أنه سيصفعني، فزاد ضحكها فلم أتمالك نفسي أيضًا ثم قلت لها: لقد كنتما بارعين، فلقد صدقكتما أنتِ والحارث، كيف فعلتم هذا؟ فقالت بل إن العارف هو من كان بارعًا ورحنا نضحك ثانية ثم قالت: ولكن قل لي هل كان هذا الحديث الرائع حديثك أنت أم إنك قد رتبت ذلك مع العارف مسبقًا؟

فقلت: متافخرًا لا بل كانت هذه هي وجهة نظري فقط، فسمعت بث العارف إليَّ قائلًا (كانت وجة نظرك أيها الكاذب! فكدت أن أسقط من على فرسي من الضحك، ثم قلت لها: ولكن ماذا يعني اسم (إيرام)

فقالت: إيرام اسم فارسي ومعناه (جنات).

❋ ❋ ❋

الفصل الثامن

(عاصف قائد جنود الموصاركا)

كنا في طريقنا إلى قصر العارف، وكان يتبعنا جمع كبير من أهل الدار الذين قد انضموا إلينا، ولقد قالت لي إيرام بأنني يجب أن أتلثم حتى إذا ما تبعنا أحد من الموصاركا فلن يتمكن من التعرف علينا، ولقد أعطت أوامرها إلى القوم ألا يسيروا مجتمعين، بل كل جماعة تجعل بينها وبين الجماعة الأخرى مسيرة ساعتين أو ثلاث، حتى لا نلفت الأنظار إلينا، وتابعنا سيرنا ليلًا، وكانت أمامنا مسيرة يوم كامل، ولم تكن تتحدث كثيرًا إلا إذا شرد فرسي عن الطريق، فكانت تناديني وترشدني إلى أن انقضى الليل وقتلتنا شمس الظهيرة، فأردت أن أطوي طول الطريق فبادرتها بسؤالي عن قصتها فقلت: هلا حدثتني عن سبب هجرتك إلى دار سليمة يا إيرام؟

فقالت: أولم يحدثك العارف بهذا؟

فقلت: لا، لكنني حين سألته قد قال لي إن لكِ قصة عظيمة ولكن لم يسعنا الوقت ليرويها، لي فهلّا أخبرتني بها، فإن الحديث يطوي الطرق الطويلة.

- أعتذر منك يا سيدي فأنا ما زلت لا أعرفك جيدًا، بل أنا حتى غير واثقة من أنك ابن العارف حقًّا، ولولا أن سيدتي سليمة قد أمرتني بالوثوق بك ما كنت تحركت معك ولو شبرًا واحدًا في رحلة كهذه.

فلم أجب وشعرت بحرج شديد وكذلك هي على ما يبدو، لأنه قد ساد الصمت بيننا بعد ذلك لفترة طويلة حتى قالت: هل ضايقتك؟ فلتسامحني يا سيدي، ولكن هذه هي طبيعة الغرباء، فإن أول دروس الغربة التي تزرع في داخلك هو أن لا تثق بأحد إلا بعد أن تختبره، ولقد عانيت من تلك الغربة طويلًا، منذ أن كنت في العشرين من عمري.

فقلت: لا بأس.

ثم ضحكت بدون سبب واضح.

فقلت: لم تضحكين؟

فقالت: فقط تذكرت ملامحك حين صفعك العارف.. وأخذت تعلو ضحكاتها.

فغضبت، فقالت: لا عليك يا سيدي، فمن أجل هذه الصفعة سأروي لك قصتي كتقدير لمجهوداتك وضحكت ثانية.

فلم أعلق، فقالت: إني أثق بك يا سيدي، وما كان ذلك إلا من باب المماطلة، فهذا طبع النساء كما تعلم، ولكنني أريدك يا سيد عابر أن تعدني بألا تصدر عليَّ حكمًا ما حتى أنتهي من قصتي مهما كان ما ستستمع إليه غريبًا عليك، وطبعًا أنت لست بحاجة لأن أطلب منك ألا تخبر أحدًا بقصتي.

فقلت: بالطبع، أنا لست بحاجة إلى ذلك، وأعدك بأنني لن أصدر أية أحكام لا بعد أن تنهي قصتك ولا قبل أن تبدئيها.

فقالت: حسنًا، فلقد كنت الابنة الكبرى لأبي الذي كان كبير التجار في بلدتنا، والذي لم يرزق البنين، فلقد كنا أربع فتيات وكنت أنا أمل والدتي في أن أثبت لأبي أن الابنة الوفية يمكنها أن تكون خيرًا من الابن إذا ما أتيحت لها الفرصة لذلك، وبالفعل لقد كنت أعشق العلم وأجتهد حتى أحقق لأمي هدفها، ولكي أجعلها تفخر بي لأعوضها عمَّا قد عانته من تلميحات أقارب والدي لها بأنها أم البنات، وهذه السخافات التي تعرفها، فلقد كانت بلدتنا ما زالت ترى المرأة على أنها مخلوق للتباعية فقط، ولم يكن لدي صديقات كثر، ولكن كانت تسير الأمور بطريقة جيدة حتى أنهيت دراستي التأهيلية، ثم أردت أن أصبح طبيبة، وبالفعل

كنت أنا أولى الفتيات اللواتي يتعلمن الطب في بلدي، ولقد كان لهذا صراع رهيب مع والدي ولكن بفضل الله أولًا، ثم من بعده والدتي التي صارعت من أجلي تمكنت من ذلك، ولكنني قد فوجئت حين بدأت في ممارسة عملي بأن أغلب الحالات التي تأتيني كانت لفتيات من الفقراء قد حملن سفاحًا وجئن إليَّ ليجهضن أنفسهن ويقتلن أبناءهم، قد يحدث هذا كحالة عابرة ممكن، أما أن تتحول إلى ظاهرة فأنا لم أتحمل هذا، ولقد أخذت الأمر على عاتقي ورحت أدرس تلك الحالة لأعرف ما السبب في ذلك، فكان معظم الفتيات لديهن إجابة واحدة، وهي أننا من الفقراء ولسنا بالجميلات، فمن أين لنا أن نأتي بما يرغب فيه الخطاب؟ من ذهب ودار للسكن وهدايا للزوج.

هنا صرخت فيها: ماذا تقولين؟ وهل يطلب الرجال من النساء في بلادكم هذه الأشياء من أجل الزواج؟

فقالت: نعم يا سيدي، لم تكن هذه عاداتنا ـ لقد كنا مثلكم في بادئ الأمر، فلقد كانت العروس وأهلها يتحملون بعض النفقات وكان الرجال يعطون المهور ويوفرون المسكن، إلا أن الموصاركا قد لعبت دورًا مهمًّا في ذلك، فلقد أرادوا نشر الفجور في مجتمعنا، ولقد فطنوا إلى

أهمية دور المرأة في بناء العائلة وتربية الأبناء، فأرادوا تدمير هذا النظام بأن أشاعوا فينا عاداتهم تلك التي لم تبنَ على أي منطق، والغريب أن رجالنا بدلًا من أن يتصدوا لهذا تجاهلوا تعاليم دينهم، بل وقد غالوا في تلك العادات لأنها تصب في مصلحة الرجل، أو هكذا اعتقدوا أو خدعوا بالخونة من بني جلدتنا، الذين قد ساعدوا الموصاركا في تزيين تلك الأفعال في أعين أهل بلدتنا، وظل الأمر يتفاقم حتى انتشر، فماذا يجب على الفتاة الفقيرة أن تفعل سوى أن تعيش وحيدة، أو أن تستسلم لرجال الموصاركا الداعرين الذين يأتون إليها لحثها على العمل في البغاء حتى تتمكن من جمع المال لتشتري لها زوجًا في المستقبل.

هنا صرخت فزعًا: ما هذ الذي تقولين؟! فصمتت قليلًا ولكنها لم تحبس دمعاتها وقالت: قل لي يا سيد عابر ماذا تفعل إن كنت في مكاني، هل تصمت وأنت ترى هذا يحدث؟ بالطبع لا، ولهذا فلقد شرعت في بناء منزلٍ وسميته دار العفة، وكنت أجمع التبرعات من الشرفاء في بلدتنا الذين كانوا مثلي يرفضون تلك الأوضاع وأجمع تلك الفتيات من الحانات وبيوت البغاء وأضعهن فيه، وأعلمهن وأجعلهن يقمن بالعمل في داخل المنزل، وكنت أزوجهن من شبابنا المخلصين، حتى علمت

الموصاركا بأمري فبدؤوا في تهديدي وتهديد أبي، بل ولقد تطور الأمر حتى قاموا بنشر الأكاذيب حولي والشائعات لكي يلوثوا سمعتي حتى انهار أبي أمام تلك الضغوط.

وأراد أن يزوجني ليتخلص من تلك الشائعات، وهنا دارت عليَّ الدائرة، فلم يأتِ لزواجي غير الطامعين في ما لدى والدي من مال، ولكأني شاة تشترى لتذبح، فلم أقبل بهذا، ولم يستمع إليَّ والدي، ولم أكن أعلم في هذا الوقت أنني يجب أن أفرق بين الدين والمتدينين، أي إن تصرفات الناس هي تخصهم هم، أما ما تنص عليه الأديان فهو شيء آخر، ولكنني ولجهلي بهذا في هذه الفترة لم أتمكن من التمييز بين أفعالهم وبين ما يأمر به الدين، ولقد كانوا يستفيدون من الدين بحيث يطالبون الزوجة بكل حقوق الزوج، بالإضافة إلى عادات الموصاركا التي ما أنزل الله بها من سلطان، فيأخذون من الدين ما يناسب أهواءهم، ويتركون ما لا يرضيهم، وإن اعترضت على هذا قالوا هل تكفرين بأوامر الدين؟ وظلوا هكذا وظللت أرى الفتيات وهن يبيعن أنفسهن، ويقتلن أنفسه، وأبنائهن من السفاح، حتى قلتها لأبي ذات يوم: إذا كان هذا هو دينكم

فإنه لدين ظالم، وإني لكافرة به، وما إن نطقتها إلا وسحبت كالبهائم وتم سجني في إحدى غرف المنزل حتى يأخذ والدي القرار بقتلي.

ولكن والدتي قد تسللت ليلًا وتمكنت من تهريبي، ولقد كانت والدتي صديقة السيدة سليمة، فلقد كتبت لها كتابًا وأرسلتني به إليها، وقالت لي لا تعودي إلى هنا إلا إذا أرسلت لكِ رسالة بأن تعودي.

وهنا أجهشت بالبكاء فلقد تركت البلدة وكنت كمن يطعن في قلبه بكل خطوة أخطوها في طريق الهرب، فمع كل خطوة كنت أخطوها كنت أتذكر إحدى فتياتي اللواتي بالدار وأبكي وأتخيل ما سيحل بهن بعدي، وكنت مدمرة بالكلية، وما إن أتيت إلى السيدة سليمة وقرأت رسالة أمي، إلا وانهمرت دموعها وأخذت تسب الموصاركا والخونة من أهل بلدتنا، وأكالت عليهم الدعوات واحتضنتني وجعلتني كابنتها حقًّا، وبمرور الوقت قد لاحظت أنني لم أكن أصلي فناقشتني وأفهمتني هي والحارث أن ما رأيته لم يكن أمر الله؛ بل كان أمر الشيطان الذي اتخذوه حليفًا لهم، ورأيت كم إن المرأة قد كرمت ودعمت في المجتمعات التي تبعت أوامر الله، ولم تخن الله في نسائها ولا في علمها.

وهنا أدركت أن مشكلة بلادنا كانت وما زالت في الجهل، ولهذا فلقد عكفت على دراسة الفقه على يديها وأخذ الحارث يشرح لي علم الشيخين أيضًا، على أمل أن أعود يومًا ما إلى بلادي فأصحح ما قد أفسدته الموصاركا بالتعاون مع الخونة من بلادنا، الذين هم كانوا البوابة التي سمحت لهؤلاء الشياطين بالعبور إلى بلادنا.

وما إن أنهت حديثها واستدارت بوجهها نحوي حتى قالت: هون عليك يا سيد عابر، هل أبكتك قصتي إلى هذا الحد؟

فقلت: بل أبكي على نفسي وعلى عمر قد أهدرته مغيبًا، لقد جعلتموني أشعر كم كنت تافهًا ومزيفًا، كم عظماء أنتم يا إيرام، جميعكم.

فلم تعقب على ذلك وظللت صامتًا أفكر فيما قالته وفي ضآلتي التي ملأتني ثم قلت لها: وما الذي تخشينه في ذكر قصتك؟ لقد كنت عظيمة حقًّا.

فقالت: إن ما يعذبني في تلك القصة هو تلك المرحلة التي تركت فيها ضعفي يقودني إلى الظن السيئ في خالقي، ولا أحب أن أذكرها أبدًا، ولكنني لا أدري لماذا قد ذكرتها لك، ولكن عسى الله أن يغفر لي

جهلي وضعفي، وأرجوك يا سيدي أن تدعو لي الله أن يغفر لي هذا، وأن لا يعاتبني فيه حين ألقاه، فأنا لن أتحمل عتابه في ذلك.

هنا صرخت فيها: من أنتم؟ ومن أي البشر أنتم؟ وأنتِ من تريدين أن يدعو لكِ؟ بل أنا أدعو الله أن أشبهكم وأن أحشر مع من هم من أمثالكم.

وهنا قد وصلنا إلى البوابات فقالت: فلتستعد يا سيدي ولتكشف عن وجهك مثلي فإن الحراس لديهم أوامر من العارف بأن يتأكدوا من شخصيتي وشخصيتك قبل أن يقوموا بفتح البوابات، فلتظهر لهم نفسك ولتتصرف كملكٍ، لا تنسَ كملكٍ يا سيد عابر.

فقلت لها: لا تقلقي، كملكٍ يا إيرام، وأنا أقسم لكِ لأبذلن كل ما في وسعي لمساعدتكم، حتى وإن كان في هذا هلاكي.

فشكرتني وابتسمت ثم أقبلنا إلى البوابات، وما إن رآنا الحراس حتى فتحوا البوابات سريعًا، ووجدت أيوب عامل القصر والمساعد الأول للعارف ينتظرنا بالداخل ولكنه كان يرتدي زي الحرب.

فحين ترجلت عن خيلي هرول إلَّ وقال: نحن في انتظار أوامرك يا سيدي، فنظرت بالقصر فلم تقع عيني على فرد لا يرتدي زي الحرب،

وكأنني في معسكري، فانطلقت إلى الشرفة العليا وتبعني أيوب وإيرام، فقال أيوب: سيدي نحن على علم بكل شيء، فلقد أوصاني العارف قبل رحيلكما بأن أكون درعك وحارسك الأمين، ولم يكمل أيوب جملته إلا ووجدنا أحد الحراس قادمًا يهرول وهمس في أذن أيوب وأشار له أيوب بغلق البوابات، ورأيت الفزع على وجهه فقلت: ماذا حدث؟

فقال: سيدي إن جنود الموصاركا قادمون في اتجاه القصر، هنا قالت إيرام لأيوب فلتبقَ بالقرب من مجلسنا، فقال: أمرك سيدتي.

وبالفعل وقفنا بنافذة الشرفة حتى جاء الحارس وحدثنا من الحديقة قائلًا: سيدي إنه السيد عاصف قائد جنود الموصاركا ومعه بعض جنوده يطلبون الإذن بالدخول، فأشرت لهم بأن تفتح البوابات ونزلت إلى المجلس الذي يطل على حديقة القصر لأستقبلهم.

ولقد حاولت التواصل مع العارف لكنه لم يبث لي شيئًا مطلقًا، هنا ترددت قليلًا، ماذا أفعل؟! فنظرت إلى أيوب وإيرام فوجدت القلق في أعينهما فتحركت مباشرة في اتجاه عاصف، فوقف عاصف على مسافة مني وقال مرحبًا بك أيها العارف الشاب، ولكنه لم يتحرك من مكانه وكأنه ينتظرني أن أذهب إليه وكنت قد تحركت باتجاهه بالفعل ولكني

تذكرت قول إيرام حين قالت: تصرف كملك فتخطيته ثم جلست في مجلس العارف كما كان يجلس وقلت: مرحبًا سيد عاصف، لم أتوقع أن أنال شرف زيارتكم بهذه السرعة.

فضحك وقال: نحن نهتم بحلفائنا يا عزيزي، ولا ننتظرهم حتى يطلبون مساعدتنا، بل نهب إلى نصرتهم ودعمهم على الفور من دون طلب.

فقلت: جيد إذن، يمكنني أن أفهم من ذلك أنني أحظى بدعم الموصاركا العظيم.

فقال: بكل تأكيد يا عزيزي، فلقد تلقيت أوامر مباشرة من حكام الموصاركا كان مفادها أن اذهب على وجه السرعة إلى حليفنا وقدم له الدعم الكافي ليستقر أمره، وليطمئن قلبه، ولكي تحقن دماء شعوب حلفائنا، وها أنا ذا يا سيدي في خدمتك.

فقلت: جيد، فنحن نقدر سرعة تفاعلكم مع الموقف، ولقد كان هذا ما نتوقعه من حلفائنا بالطبع.

هنا تلقيت بث العارف: أحسنت يا بني، أنا معك الآن، فاستراح قلبي وكان عاصف يتابع حديثه قائلًا: إذن فأنا أرى أنه من واجبنا

كحلفاء أن نؤمنك يا سيدي، ولهذا فلقد أحضرت إليكم أفضل رجالي ليقوموا بحراستكم، وسنرسل فور عودتي إلى دار الموصاركا تجريدة كاملة من جنودنا لتحرس القصر بالكامل، فقال العارف: انفعل عليه وارفض ذلك.

فوقفت في حدة وقلت له: لا أريد، فأنا لدي رجالي الذين أثق بهم ولئن كنت في حاجة إلى أي مساعدة فلتكن متأكدًا أنني سأطلبها من حلفائي على الفور.

هنا غضب عاصف ثم هدأ ثانية واقترب مني وقال في لهجة تدعي النصح ولكنها كانت أقرب إلى فحيح الوسوسة: ولكن يا سيدي أنت تعلم أنه وفي مثل تلك الظروف لا يمكنك أن تثق في أي من أتباع والدك القدامى، فقد يخونك أحدهم، ولن يرحمك والدك حينها.

هنا زمجر أيوب وقال: نحن فداؤك يا سيدي حتى الموت، وتقدم باتجاه عاصف في تهور قد أربك عاصف، فأشرت له بأن يتراجع وهنا تحدث العارف فقال: قل له اسمع يا عاصف.

فدهش من كوني أناديه باسمه من دون ألقاب، فتجاهلته وتابعت: أنا صاحب حقٍّ، وأهل بلدتي قد تبعوني، فدعنا نكون واضحين، فأنا

أحتاج إلى صديق وحليف لا أكثر من ذلك، فانفعل عاصف وقال في حزم: إن كنت صاحب حق فأنا لن يكون لي مكان هنا، فلتسمعني جيدًا أيها الشاب، يبدو أنك لا تدرك الأمر جيدًا، فأنت تحاول سرقة مجد أبيك وسلطانه ونحن لا مانع لدينا من هذا، بل ونريده أيضًا، وسندعمك ولكنك يجب أن تعلم جيدًا أنك إذا ما أردت أن تجلس ها هنا ولطم بيديه كرسي العارف الذي أجلس فيه، وأن تصبح عارف هذه البلدة، فإن طريقك الوحيد لذلك هو عاصف صديقك وحلفاؤك حكام (موصاركا) ويجب أن تدرك بأن بقاء ذلك مرتبط بقرارهم هم فقط، ولا يغرنك أولئك الدراويش من حولك، فلئن أشرت إلى جنودي لفتكوا بهم على الفور.

فلم يكمل جملته حتى وجد سيف أيوب يلمع على عنقه وكذلك جنوده جميعًا كانوا تحت سيطرة العمال بالكامل، هنا همس لي العارف أن أنظر في عينه وأحقره وألتف حوله، وقد فعلت.

فضحك وهو يبعد سيف أيوب عن رقبته ببطء وقال الآن فقط قد اطمأننت عليك يا سيدي، فلقد كان هذا اختبار لأتأكد من ولائهم لك، فأنت حليفنا الذي لا بد لنا من الاطمئنان عليه.

فقال العارف: ابتسم له ساخرًا، ثم قل في تهكم لا بأس، ففعلت وتابعت، أما الآن وقد اطمأننت على حليفك فأنا أعلم أن لديك مهامًّا جسامًا لتنجزها، وأنا لا أريد أن أهدر وقتك، أبلغ تحياتي لحكام موصاركا، وأخبرهم بأن العارف يتطلع إلى نيل شرف زيارتهم له في قصره وسط مؤيديه.

فقال عاصف: ولكن سيدي بقي شيء مهم، هو أن تسمح لي بمصافحتك كحليف وصديق مقرب.

فصافحته فأمسك بيدي وقال: ما هذا يا سيدي؟! أين سوارك؟ هل يعقل هذا؟! إن عارف البلدة لا يرتدي سوارًا، فلقد كان على رأس توجيهات حكام موصاركا التي قد وجهت إليَّ بأن أتأكد من أن سواركم من أفخم الأنواع، وإلا فكيف سنطمئن على سلامتكم يا سيدي؟ فإننا قد طورنا سوارًا خاصًّا نهدية للملوك فقط من حلفائنا، له قدرات فزة، وإنه لشيء مهمٌّ جدًّا لدينا أن نتأكد من أننا قادرين على التواصل مع حلفائنا في أي لحظة وفي أي مكان وتحت أي ظرف، لنتمكن من تقديم الرعاية الكاملة لهم، وتوفير الحماية المطلوبة، ولهذا فأنا أدعو سيادتكم

لتشريفنا في تل الموصاركا لنتمكن من تقديم أفضل سوارٍ لدينا كهدية لحليفنا العزيز، ولتكن تلك الزيارة تأكيدًا على دعمنا الشامل لفخامتكم.

هنا بث العارف: لا مانع لدي من زيارتكم، ولكن يجب أن تعلم أن سوارًا يرتديه العارف لا بد له من قدرات خاصة، ليست كأي سوار، ولا بد لي من اختيار وتحديد كل شيء، فلتجعلوا سحرتكم يتجهزوا لذلك، فإنه إن لم يكن سوارًا كما أريده فأنا لن أرتديه أبدًا.

فلقد برقت عيناه فرحًا من أنه تمكن من إغواء العارف نفسه ليرتدي سوارهم فقال: بالطبع يا سيدي بالطبع، إذن هلا حددت لي موعدًا لتلك الزيارة لأرسل لكم فصائلنا لاصطاحب موكبكم المشرف إلى التل، ولكي يتجهز السحرة لدينا بأفضل ما لديهم لينالوا شرف رضائكم.

العارف يبث: دعني أنظر أولًا فيما ورائي وحين يستقر الأمر سأرسل لكم.

هنا انتفض عاصف: سيدي، لا بد وأن يحدث هذا في خلال يومين على أقصى تقدير، وإلا سيعتقد حكام الموصاركا بأنك ترفض أن تكون حليفهم، وأنك لا تحترم صداقتهم، هل اتفقنا يا سيدي؟

فقال العارف: أومئ برأسك فقط، ففعلت.

فانصرف هو وجنوده.

فقال العارف: أحسنت يا بني أحسنت.

وما إن غادروا حتى صرخ كل من بالقصر فرحًا، وقالت إيرام: يا ليت العارف يسمع بما حدث، فضحكت وضحك العارف.

ثم نظرت إلى أيوب واحتضنته وقلت له: أحسنت يا أيوب، فقال: في خدمتك وخدمة العارف يا سيدي.

هنا بث العارف أبلغ أيوب أن ينتظرنا على أبواب المدينة فنحن في طريقنا إليك، وأخبره أن لا يبلغ أحدًا عن قدومنا، فقط يبلغ الحراس أنه هناك وفد من أهل الدار قادم للانضمام إلينا، فلتذهبوا ولتحضروهم دون أن تسألوهم عن شيء، وعلامتهم أنهم يحملون كتاب الشيخين معهم، فإذا ما رأيتموه فلتقودوهم إلى قصر العارف مباشرة.

وبالفعل قد أبلغت أيوب وقد سعى لتنفيذ ذلك.

وذهبت إلى غرفة العارف كي أنعم برؤيا لوحة نور الحبيبة، فصحبتني إيرام، ولقد فتنت باللوحة، وما إن رأت انشغالي باللوحة حتى قالت: أعتقد أنني يجب أن أتركك قليلًا مع ذكريات أمك الحبيبة،

فنظرت إليها متعجبًا، ثم تذكرت أنها تظن أن نور كانت أمي، فهززت رأسي شاكرًا، ومكثت هكذا أحدث نور وأستعيد ذكرياتي معها، حتى وصل العارف وبرفقته سليمة والحارث وبقية أهل الدار، ولقد أفزعوني حين دخلوا عليَّ بالغرفة وكانوا ملثمين حتى لا يراهم أحد، فهم العارف فاحتضنني ومن بعده سليمة، وأخذا يهنئانني بما فعلت، وللمرة الأولى يحيني الحارث بطريقة لائقة فقال: أحسنت يا أخي، أحسنت، وأخذ يحتضنني بقوة، ولقد كانت تلك لحظة سعيدة لم أحظَ بمثلها منذ سنوات، لقد صرت جزءًا من عائلة، وأصبحت ذا قيمة مرة أخرى، بل إنه يجب أن أشكركم أنا على أنكم قد سمحتم لي بأن أحيا من جديد.

فقالت سليمة موجهة حديثها إلى إيرام، فلتروِ لنا ما حدث بالتفصيل، لأنني لم أفهم من أيوب جيدًا، وبالفعل أخذت إيرام تحدثهم وكنا نتحدث أنا والعارف بثًّا من بينهم دون أن يشعروا بنا فقلت: أرأيت يا شيخ كيف كان يتحدث هذا المعتوه؟ أقصد عاصف طبعًا، فقال: أرأيت أنت يا بني أن أهم شروطهم أن تكون على الباطل ليدعموك، فإن كنت على حقٍّ فما الحاجة إليهم؟ هذا هو دأبهم دائمًا، أن يساندوا جانب الباطل، لأن أصحاب الباطل كالسارق دائمًا خائفون

ويحتاجون إلى من يدعمهم، وبهذا يتحكمون فيهم وفي قراراتهم من دون حروب أو دماء، فقط هم يعطون من لا يستحق حتى يظل عبدًا لهم وإلا حرموه التمتع بسرقته تلك.

- نعم يا سيدي أنت محق، ولكن لماذا أتيتم الآن؟ ألن يشكل ذلك خطرًا؟

فقال: انتظر يا ولدي فلنتحدث عن هذا أمامهم، فإن صمتنا هذا قد يثير قلقهم، وبالفعل تكلم الشيخ مقاطعًا حديث إيرام وسليمة، فقال: فلتعيروني انتباهكم جميعًا، أما الآن فلقد نجحنا في الجزء الأول من خطتنا، ولكننا ما زلنا لم نحقق شيئًا ملموسًا، ولهذا فقد قررت أن نأتي جميعًا إلى هنا حتى تكونوا جميعًا أمام عيني، ولكن يجب أن لا يعرف بوجودنا أحد سوى عابر وإيرام وأيوب، حتى تذهب إلى التل يا عابر، وبمجرد أن أعلم بخروجك من هناك ساعتها نظهر جميعًا وننشر بين الناس أن العارف قد عاد إلى القصر، وقد تمكن من احتلاله وإرجاع الأمور إلى سابق عهدها، وسندعو جميع أهل المدينة إلى القصر في هذا اليوم، ونكمل ما أنت على علم به يا عابر.

هنا تحدث الحارث: ولكن يا سيدي كيف ستتمكن من الاختفاء لمدة يومين دون أن يرانا أحد من العمال بالقصر أو شيء من هذا القبيل فقال العارف باسما: سيقوم السيد السمعاني باستضافتنا، وإذا به يقوم ويسحب لوحة نور الحبيبة التي على الحائط إلى الخلف، ليتكشف من خلفها باب سريٌّ فسألته إلى أين يقود هذا الباب يا سيدي فقال: إنه معمل السيد السمعاني رحمه الله، الذي كان يخفي به كل أسراره، ولقد وصفه لي عندما أهداني هذا القصر عندما كنا في سجننا، وفيه قد خبأ السمعاني كل كتبه وأبحاثه ولكن المهم الآن أنه لن يدخل علينا هنا إلا أنت وأيوب، وإيرام هي من ستأتينا بالطعام بمساعدة أيوب وما علينا الآن إلا الانتظار.

هنا قالت سليمة: ولكن ماذا عن جنود الموصاركا، ألن يبحثوا عنا وعن سبب اختفائنا؟

بالطبع، ولكني قد نشرت إشاعات كثيرة حول ذلك لأربكهم، فلقد أرسلت لهم أخبارًا متناقضة، مثل أننا قد فررنا، وأيضًا أننا قد قتلنا، وأيضًا أننا قد زحفنا إلى معسكر آخر لتجهيز جيش سري لنعود به لاسترداد القصر، وكان هدفي من ذلك هو أن أزيد من رغبتهم في مراقبة

عابر، وتحفيزهم ليتعجلوا بأمر السوار معه حتى يتمكنوا من فهم ما يحدث.

فإن اطمأنوا لما يحدث فسيكون إيقاع الأحداث بطيئًا للغاية، وأنا أريدهم أن يكونوا تحت ضغط الارتباك من قلة المعلومات المتوفرة لديهم.

هنا اقتحم علينا أيوب الغرفة مسرعًا وقال: أعتذر يا سيدي ولكن هناك امرأة من جواري الموصاركيين برفقة جندي موصاركي ملثمين، يطلبان رؤية السيد عابر والسيدة إيرام، ولقد قالا إن لديهما معلومات مهمَّة ولكنهما لن يتحدثا إلا أمام العابر والسيدة إيرام.

فصمت الجميع ثم قال العارف: إنه عاصف يتلاعب بنا.

فقلت: ولكن بهذه السرعة يا سيدي؟ لا أظن! وأنا أثق في أنني قد تمكنت من خداعه يا شيخ.

فقال الشيخ: تخدع من يا بني؟! إنه عاصف، هل تعتقد أنه بهذه السذاجة؟ بالطبع هو لن يثق بك مهما حدث، إن له لمكر إبليس وأنا أعرفه جيدًا ولكن لا بأس، فلتذهبا للقائهما، ولكن هل فتشتهما جيدًا يا أيوب؟

- بالطبع يا سيدي.

- أيوب فلتكن بالقرب منهما، ولتأمر الحراس بالاستعداد لأي فعل مفاجئ.

- أمرك سيدي.

فبثَّ: أنا معك يا عابر. فبثت له: وأنا ملك يمينك يا سيدي.

وبالفعل نزلنا للقائهما، وبمجرد أن اقتربنا منهما حتى كشفا على وجهيهما، وصرخت الجارية: سيدتي إيرام، وارتمت باكية تحت أقدام إيرام فبكت إيرام واحتضنتها وقالت سمرا سمرا.

ثم قالت لي: إنها سمرا يا سيدي، فقلت: ومن سمرا؟ فقالت: إحدى الفتيات اللواتي قد حدثتك عنهن يا عابر، فلقد كانت سمرا مساعدتي بدار العفة.

فقلت: وماذا عنك؟ موجهًا كلامي إلى الجندي، فقالت سمرا: هذا مالك الذي قد زوجتنيه يا سيدتي،

فقالت إيرام: نعم نعم، ولكن لماذا ترتدون تلك الثياب؟ وما أتى بكما إلى هنا؟

- لقد دمرونا بعد رحيلك يا سيدتي، ودمروا كل شيء.

فقالت إيرام: ماذا حدث؟

فقالت سمرا: لقد قبضوا على كل من بالدار، ولقد بيعت كل الفتيات كجوارٍ، بل وحتى الرجال في بلدتنا صاروا يجندون إجباريًّا لدى جيوش الموصاركا، ولقد كان قدري أن بعثت إلى جنود المصاركا ببلادكم للترفيه عنهم في مركز التل، ومنذ أن أتيت إلى هنا وأنا كما ترين، إلى أن أتى مالك مع جنود الموصاركا الجدد إلى التل لينقذني. هنا تحدث مالك باكيًا وقال: لقد بحثت عنها في كل مكان، فبعد أن ألبسوني ذلك السوار لم يبقَ لي من ذكرياتي سوى صورة سمرا التي لم تفارق ذهني مهما فعلوا، ولقد كنت أحاول جاهدًا كلما أتيحت لي الفرصة في عرض صورتها أمامي وسؤال من حولي عنها، فلم أكن حتى أتذكر اسمها، وظللت هكذا أحيا كمسخ إلى أن تمكنت من معرفة مكانها بالتل عن طريق عرضي لصورتها أو بثها لكل من أراه، لعلي أعثر عليها، وحين علمت من أحد الجنود أنه قد رأى فتاة تشبهها بالتل ذهبت إلى أحد قادة الموصاركا وأعطيته كل ما لدي من عملات ذهبية، والتي قد جمعتها طوال خمس سنوت من خدمتهم بالجيش، حتى يرفقني بحراس التل وقد فعل، ولقد وجدتها أخيرًا، حتى إنني حين رأيتها لم أتمكن من

مناداتها إلى أن حدثتني هي وأخبرتني بكل شيء، ولقد كانت تمسح ذاكرتي كل يومين تقريبًا وتعود سمرا لتذكرني بكل شيء من جديد.

فقلت: ولم نسيت أنت ولم تنسَ سمرا؟

فأجابت سمرا وقالت: عندما كنا في طريقنا إلى التل ليضعوا لنا ذلك السوار قابلت إحدى الفتيات اللواتي كنَّ معي بالدار بنقطة الحدود القريبة من بلادكم، كانت تخدم الحرس الموصاركيين هناك، فناديتها فجاءت إليَّ ولكنها لم تعرفني، وشعرت بأنها تبدو مختلفة لدرجة أنني لم أكن واثقة من أنها هي نفس الفتاة التي كنت أعرفها، فأخذت أذكرها بنفسي وبك يا سيدتي وبأمها وأبيها، فاستفاقت للحظات ثم عادت مرة أخرى كما كانت وقالت أنا لا أذكر شيئًا قبل مجيئي إلى هنا، فلتتركيني، ففزعت من ذلك وقررت أن أكتب كل ما أتذكره عن نفسي وعن أهلي وحفظته هنا.

وحلت إزارها فإذا بها تحمل كتابًا قد دونت به كل شيء، وقالت: فالفضل بعد الله لكِ يا سيدتي، فلقد كنت أنتِ من علمتني القراءة والكتابة، واللذين قد احتفظا لي بذكرياتي إلى الآن، فلقد كنت أعود إليها كل يوم وأقرؤها، فبكت إيرام.

فقلت: أكمل حديثك يا مالك.

فقال: ولقد كنا نرتب لهروبنا من التل منذ فترة، ولكننا وفي تلك الليلة بالتحديد التي قد قررنا أن نهرب فيها قد رأت سمرا تجسيدًا لكِ يا سيدتي يقصد إيرام، وللسيد عابر يعرض في التل، وكان قادة التل يتحدثون إلى السيد عاصف بشأنكما.

هنا قالت إيرام: وما معنى تجسيد هذه؟

فقالت سمرا: إن سحرة التل يمكنهم إحضار تجسيد حيٍّ لأي فرد.

هنا تحدثت أنا: نعم نعم أكملي ثم ماذا بعد؟ فتابعت سمرا: فلقد كان السيد عاصف يقول إنه سيهدي رؤوسكما إلى العارف بدلًا من أن يتورط في إسقاطه، ولقد قال: أأ..... سامحني يا سيدي فيما سأقول.

فقلت: بل تكلمي على الفور، فقالت: لقد كان عاصف يقول إنك شاب غبي، فلئن كنت قد أظهرت انحناءك للموصاركا وله لكان قرارهم في صالحك، إلا أنه قد شعر أنك متغطرس ولن تكون مفيدًا لهم، ولذلك فلقد قرر سجنك وتسليمك لأبيك حين تذهب إليهم في التل، وبذلك قد يحسن من صورة الموصاركيين في أعين الشعب، وأيضًا

قال إنه سوف يلزم العارف بارتداء سوار حتى يسلمكما له، وإلا قتلكما على الفور، وبهذا يكون قد سيطر على البلدة، ولقد قال إنه لا خوف لديهم من العارف؛ فهو الآن شيخ يتداعى ولا فائدة منه، هكذا قال يا سيدي، وحين علمت ذلك قررت أن آتي إليكِ يا سيدتي لأحذرك قبل أن أهرب أنا ومالك.

هنا بث العارف: فلتسألهما كيف تمكنا من الهرب بسواريهما من دون أن تعلم الموصاركا؟

ففعلت: فإذا بهما يخرجان أيديهما لنراها تقطران دمًا فلقد كان لكل منهما جرح بمعصمه، وكانت أيديهما فارغة من الأساور، فبثثت ذلك للعارف.

فإذا بي أجد العارف قد نزل إلينا ووراءه الحارث وسليمة، فحين نظر سمرا ومالك إليه صرخا من الخوف فقال لهما: لا تخافا يا أبنائي، فأنتم بمأمن الآن، وأمر أيوب بإغلاق باب القاعة، وقال لهما كيف نزعتما السوار من أيديكما، فقالت سمرا: لقد فعلها لنا أحد السحرة مقابل ما لدينا من ذهب.

فقلت: أنا أريد أن أفهم كل شيء عن ذلك السوار؟

هنا قال مالك: حسنًا يا سيدي سأخبرك بما قد رأيناه، لكننا لسنا من السحرة لنعلم عنه كل شيء، ولكنني سأخبركم بما أعلمه، فإن السوار ليس قطعة واحدة؛ بل قطعتان، يعطى الفرد السوار ليرتديه ويظن بأن هذا هو كل شيء، ولكن في الحقيقة يا سيدي هناك قطعة من المعدن تغرس داخل معصمه وهو لا يشعر بذلك، تلك القطعة هي القطعة المهمة فيه، فلقد كانوا يدربوننا على الكشف عليها في أيدي الناس إذا ما كنا لا نتمكن من استجلاب ذاكرتهم.

فقلت: استجلاب ماذا؟

فقال مالك: يا سيدي عندما تغرس تلك القطعة في يد أحدهم فهي تتسلل إلى عقله وتبث كل ما يحمله من ذكريات وأحداث إلى السوار، ويبث ذلك السوار كل هذه الأحداث إلى مركز التل، فهم لديهم تلك الصحف المعدنية التي ترونها على التل لتستقبل تلك الأحداث وتحتفظ بها وتعيد بثها إلى قارورة التجسيد لتجسدها أمامهم، فيشاهدونها كما لو كانت تحدث أمامهم الآن، فلقد كانوا بسحرهم هذا يرون كل شيء ويعلمون كل شيء.

- وما هي قارورة التجسيد هذه يا مالك؟

- إنها قارورة ينبعث منها ضوء شديد يا سيدي، فهنا يكمن السحر، وعندما يسلط هذا الضوء في ناحية أي من الحوائط تظهر لك الأحداث كاملة.

فقلت: نعم نعم -منتشيًا- أكمل يا مالك أكمل.

هنا قال العارف: هل تعرف ذلك يا بني؟ فقلت: رجاء لا تقاطعوه أكمل يا مالك رحم الله والديك.

فقال: أجل يا سيدي، وكان سوار الموصاركيين يمكنه أيضًا أن يكشف عن ذاكرة أي فردٍ يراه من يرتدون تلك الأساور من النوع الأول، ويمكنه معرفة كل شيء عنه ولكنه لا يمكنه التجسيد إلا إذا اقترب من قارورة التجسيد وقام ببث الأحداث إليها حتى تجسدها له، ولقد كان هذا ما حدث عندما رأت سمرا تجسيد لقائكما، وتذكرتك يا سيدتي وهرعت لتكتب ذلك وحدثتني به، فلقد كان هذا التجسيد للقائكما بالسيد عاصف هنا بالقصر في أثناء ما كانت سمرا والجواري يحضرون الطعام والشراب للقادة بالتل في صحبة السيد عاصف بالأمس، هذا كل شيء يا سيدي.

فقلت: هل هذا هو كل شيء؟ فقال في رهبة: نعم يا سيدي، وأقسم لكِ يا سيدتي إيرام هذا كل ما أعرفه ولم أخفِ شيئًا.

- ولكن ماذا يفعلون بعد عرضها؟ فقط يشاهدونها! لا يمكن ذلك.

فقال: لا لا ياسيدي لقد تذكرت، فهم يمكنهم محوها أو محو بعضها أو استبدالها بأخرى من صنع السحرة كما فعلوا معي، فأنا حين نزعتها لم أتمكن من تذكر أي شيء سوى الأحداث التي حدثت منذ أن وضعتها على معصمي، ولولا سمرا التي قد حدثتني بكل شيء لكنت فاقدًا لكل ماضيَّ الآن، هذا كل ما أعرفه، ووالله إنني لا أدري كيف يحدث هذا.

فجلست أستجمع تركيزي وكانوا جميعًا يراقبونني مشدوهين مما سمعوا، ثم وجهت سؤالي لمالك: ولكن لمَ يجبرون الناس على الذهاب إليهم؟ ولمَ يقولون إن هذا السوار يحتاج إلى يومين حتى يعمل؟

- لا يا سيدي فكما قلت لك إنها تعمل مباشرة حين تغرس في المعصم، ولكنهم يحضرون الفرد إلى هناك ويجلسونه ثم يسقونه من قوارير التل التي يصنعونها فيفقد وعيه لساعة أو ساعتين حتى يتمكنوا من غرس القطعة المعدنية وإلباسه السوار، ويجبرونه على عدم نزعه

مطلقًا، فإذا ما شعر بالألم يخبروه بأن هذا سيزول قريبًا، وأنه ناتج عن انسجام السوار مع جسدك لا أكثر، ولكنهم في الحقيقة يحتاجون إلى يومين كاملين ليتمكنوا من جمع كل أحداث ذاكرتك وليتأكدوا من عمل السوار في يديك ثم يتركوك لتذهب.

فقلت له: رجاء لا تخبرني بأنك قد تخلصت من سوارك.

فصمت قليلًا وأخذ يتطلع إلى سمرا في حيرة.

فصرخت فيه إيرام: إنه مصير أمتنا يا مالك، يجب أن تفهم ذلك.

فمدت سمرا يدها إلى حزامها وأخرجته وقالت: ها هو يا سيدتي.

فقلت: والقطعة المعدنية يا سمرا؟ فارتبكت سمرا، ولكن وجود إيرام كان له تأثير كبير عليها فأخرجتها من فمها.

هنا صرخ مالك: ولكن احذر يا سيدي، فإن استخدمت ذلك السوار ما هي إلا ساعات قليلة وسوف تتمكن الموصاركا من تحديد مكانك وشخصيتك، لقد رأيت هذا مرارا وتكرارًا عندما كنا نذهب للقبض على أحد المعارضين للموصاركا، فلقد كنا نذهب وكانوا يأتون بأحد السحرة معنا وكان يحمل قارورة تجسيد يرى من خلالها ويقتفي أثر هذا الشخص الذي نرغب في إحضاره.

- هل تعني يا مالك أنه هناك العديد من قوارير التجسيد تلك؟

فقال: نعم يا سيدي، ولكنهم يحرسونها بعناية.

فقلت لمالك: فلتأخذ زوجتك واصعدا لترتاحا قليلًا، فسوف يكون الغد مرهقًا لي ولك، فقال: ماذا تعني يا سيدي؟

فقلت: في الغد إن شاء الله سنذهب سويًّا إلى التل.

فجن جنونه: لا يا سيدي أرجوك لا، أنا لن أذهب إلى هناك مرة أخرى.

فقال العارف: ما الذي يدور في رأسك يا بني؟ أخبرني.

فقلت له: يجب أن أذهب إلى هناك غدًا، وأنا أحتاج إلى من يدلني على الطريق.

فقال العارف: لا لن تذهب، وكذلك قالت سليمة.

فقلت: أرجوك يا سيدي، فمنذ أن رأيتك وأنا أثق بك وأتبعك، لقد آن الأوان لكي تتبعني وتثق بي، هنا قال الحارث: أنا من سيأتي معك.

فقلت: أنت لا بد لك من أن تأتي يا حارث لحماية العارف، ولكنني أريد أن يصحبنا مالك لعلمه بمكان تخزين قارورات التجسيد وبمعالم المكان من الداخل.

هنا قالت سمرا: إن كان هذا ما تريده فأنا من سيصحبكم يا سيدي.

وقبل أن ينطق مالك بكلمة تابعت سمرا في حزم: أنا أفعل ذلك من أجل رفاقي يا مالك، بل من أجل بلادنا أيضًا، إني آتية معك، فلقد عشت بذلك التل أكثر من خمس سنوات، وأنا أحفظه شبرًا شبرًا ولكن هل يعني هذا أنني سأضطر على غرس سواري مرة ثانية في يدي؟

فقلت: لا يا سمرا، فأنت لن تدخلي التل؛ بل ستنتظرينني في الخارج بصحبة العارف وحارث، ولكنك سترشديننا فقط، فقالت حسنًا.

فطلبت من أيوب أن يصطحبهما إلى إحدى غرف القصر ليرتاحا قليلًا، ثم نظرت إلى العارف وسليمة وقلت الآن أشرح لكم، أما الآن وقد أفسد عاصف خطتنا فلا بد لنا من خطة بديلة، ومن فضل الله علينا أن أرسل لنا سمرا ومالك ليخبرانا بكل هذه المعلومات، التي كانت كنزًا كبيرًا كما سأشرح لكم هذا الآن بالتفصيل، الآن وقد علمت كيفية عمل السوار والقارورة فلقد قررت إحضار إحدى قارورات التجسيد تلك إلى هنا.

فقال العارف: ولكن ما الداعي لذلك؟

- يا سيدي إنهم يسرقون منكم ذاكراتكم ويقومون بمحوها وإبقاء ما يرغبون به فقط داخل رؤوسكم، ويراقبونكم، ولقد كان خطؤهم الأكبر أنهم كانوا يحتفظون بتلك الذكريات، فلقد كان يجب عليهم تدميرها كليًّا.

ولكن لحسن حظنا أنهم قد أبقوا عليها، فهذا يعني أنني إذا استطعت الحصول على تلك الذكريات المحذوفة وتمكنت من إعادة بثها إلى الناس مرة أخرى بالإضافة إلى شرح كل تلك الأشياء لهم وتفسيرها، نكون قد استفدنا من تلك الأساور قبل أن نتلفها، فإن إتلافها يعني تدمير معظم ذكريات الناس وتاريخكم يا سيدي، وبدلًا من أن تحرر شعبك ستكون أنت من قضى عليه.

هنا قالت إيرام: ولكنك لا تعرف أين تخزن تلك الذكريات، ولا كيفية استرجاعها يا سيد عابر.

فقلت: نعم ولكني أعتقد أنني إذا استطعت الوصول إلى هناك وراقبتهم، سيمكنني معرفة ذلك، فلتدع لي يا شيخ، فإن هذه هي أهم خطوة في خطتي.

ثم قالت سليمة: ولكن كيف ستفعل ذلك دون أن يراك أحدهم؟ ومن سيسمح لك بذلك؟ بل إنهم حين يرونك سيقبضون عليك على الفور.

هنا قال العارف لسليمة: أتسألين وكنتِ أنتِ من أجابنا (وأخبره أنه هو العابر الذي سيعبر بإرث الشيخين إلى الأحفاد) فابتسم ثلاثتنا أنا والعارف وسليمة



الفصل التاسع

(التل ودماء الحرية)

أنهينا حديثنا وعكفنا أنا والعارف على ترتيب أفكارنا، وأخذنا نراجع كل ترتيباتنا، ولم يبقَ سوانا، فلقد ذهبوا جميعًا ليرتاحوا استعدادًا للغد، ولقد طالت جلستنا حتى غفوت إلى جانبه، وما هي إلا لحظات أو هكذا شعرت إلا وأيقظتني هذه الرؤية المفزعة، فلقد كنت أصرخ من شدة الخوف، ففزع العارف إليَّ: ما بك يا بني؟ ماذا حدث؟ فلقد كنت ما زلت أرتجف من تلك الرؤية، فسقاني وجلس يهدئني وقال: استعذ بالله منها يا بني، ولا تخف فأنا بجانبك، إنه مجرد حلم فلا تخف.

وبعد أن تمكنت من التقاط أنفاسي قلت: لقد كانت مفزعة يا سيدي مفزعة حقًّا.

فقال: خيرًا إن شاء الله.

فقلت: هل يمكن أن يكون هذا صحيحًا يا سيدي؟ وأخذت أبكي وأرتعد فاحتضنني وقال: هون عليك، ماذا رأيت يا بني؟ أخبرني.

فقلت: رأيت أنني كنت وحيدًا على الخيل في طريقي إلى التل، وكنت سعيدًا بما أفعل، وكنت أحدث نفسي بأن ما أفعله قد يقربني إلى الله وينجيني مما قد فعلت في حياتي السابقة، ورفعت يدي إلى الله أطلب منه أن يتقبل مني ما أنا مقدم عليه، ثم سمعت صوتًا كالرعد في السماء يقول: أيتها الروح الخبيثة، قد ردت إليك دعوتك، ثم رأيت جمرة من نار تسقط من السماء ويقذف بها بالقرب مني، فسقطت من على ظهر الخيل وحاولت الركض فزعًا، وقد كان الصوت ما يزال يتحدث فقال: أتحسب أنك ناجٍ مما فعلت أيها السكير القانط الكافر بقضاء الله، فلتنظر إلى آثامك وخطاياك، لقد صارت طوفانًا يلحق بك، فمنذا يعصمك منها؟ إنها لمصيرك المحتوم الذي لا مفر منه، فنظرت خلفي فإذا بطوفان يجرف الصحراء ويحولها إلى بحرٍ مخيفٍ، وأظلمت الدنيا وأخذت أصارع الموج وأنادي: يا ربي، لقد تُبت يا رب، وأصرخ حتى رأيت عرشًا يطفو على الماء يتجه نحوي، وكان يجلس على كرسي ذلك العرش رجل عملاق لم أتمكن من رؤية وجهه، ولكنه قام من على كرسيه واتجه إلى حافة العرش، فمددت يدي لينقذني فإذا به يضع قدمه على رأسي ويغرقني في الماء ويقول: فلتغرق في آثامك أيها اللعين، وأخذت أصرخ

وأصرخ، وكلما حاولت الخروج جاء ليدفعني مرة ثانية حتى استيقظت، أنهيت حديثي وكان جسدي لا يزال يرتعد من الخوف. فقلت: هل هذا صحيح يا سيدي؟ هل لم يعد لدي أمل في النجاة حقًّا؟

فقال الشيخ: والله إنه لهو الملعون يا بني، قد جاءك ليصدك عن سبيل الله، وليقنطك من رحمة ربك التي وسعت كل شيء، هذا اللعين الذي جاءك بعرشه الملعون على الماء ليخدعك، والله إنه لإبليس اللعين، فإن هذا دأبه، وإن هذه الرؤيا لهي بشارة خير أنك على طريق الله، ولولا أنك قد عرفت الطريق ما كان ليأتيك.

فقلت متلهفًا لتصديق هذا: حقًّا يا سيدي؟

فقال: أقسم لك إنه الشيطان، فلتنزع عنك هذا الخوف ولتتوضأ لنصلي الفجر وبعدها سأشرح لك.

وبالفعل توضأت وأقيمت الصلاة فوقف العارف وشرع في قراءة سورة الضحى فسمعتها وكأنها تقرأ لي وحدي، فحين قرأ قوله سبحانه: (**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ**) انفجرت باكيًا، فأعادها فعلا صوت بكائي فأعادها فبكى كل الواقفين وعلت أصواتهم فخارت قواي وخانتني

أقدامي فلم تتحملني فسقطت على الأرض، فتابع الصلاة وأكملت صلاتي خلفه وأنا على تلك الحالة حتى سلم.

ولقد كانت الآيات ما زالت تقرأ في أذنيَّ وشعرت وكأن الله يكلمني أنا وحدي، فلم أرَ الناس من حولي ولم أشعر بأحد، فقط أنا وربي وانطلق لساني بقول: كيف لم أستطع أن أفهم تلك الآيات من قبل، وبالرغم من أنني قد وجدت في حديث الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم السلوى لنفسي، والأمان من الخوف، ولكني قد شعرت بأن الله قد ادخر لي فهمها إلى هذا التوقيت، ليكون فهمي لها هو الرد على تلاعب هذا اللعين بي، حين كان الرسول في بداية دعوته وكان في فترة من وحي، فكان الكافرون يستهزؤون ويقولون لقد قلاك ربك يا محمد، أي هجرك، فجاءه الرد في هذه الآيات:

(وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ)، يقسم ربي وهو الغني عن القسم.

(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ)، ما تركني ربي وما هجرني.

(وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ)، أملني ربي في غفرانه ونصره.

(وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ)، وعزتك لقد رضيت يا رب.

(**أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ**)، يؤكد لي ربي أنه الرحيم.

(**وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ**)، دلني ربي إلى طريقه.

(**وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ**)، أمنني ربي من الخوف.

(**فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ**)، أتعهد يا رب.

(**وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ**)، أتعهد يا رب.

(**وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ**)، أتعهد يا رب.

هنا شعرت بهم يحيطون بي ويبكون واحتضنني العارف ثم وضع رأسي في حجره إلى أن طلعت الشمس، وقد توقفت عن البكاء وقلت حدثني يا شيخ لم لا تتكلم؟

فقال: إن من آداب العارفين يا بني:

ألا تقاطع من إلى ربه بكى   ولا تقطعن خلوة لله بعبده

فإذا العبد بدمع توبته شكى   فإن المولى منجز وعده

ولتدخر من حديثك لك   فلعله يجري دمعًا كدمعه

ثم قال: فلتنم قليلًا يا بني حتى تستعد لما لديك الليلة.

وقد تبدلت حالتي وكنت في تلك اللحظة مطمئنًا، فغرقت في نومٍ لم أنمه منذ سنين، حتى أيقظتني أصوات العمال وهم يعدون القصر

لاستقبال أهل البلدة الليلة، فلقد أعلن العارف أنه قد تمكن من استرداد القصر، وأن انشقاقي عنه قد فشل، ولذلك فهو يدعو كل أهل البلدة إلى القصر للاحتفال الليلة.

فهممت إلى العارف في غرفته وقلت: السلام عليكم يا سيدي.

فقال بعدما رد السلام مداعبًا: لقد نمت كما لم تنم من قبل!

فقلت: أين سمرا والحارث؟

فقال: إنهما ينتظراننا ولكن هل أنت مستعد لذلك؟

فقلت: بكل تأكيد، فلتدع لي يا سيدي ولتكن مستعدًا لاستقبالي حين عودتي وبحوزتي تلك القارورة عند التل، وأعتقد أنه قد آن الأوان يا سيدي لنخبر سمرا والحارث كما اتفقنا.

فقال العارف: ولكن هل أنت متأكد يا بني أنه لا يوجد طريقة أخرى لكي نتجنب إخبارهما بذلك؟

فقلت: يا سيدي لا بد لهما أن يعرفا أننا يمكننا التواصل سويًّا على الأقل، حتى إذا ما تواصلت معك من داخل التل وجدا لذلك مبررًا، وإلا شتتنا تركيزهما، وقد يعرض هذا خطتنا بالكامل للخطر.

فقال العارف: حسنًا يا بني، وأمر باستدعاء الحارث وسمرا، وقال: استمعا إليَّ جيدًا، فإن ما سنطلعكما عليه الآن يعد من أهم أسرارنا

ويجب ألا يعرف به أحد، ولم يكمل العارف حديثه حتى وجدنا الحراس يصرخون من على سور القصر، الموصاركيين يا أيوب الموصاركيين قادمون في اتجاه القصر.

فارتبكنا جميعًا ونظرنا إلى العارف فقال العارف: اذهبوا إلى الطابق العلوي، وصرخ على أيوب: وقال لا تفتح الأبواب إلا إذا أذنت لك يا أيوب.

صعدنا جميعًا إلى قبة القصر خلوة العارف وانتظرنا.

فإذا بأيوب يأتي مذعورًا: سيدي، إن لهجة عاصف في طلب الدخول توحي بالقلق الشديد، فلقد سألني هل الشيخ بالداخل؟ وكأنه متأكد من وجودك يا سيدي!

هنا قال العارف: هل أنتم جاهزون يا أيوب؟

فقال أيوب: ما من فردٍ إلا ويحمل سلاحه يا سيدي، ولكن أغلب أهل المدينة قد رتبوا مجيئهم بعد صلاة العشاء كما أمرت سلفًا.

فقال العارف: فلتحاول مماطلته قليلًا، ولترسل بعض رجالنا من الباب الخلفي للقصر لجمع الناس الآن، ولتخبر الناس أن العارف يريدكم بالقصر الآن.

أمرك سيدي، وبالفعل أرسل أيوب الرجال لاستدعاء أهل البلدة، وذهب إلى البوابة الرئيسية ليحاول تعطيل عاصف قدر استطاعته، ثم التفت إلينا العارف وقال: إنه عاصف مرة أخرى يسبقنا ليخرب علينا كل خطتنا، فأنا أعرف هذا اللعين جيدًا.

ثم أمر سليمة وإيرام أن يصطحبا مالك وسمرا إلى معمل السمعاني، فمن هناك يمكنهم مراقبة كل شيء، فإن حدث شيء فلتفروا، وإن مر الأمر بسلام فلتعودا ثانية، وقال للحارث: فلتبقَ بالقرب مني يا بني ولا تتعجل في رد فعلك، ثم نظر إليَّ وقال: وأنت يا عابر تعرف ماذا ستفعل إذا حدث شيء لا قدر الله يا بني.

ثم بث إليَّ: حين يخرج الجميع من الغرفة أريد أن تتخفى يا بني ولتكن على مقربة مني، فقلت: أمرك يا سيدي.

قليلٌ من الوقت وقد نفدت كل حيل أيوب في مماطلة عاصف وفتحت البوابة، لنجد عاصف يدخل إلى القصر برفقة جنوده الذين كانوا يجرون عربة كبيرة مغطاة تشبه قفص الأسرى، وما إن دخل إلى حديقة القصر إلا وأخذ ينادي: أيها العارف، أين أنت يا شيخ؟ ألن تستقبل ضيوفك؟ ولتحضر ولدك معك فأنا أريده، فقال: لي العارف

إياك أن تظهر، ونزل العارف إلى مجلسه أمام الحديقة، ووقف أعلى السلم المطل على الحديقة وقال: مرحبًا يا عاصف، لقد جئت مبكرًا عن موعد احتفالنا.

فقال: لقد قررت أن أكون أول من يهاديك يا سيدي، فلقد أعددت لك هدية مميزة تليق بالعارف القوي الذي قد استرد ملكه في وقت قياسي من ولده الطائش، لقد كنت دائمًا تدهشني أيها العارف حتى حين شابت أيامك، ما زلت تحمل داخلك ذلك العقل المدبر لكل شيء، فأنا أذكر جيدًا وقفتك في يوم حربنا الأولى من دون أن تحمل سيفًا في يديك، ولم ترتدِ درعًا، ولكنك كنت تتحكم في كل سيوف رجالك، ولقد كانوا هم درعك الذي لطالما حاولت أنا ورجالي اختراقه ولم نتمكن أبدًا من الوصول إليك، فلقد كانوا يضعون أجسادهم حتى يمنعوك منا، وظللت أتساءل طوال تلك السنوات، ماذا فعل لهم هذا الرجل حتى يفعلوا كل هذا لأجله؟ ولماذا لم أرَ من رجالي مثل ذلك؟!

فضحك العارف وقال: وأنت أيضًا ما زلت تدهشني بغبائك وعدم قدرتك على الفهم يا عاصف، فأنت أيضًا لم تتغير.

فغضب عاصف، ثم تابع العارف: هون عليك يا رجل، فإن كل ما أردت قوله أنك قد أهدرت وقتك في التفكير في سؤال خاطئ.

فقال عاصف: وكيف ذلك؟

فقال العارف: لم أكن أنا سبب ما فعله رجالي، ولم تكن العلة في شخصي؛ بل كانت فيهم هم، لقد كانت العلة في الرجال أنفسهم، وهذا لشيء يصعب على أمثالك فهمه.

فحاول أن يتمالك غضبه وقال: فلتعطِني آخر دروسك إذن أيها العارف.

فقال العارف: المقارنة لم تكن بيني وبينك يا عاصف، بل كانت بين رجالي ورجالك، فكيف تساوي من جاء ساعيًا إلى الخلود بمن جاء ساعيًا إلى الفناء؟!

فقال عاصف: لم أفهم!

فضحك العارف ثانية وقال: ألم أقل لك إن هذا صعب على أمثالك.

فكاد عاصف أن ينفجر غيظًا.

فقال العارف: لقد جئتمونا برجال يجهلون حقيقة أنفسهم، ومن أرسلهم إلى هذه الدنيا، ولماذا قد أرسلهم، وما هي تلك الحياة، ولذلك

كان أكبر همهم هو الدنيا، فكانوا يبحثون عن تجميلها بمالٍ أو سلطان أو فخر، وكانت كل هذه أشياء فانية لا تصلح لأن تكون دافعًا لأرواحهم.

وجئناكم برجالٍ قد بحثوا وعرفوا من هم، ومن قد أرسلهم، وقد عرفوا لماذا أرسلهم فعلموا حقيقة تلك الحياة فلم يعطوها أكبر من قدرها، ولم يهتموا بتزيينها لأنهم علموا أنهم مهما زينوها فهم تاركوها لا محالة، فلم تعلُ عن قدرها في أعينهم، ولقد جمعوا منها أفضل ما فيها ليرسلوه إلى دار خلودهم، فكانوا يعلمون كل شيء، فلطالما كان هذا هو الفرق بين رجالنا ورجالكم، إنما هو الفرق بين الوعي واللاوعي، بل هو بين العلم والجهل يا عاصف.

فضحك عاصف قائلًا: عن أي علم تتحدث يا شيخ؟ فلتنظر إلى حالكم جيدًا، ألم ترَ ما قد وصلنا إليه وما قد أصبحتم أنتم عليه؟!

فقال العارف: لقد كان هذا تقصير منا في علم الدنيا، ولكن هذا التقصير يمكننا تداركه يومًا ما إذا ما استعدنا وعينا، أما ما قد فاتكم أنتم أصبح جسرًا كبيرًا من الغرور والتكبر في نفوسكم تعجزون عن تخطيه، بل وحتى تقدمكم الذي تفخرون به، فلقد كانت قواعده الأساسية منا نحن، ولكنكم برعتم في تزييف الحقائق وإخفاء أصول الأشياء،

وسعيتم للاستحواذ على العلم وحجبه عن الآخرين، بل وتضليلهم بتصدير كل ما هو فاسد لديكم من الطباع والخصال إلينا، فكنتم تتلاعبون بأسماء أرذل الصفات لتتمكنوا من تصديرها إلى غيركم، تمامًا كما تفعل الشياطين حين يحولون من مسميات الآثام ليقنعوا بها البشر، فحولوا الشهوة إلى متعة، والخيانة إلى ذكاء، والسرقة إلى تجارة، ونسيتم فضل من سبقوكم من سائر بلاد الأرض، فلو كانوا فعلوا كما فعلتم حين كانت الدنيا تحت أقدامهم لما تمكنتم من معرفة شيء، ولكن من سبقوكم لم يحبسوا العلم، وكان جزاؤهم أنه قد سرق منهم، ولكن هذا لا ينفي عنهم الذنب والتقصير، إلا أن ما فعلتموه أنتم كان أحد العوامل، ولكن يومًا ما سيسترد ذلك الجانب من العالم وعيه، ويستعيد ما قد فقد، وسنرى ساعتها كيف سيكون حالكم.

هنا قال عاصف: ومن سيسمح لكم بأن تستعيدوا وعيكم هذا يا شيخ؟ فلتنظر إلى حال أبناء بلادكم جيدًا يا صديقي، هل يمكن لهؤلاء أن يعوا مرة ثانية؟ فلقد أصبحتم كالشياه في أيادي الرعاة.

فقال العارف: هذه هي الدنيا، فلتنظر إلى حال من سبقونا، فكم من أمم قبلنا علت في الأرض، ولكن أين هم الآن؟ قد تكون حفنة التراب

التي يفركها حذاؤك ما هي إلا بقايا جسد أعظم ملوك زمانه، ولكن هذا ما بقي منه يا عزيزي.

فقال عاصف: فلننتهِ من هذه الهرطقة ولنعد إلى هديتك يا صديقي، حين كنت جالسًا أتفقد حال شياهي، آه أقصد شعبكم، وجدت بعض الذكريات الجميلة لولدك، أو من تدعي أنه ولدك، فقررت أن نتشاركها سويًّا، وأشار إلى جنوده فكشوفوا عن قفص العربة ذلك الغطاء، فإذا بها دلال وصالح السرجاني، والرجلين اللذين قد أرشدا عابد إلى طريق القصر، وكانوا جميعهم مقيدين داخل القفص.

فبثث إلى العارف: يبدو أنه قد بحث في كل الذكريات التي يسحبها من عقول الشعب حتى عثر على صورتي مسجلة في أساورهم، وقبض عليهم وحققق معهم، ولربما أنه قد اكتشف الكثير من المعلومات عني يا سيدي.

فبث العارف: عاصف يا أيها اللعين، فليرحمنا الله منك.

فقال عاصف: ما بك يا شيخ؟ لماذا احمرَّ وجهك؟ هل كنت تظن يا شيخ أننا غير قادرين على محوك أنت وشعبك؟ بلى ولكننا قد بلينا في

أمتنا ببعض من الأغبياء من بني جلدتنا الذين قد صدقوا ما كنا نقوله عن حقوق البشر والمساواة وكل هذه الترهات، التي كان الهدف منها مجرد غسل أيدينا من دمائكم في كتب التاريخ، ولم نكن ندرك أننا سنجد في أبنائنا من يصدق هذه السخافات ويطالبنا بتنفيذها، بل ويضحون من أجل ذلك، فلقد صدق هؤلاء ما كنا ندعيه، ولذلك فلقد اضطررنا إلى صنع عالمٍ افتراضيٍّ لهم، وحرصنا على جعله مطابقًا لحياتهم، حتى يظنوا أنهم يحيون بتلك القيم حقًّا، ولكننا في حقيقة الأمر نديره بنفس الطريقة التي تعلمناها من أجدادنا، ولكن ببعض التجمل، إلا أنه وفي بعض الحالات قد يخرج أحدهم ليطل برأسه خارج عالمه الافتراضي ليرى الحقيقة ويعود ويصيح فيمن حوله فيصدع لنا رؤوسنا، ولقد كان هذا هو السبب الأعظم لإبقائكم على قيد الحياة إلى الآن.

بالإضافة إلى أننا كنا بحاجة لأن نجد من يعملون وينتجون لنا أشياءنا، فنحن نديركم وليس لدينا وقت لنضيعه في تلك الأعمال البدائية، ولهذا قد حرصنا على جعل عالمكم بدائيًّا مثلكم حتى لا تشعروا بالغربة فيه، أرأيت يا شيخ كم كنا رحيمين بكم؟ ولكنه لا مانع أيضًا من

استخدامكم في اختبارات تجاربنا، فأنتم أشبه المخلوقات بنا، وتصلحون لأن تكونوا محل اختبارتنا قبل أن نعتمد أحد تلك الاختراعات على شعوبنا النقية.

لقد قال هذا أمام جموع أهل المدينة الذين كانوا قد بدؤوا في التوافد إلى القصر، ولقد كانت تسجل أساورهم كل ما قاله، وحين لاحظ تواجدهم علت ضحكاته وقال: هل كان هذا كل ما لديك؟ أن تحضر لي هؤلاء الرعاع ظنًّا منك بأني أكترث بهم، مسكين أنت يا شيخ، لم تدرك إلى أي مدى نتحكم بكم، فلتنظر إلى ما سأفعله، فأنا على وشك بداية عرض ساحر اليوم، يمكنك أن تعتبره هديتي الثانية والأخيرة لك قبل أن أجعلهم يقتلوك هم بأيديهم دون تدخل مني أو من رجالي، وهنا استدار عاصف ووجه نظره إلى الجماهير وقال: سيداتي آنساتي سادتي، نقدم لكم اليوم فضيحة الشيخ عارف الكاذب وولده المزيف، وقصة انشقاقه المزيفة عن أبيه التي أراد بها تضليلكم وإفساد أجواء السلام التي ننعم بها سويًّا، ولكن هيهات فلطالما كانت لدينا شعوب واعية مثلكم قادرة على اكتشاف الحقائق وتمييز الحق من الباطل، فنحن نشعر دومًا

بالأمان، ولهذا تتشرف إدارة البث لدى حكومات الموصاركا ببث دلائل إدانة العارف على مسامعكم وأبصاركم الآن.

وأشار بيديه إلى أحد جنوده فأحضر قارورة ضخمة وأخرج دلال ومن معها من القفص وأخذ يعرض من أسوارهم مستخدمًا جدران القصر لاستقبال تلك المقاطع من ذاكرتهم، وما إن انتهى بثه لتلك الذكريات إلا وصاح الناس وصاروا يهينون الشيخ ثم قال: أين ولدك المزيف أيها العارف؟ وصار الناس يعيدون كل كلمة يقولها فيقول: انطق أيها الخائن، فيعيدون ما يقول ثم قال للشيخ: أرأيت؟! هم مجرد أوعية أضع فيها ما أشاء، فلتنظر معي، فلندع هاذين الرجلين مثلًا يتقاتلا، فبث إلى سواريهما شيئًا جعل الرجلين يقتتلان، ثم بث إليهما مرة أخرى بأن يهاجما الشيخ وبالفعل صعدا لفعل ذلك، فتصدى لهما أيوب وجنوده فقتلوا أحد الجنود فقال عاصف: أيوب القاتل، ودارت المعركة بين حراس العارف والشعب، وهنا أخذ العارف يصرخ بالناس ويحاول دفعهم، وكان الحارث يضع كل تركيزه على حماية العارف حتى تكاثر عليه الناس فطعنوه وأسقطوه أرضًا، وكان عاصف واقفًا يضحك ويشاهد ذلك هو وجنوده ويقول في سخرية: لا للدماء، لماذا يوجد

بداخلكم كل ذلك العنف؟ ما هذه الكراهية؟ أحبوا بعضكم، كفى كفى، ويضحك ساخرًا هو وجنوده، فخرجت سليمة وتبعتها إيرام من المعمل لينقذا الحارث، وحين رآهما عاصف قال: ها هي الأم العجوز قد ظهرت وبصحبتها الفاتنة إيرام، وتوجه ناحية العجوز فجذبها من يديها وأخذ يجرها إلى جوار كرسي العارف، وقد أحضر جنوده إيرام أيضًا، وجلس إلى الكرسي ثم قام ووضع سيفه فوق رقبة العارف وقال: لقد آن الأوان لكي أودعك يا صديقي وأنهي عرضي، ولكني كنت أرغب أولًا في أن أجعلك تشاهد هذا العرض، فهل أعجبك؟ وصار يضحك ويضحك، وحين استدار لينزل بسيفه على عنق العارف وجد الناس رأس عاصف تتدحرج أمامهم على السلم فساد الصمت والخوف، وتوقف القتال وفوجئ الناس بعابر يظهر بجانب جثة عاصف حاملًا سيفه المقطر بدماء عاصف، هنا ظهر على وجوه جنود الموصاركا الرعب والارتباك، وفي وسط ذهول الحاضرين وتساؤلهم عن ظهور عابر الغير المبرر صرخ العارف في أيوب: إنه يومك يا أيوب فلا تهدر الفرصة هنا، انطلق أيوب كالبرق يعصف بجنود الموصاركا وكأنه ملك الموت، وصار يصرخ في رجاله لقد أتاكم ما كنتم تنتظرون، فلتحصدوا ألم الآباء

والأمهات من صدور أعدائكم، إنه يوم حصادكم، وأخذ القتل يسري في جنود الموصاركا فكانت تطاير رؤوسهم واحدًا تلو الآخر إلى أن سيطر الحراس على القصر مرة ثانية، وكان أهل البلدة في أماكنهم منذ لحظة قطع رأس عاصف، وكأن توقف البث عنهم جعلهم كالأصنام يرون ويسمعون ولكنهم لا يظهر لهم أي رد فعل.

هنا أدركت أنهم لا يزالون تحت سيطرة الأساور على عقولهم التي شوشت لهم عقولهم، فهم يرون ما يحدث ولكنهم غير قادرين على التدخل أو فهم حقيقة الأمر، فرأيت أن الطريقة الوحيدة لتحريرهم من السوار هو السوار نفسه، ولهذا قد تحركت وأخذت خنجر العارف فذهبت إلى جثة عاصف فقطعت يده ثم نزعت منها من داخلها تلك القطعة المعدنية، ثم جرحت يدي ووضعت فيها القطعة المعدنية، ثم وضعت السوار في يديي فأخذ جسدي يهتز اهتزازًا شديدًا، ثم سقطت على الأرض وغبت عن الوعي للحظات ثم عدت محاولًا الوقوف، وكانت الدماء تقطر مني، ثم وجهت السوار إلى جموع الناس ورحت أكرر على مسامعهم هذ الكلمات: أنتم أحرار، لن يتحكم بكم أحدٌ بعد

اليوم، هكذا كنتم وهكذا ستعودون، استعيدوا وعيكم بأنفسكم، وانظروا إلى حقيقة ما قد حدث لكم، فهذه هي الحقيقة، ثم أوقفت العارف على قدميه وقلت له: فلتنقل إليَّ مشاهد موت آبائهم في يوم الحرب التي كانت تطاردك يا شيخ لأعرضها عليهم، دعهم يرون ما قد سلب منهم، أريدهم أن يروا كل شيء، فاحتضنت العارف وغرقنا غائبين في توحد ذكرياتنا، وما إن تمكنت من رؤية الأحداث إلا ووجهت يدي إلى قارورة العرض وبدأت في عرض أحداث حربهم الأولى مع الموصاركا، وكان الناس ينظرون فإذا بهم يرون الحرب كما كانت وكأنهم جزء منها فراح يصرخ كل من يرى أباه يقتل أو يضحي بنفسه من أجل العارف، وظللت أعرض صرخات أمهاتهم لتحفيزهم والأيدي والأرجل التي كانت تتطاير، ثم جاءت لحظة النصر أمامهم فكانوا كالمجانين من فرحتهم، ثم عرضت لهم حديث عاصف الذي تحدث به منذ قليل مع العارف فاشتعلوا غضبًا، ثم عرضت عليهم كيفية عمل السوار وبعض من ذكريات عاصف حين كان يشاهدهم وهو يغيبهم عن الوعي أثناء وضع القطع المعدنية، وهنا أوقفت البث ثم

أجلست العارف وقلت: إن حريتكم في أيديكم، وأمسكت بالخنجر في يدي وأخرجت به القطعة المعدنية من يديي أمام أعينهم، فعلت ذلك ونظرت لهم فكان أول من تحرك شاب قد أخرج خنجره وشق يده وانتزع السوار، ثم تلاه شابٌّ ثم فتاة، ثم انطلق الناس يجرحون أيديهم وينزعون عن أنفسهم قطعهم المعدنية وأساورهم، وظللت واقفًا أنتظر حتى نزع أغلب الحاضرين أساورهم ثم سقطت مغشيًّا عليَّ في وسط تهليل الناس وصياحهم وبكائهم، وكان آخر ما رأته عيني هو أن أيوب وبعض أهل القرية قد هرعوا إليَّ ليحملوني، ولقد غبت بعدها عن الوعي، ثم استيقظت بعد ذلك وكنت أفتح عيني في خوف، فوجدت رأسي ملقاة على حجر امرأة وكانت تغطي وجهي بوشاحها الأخضر، ولقد كانت تنبعث من هذا الوشاح رائحة لم أشتم مثلها من قبل، فأزلت الوشاح ورفعت رأسي لأجد أنها نور، فهممت لأصرخ فوضعت يديها على فمي وأخذت تهز رأسها مؤكدة لي أنها هي، فلقد كنت أخشى أن يتحرك جفني فتختفي من أمامي، ثم أخذت لحظات أتأملها حتى ارتويت من عينيها، ثم احتضنتها بعمق حتى كدت أن أغرق في جسدها

وكانت تضحك وكنت أبكي، فمسحت دموعي وقالت: انتظرتك كثيرًا يا عابد، فلم أستطع الحديث فضحكت، ثم قبلتني وأمسكت بيدي وأوقفتني لأرى ما حولي، فلقد كنت في كون غير الكون، لم تقع عيني على كون كهذا، ولم أسمع يومًا لحنًا كالذي سمعت.

ثم قلت: لكم افتقدتك يا نور!

فقالت: كان قلبك مغلقًا يا عابد، وكلما حاولت التسلل إليك كنت أجده جافًّا صلبًا فلا أتمكن من العبور، فأعود باكية، وحين يئست من قدرتي على التسلل إليه نظرت حولي لأبحث عن شخص يمكنني الوثوق به وائتمانه على رسالتي لك فلم أجد سوى أنس، فذهبت إليه وأبلغته رسالتي لكنك استغرقت وقتًا طويلًا، ولقد ظل قلبك مغلقًا جافًّا لسنين حتى شعرت ببعض اللين فيه، ولكنه لم يكُن كافيًا لمروري، ثم بحثت عنك لأجدك في عالم آخر، فبحثت عن ألين القلوب بهذا العالم فوجدت أنها كانت سليمة، فذهبت إليها وأبلغتها رسالتي وانتظرت حتى ذبحني الانتظار، ولقد كنت أنوي إرسال رسالة جديدة إلى إيرام لولا أنني وجدتك اليوم بحديقتي، هل هذه الحديقة الفاتنة لكِ؟

فضحكت ثم قالت: يا مسكين! أترى هذا الكون بشمسه وقمره وأنهاره وجباله وزهره وطيوره ونجومه وجميع كواكبه؟ فقلت: نعم ما أجمله! فقالت: ما هذا إلا أحد أكواني التي أمتلكها، فقلت: ماذا؟ فضحكت وقالت: لا تغَر يا حبيبي، فإن لدي ألف ألف كون، وكان هذا أصغرهم حجمًا، ولهذا قد تعجبت عندما جاءتني الطيور وحملتني إليك.

فقلت لها: إذن فلتبقني معكِ هنا، فقالت ليس بعد يا قرة العين، فأنت لا يزال أمامك بعض الوقت، فلتذهب يا عابد ولتعش كما لم تعش من قبل، ولتعوض ما فاتك فلقد أهدرت وقتًا طويلًا من عمرك القصير جدًّا، وما تبقى لك منه بالكاد يكفي لبناء مسكنك الأبدي، فأنا لا أريد زوجًا فقيرًا هنا، فلتجتهد لتبني لنفسك أكوانًا أكثر، فليس هنا من وقت ولا موت وأنا أنتظرك، ولا تنسَ حبيسة الأفق، المسكينة شريكتنا هنا وهناك، ولتحافظ على قلبك كما هو الآن، أو أكثر لينًا حتى أتمكن من رؤيتك ثانية، إلى اللقاء يا حبيبي.

فصرخت باكيًا متوسلًا: نور، نور لا تتركيني.

فقالت: ليس بعد يا حبيبي، لا تكن عجولًا وتذكر ما قد قلت لك عن الحبيسة المسكينة.

- عن أي حبيسة تتحدثين؟

فقالت مشيرة إلى الجهة الأخرى: تلك الجميلة هناك، فنظرت فإذا بها ساندرا، فناديت عليها ساندرا ساندرا فلم تجب.

فعدت بنظري إلى نور فخررت باكيًا: لا تتركيني يا نور.

فقالت: أنا بقربك يا حبيبي وأنتظرك هنا حتى تعود، ولكن لا تعد وحيدًا كما قلت لك، ولا تنسَ أن تحدث نور الصغيرة عني، وأرسل لها قبلاتي، إلى اللقاء يا حبيبي في بيتنا الأبدي، فأنا في انتظارك بكل الشوق.

وهنا فتحت عيني لأجد نفسي في فراش العارف وجميعهم حولي فصرخت: أين نور؟ نور!

فضحك العارف وقال: أين نور أم أين ساندرا؟ قد حيرتنا معك يا بني.

فضحكوا جميعًا وقال العارف: حمدًا لله على سلامتك يا بني.

فقلت: لقد رأيتها يا شيخ والله، رأيتها.

فقال العارف: أعلم يا بني، لقد كنت تروي كل شيء وأنت نائم وكأننا كنا معك جميعًا، ولقد كان يتكرر هذا طوال ثلاثة أيام على التوالي بنفس الحلم، حتى حين شعرت سليمة بالقلق عليك، وحاولت إيقاظك

فمنتعها وقلت لها: دعيه فإنه يروي ظمأ قد طال سنين عدة، ولكني أرجو ألا تنسى أباك العارف في كون صغير من أجلي أنا ونوري.

فضحكوا جميعًا مرة أخرى وقامت سليمة واحتضنتني وقالت: الحمد لله على سلامتك يا بني، لقد فطر قلبي عليكما أنت والحارث، فتذكرت الحارث فسألتها كيف هو؟ فقال العارف: الحمد لله لقد تعافى وهو بالغرفة المجاورة لك برفقة إيرام ترعاه حتى يستعيد قواه ليتمكن من قيادة جيشنا في حربه.

- ولكن ماذا حدث بعد أن سقطت؟

- قام الرجال بنقلكما أنت والحارث إلى هنا، وقد لازمتكما إيرام والسيدة سليمة، ووجهت أيوب ومعه أبناءنا من العلماء إلى التل ليتمكنوا من السيطرة عليه وتوجيهه لبث الحقائق لكل أهل البلدة والبلدان المجاورة ليحرورا أنفسهم كما فعلنا، ولكي ينضموا إلينا في حربنا ضد الموصاركا القادمة إلينا لا محالة، وشرعنا في إعادة تكوين جيشٍ من شباب بلدتنا بعد أن نتأكد من أنهم قد استعادوا وعيهم بالكامل، فلتنظر من شرفة القصر لترى بنفسك، فاستقمت وذهبنا إلى الشرفة لألقي نظرة فإذا بي أجد الناس في حركة ونشاط، كل منهم لديه

ما يشغله، وحين رأوني بالشرفة توقفوا جميعًا وهللوا فرحًا وشكرًا، وأشرت إليهم في فرحة بالغة، ولقد كانوا سعداء وكأنهم يتجهزون إلى رحلة صيدٍ لا لحرب شرسة تنتظرهم، فشرعت في ارتداء ملابسي فقال الشيخ: إلى أين؟

فقلت: لأنزل إليهم وأساعدهم، فقال: لا، فقلت: لِمَ؟ فقال: إن هذه حربنا نحن يا بني، ويجب علينا نحن أن نخوضها، أم إنك قد نسيت كلامك للشيخ حين قلت: لا يجب أن تنتظروا أن يأتيكم مخلص لينقذكم، بل يجب أن تعملوا، فلقد كنت محقًّا في هذا، وأنا لا أريدهم أن يركنوا إلى هذه الفكرة، فهذه حربنا نحن، أما أنت فلديك حربك الخاصة، ولقد فعلت الكثير لنا ويكفي ما قد فعلت يا بني، أما الآن فأنت يجب عليك العودة إلى عالمك لتصلح ما فاتك يا بني؛ لأن هذا هو عالمك وحقيقتك، أما نحن فلقد كنا لك درسًا لتعتبر به، وكنت أنت لنا رحمة من الله قد أرسلت لنا لتنقذ شعبنا من غفلته، أما الآن فيجب على كلا منا أن يخوض حربه الخاصة ويناضل من أجل انتصاره فيها.

- ولكني بحاجة إليك يا سيدي.

فقال العارف: صدقني يا بني لم تعد كذلك، فأنت لم تعد عابد الذي أتى إلينا؛ بل لقد أصبحت العابر يا بني، ولهذا لقد أعددت لك هدية ووضعتها في هذا الصندوق، ولكن لا يجب عليك أن تفتحه إلا في عالمك، ولتعلم يا بني أنك قد وضعت أقدامك على أول طريق العارفين، فلا تفقد خطاك ثانية، وإذا ما احتجت إلى نصحي فلتنظر إلى هديتي ستجدني معك أينما كنت، فاحتضنته وبكينا ثم قلت له: إلى اللقاء يا سيدي، فقال: إلى اللقاء يا بني، ولا تنسَ أن تعش بجدارة يا بني، فلتتمسك بكل لحظة في عالمك، فإن عالمك هو حقيقتك، وهذه الحقيقة أنت الوحيد القادر على خلقها، فلتجعلها سعيدة مشرقة، فقلت: أعدك يا سيدي، هنا دخلت سليمة وقالت: إلى أين؟ فقال العارف باكيًا: يجب أن يرحل عابر فإن لديه ما ينتظره، فبكت وقالت: أترحل هكذا دون أن تودع أمك؟!

فألقيت نفسي في أحضانها فقبلتني وقالت: فلترسل تلك القبلة إلى حفيدتي نور الصغيرة، ولتخبرها أنها من جدتها في عوالم أخرى.

❋ ❋ ❋

الفصل العاشر

(العودة إلى الحقيقة)

لقد ذكرتني سليمة بعمتي رقية، وشعرت بالحنين إليها حقًّا، فنظرت إليهم جميعًا نظرة أخيرة قبل وداعهم وأغمضت عيني لأعود ولأول مرة تفارقني أحاسيس الخوف والترقب التي كنت قد اعتدت على الشعور بها أثناء الولوج أو الخروج من أحد العوالم، بل لقد كنت مستمتعًا بكل شيء، بالأضواء والألوان وتلاحق الصور، متلهفًا لرؤية ساندرا لأروي لها كل التفاصيل، وتذكرت ساندرا وسرحت فيما قالته نور وكيف أنه يمكنني بث الطاقة لها لتعود إلى عالمها، ولكني تذكرت أنني لا أعرف عن قصتها أي شيء، فلقد كانت تستمع إليَّ دون أن أفكر ولو لمرة واحدة أن أستمع أنا لها، كم كنت أنانيًّا حقًّا، وكم كانت كريمة نقية وانتهت أحداث الخروج من العالم لأجد أنني قد قذف بي مرة أخرى إلى المنطقة الفاصلة لأجدها أمامي، فناديتها فرحًا: ساندرا، فرأتني وابتسمت وقالت: تأخرت كثيرًا هذه المرة حتى خشيت عليك يا عزيزي، ثم

نظرت إلى وجهي وقالت: عابد، إن طاقتك قد زادت بشدة، كيف فعلت هذا؟

فابتسمت لها وقلت: سأروي لكِ كل شيء، ولكنني أريد أن أعرف أنا أولًا كيف أتيتِ إلى هنا، وما هي قصتك؟ فلقد لاحظت أنني كنت دائمًا أروي لكِ ما يحدث لي ولم أفكر في أن أعرف ما قد حدث لكِ أنت، ولهذا فأنا لن أتحدث حتى أعرف عنك كل شيء، فقالت: ولكني أتحرق شوقا لمعرفة ما قد حدث لك.

فقلت: لن أتحدث بكلمة حتى أعرف عنكِ كل شيء، فقالت: حسنًا، لقد كانت حياتي سعيدة هادئة، وكان لدي كل ما يتمناه أي إنسان، فلقد تزوجت الرجل الذي أحببته طيلة عمري، ولقد رزقت بطفلين كانا كالملائكة (رامز ولين) وكنا نعيش حياة رائعة، فلقد كنا نعمل أنا وزوجي في نفس الشركة كمحاسبين، وكانت والدتي تعيش معنا، وكانت تهتم بالأولاد حتى أعود من عملي، وكانت الدنيا وكأنها قد خلقت لأجلنا فقط، فأنا لا أستطيع أن أقول لك أنني أتذكر يومًا قد تعرضت لشيء حزينٍ حقًّا في حياتي، فلقد كان كل شيء يمر في اتجاه

سعادتي باستثناء وفاة والدي، وحتى تلك الذكرى لم تكن بهذه القوة، ولقد كان كل ما تبقى لدي منها أن الموت يعني رحيل من نحبهم إلى عالم آخر، وكان هذا مفهومًا يناسب عقلية طفلة قد تلقته من والدتها في صغرها لا أكثر، ومرت بنا الأيام على هذا النحو ولم أكن أعرف أي شيء عن الخروج والعوالم وكل تلك الأشياء، إلى أن أتى هذا اليوم الذي أدارت لي الدنيا وجهها القبيح لأراه وكأنها تقول كفاكِ لعبًا، لقد كبرتِ ويجب أن أريكِ وجهي الحقيقي.

لقد كنت أنا وزوجي والأولاد ذاهبين إلى رحلة صيفية كنا نرتب لها طيلة العام، وقد رفضت أمي المجيء معنا وفضلت الانتظار في المنزل حتى عودتنا، كنا سعداء حقًّا في سيارتنا الجديدة التي قد اشتراها زوجي بنظام الأقساط من الشركة، وكان يتفاخر بها أمامنا ليريني مدى سرعتها مقارنة بسيارتنا القديمة، وكان الأولاد في غاية السعادة حتى صرخت فيهم مرعوبة حين رأيت تلك السيارة القادمة في الاتجاه المعاكس لنا وهي تخرج عن خط سيرها منحرفة في اتجاهنا، فحاول زوجي أن يتفاداها ولكن ما حدث هو أن سيارتنا كانت على سرعة عالية ففقد زوجي السيطرة عليها، فأخذت تطير بنا في الهواء، هنا توقف الوقت

وصرت أرى كل شيء يحدث ببطء، فلقد رأيت رأس زوجي وهي ترتطم بالزجاج الأمامي للسيارة، فحاولت حماية الأولاد إلا أنني لم أتمكن من تثبيتهم، فرأيتهم وهم يفقدون وعيهم إثر الكدمات التي تلاحقت بأجسادهم الصغيرة، ثم لم تستطع أن تكمل حديثها من البكاء ووجدت أن ملامحها قد ظهر عليها الإعياء الشديد فقلت: أنا آسف يا ساندرا، لم أرد تذكيرك ولكني فقط...

فقاطعتني وقالت: لا بل لقد كنت بحاجة إلى أن أتحدث أنا أيضًا يا عابد صدقني.

فقلت: ولكن يبدو على وجهك الإعياء، وكأنه قد انطفأ النور فيه.

فقالت لا عليك، يبدو أن جسدي يتداعى في عالمي الأصلي، ويحدث هذا أحيانًا، ثم تابعت قصتها قائلة: وظللت أرقب ما يحدث لهم حتى ارتطم رأسي بشيء فأفقدني الوعي للحظات، وحين عدت إلى وعيي مرة أخرى لم أكن في جسدي بل كنت خارجه، أنظر إلى جسدي الملقى على الأرض، ورأيت زوجي وقد شج الزجاج رأسه، والأولاد، لقد رأيت كل هذا يا عابد، رأيت كل شيء وبدأ الناس في إسعافنا ونقلنا إلى المشفى، وأنا أصرخ فيهم: أنا هنا، أنا هنا، ولكن لم يسمعني أحد،

وظللت هكذا حتى حدث وعدت إلى جسدي بالمشفى لبعض الوقت، فوجدت أمي إلى جوار سريري في غرفة المستشفى، وما إن تمكنت من فتح عيني حتى سألتها عن الأولاد وزوجي فلم تجب، وبكت فعلمت أنهم قد رحلوا كما رحل أبي، فلم أرد البقاء في هذا العالم بدونهم، ففقدت وعيي ثانية لأجد نفسي خارج جسدي مرة ثانية، ولكنني كنت هنا هذه المرة في المنطقة الفاصلة، ولقد رأيت أحد العابرين تمامًا كما حدث لك، فأعطاني قليلًا من المعلومات فقط ثم رحل.

فقمت بالولوج إلى أول عالم في سلسلتي فلم أجد أبنائي، فعدت ودخلت إلى الثاني والثالث فلم أجدهم في أي من العوالم التي قد زرتها، فقررت أن أبقى هنا حتى تفرغ طاقتي وتنتهي رحلتي لعلي ألتحق بهم في الجنة، ولكن قد طالت المدة التي بقيتها هنا ولا أعرف كيف حدث هذا، وبمرور الوقت ورؤية الناس وسماع أخبارهم فلقد أعدت التفكير مرارًا في كل شيء، فلقد كان لدي الوقت الكافي لمراجعة أدق تفاصيل حياتي وحياة كل من أراهم وإسعادهم حتى تغيرت مفاهيمي ونظرتي لكل شيء، ولكن ما الفائدة من كل هذا فلقد فات الأوان لفعل أي شيء وقد أصبحت حبيسة هنا ولا يمكنني المغادرة، فلقد أصبح الأمل الوحيد في

حريتي هو أن يفنى جسدي في عالمي الأصلي، حتى تتمكن روحي من مغادرة هذه المنطقة الفاصلة، وأنا أشعر بأن هذا قد اقترب، فإنني أشعر بالضعف الشديد في جسدي.

فقلت لها: لا يا ساندرا، فأنا يمكنني أن أمدك بالطاقة لأرفع لكِ طاقتكِ، فيمكنكِ حينها العودة إلى جسدك صدقيني، فقالت ماذا؟ فقلت لها: صدقيني يا ساندرا، فقط مدي يديكِ يا ساندرا.

فمدت يدها إلى يدي فأوثقتهما وأغمضت عيني وجعلت كل تركيزي في بث طاقتي إليها، وما هي إلا لحظات حتى شعرت ببرودة تسري في عروقي وكأن دمائي تسحب من جسدي، ففتحت عيني لأجد أن وجهها كان لا يزال شاحبًا ولم يحدث أي تغير فقالت: لم يعد هناك أمل يا عزيزي لقد قلت لك إن جسدي قد تداعى كليًّا، فصرخت بها في أي العوالم كنتِ: فقالت لمَ؟

فقلت: أجيبني رجاء، فقالت: كنت في نفس عالمك يا عابد. وفي أي مدينة كان ذلك المشفي، فقالت ماذا ستفعل؟ فقلت: لا تهدري الوقت أخبريني ما اسم ذلك المشفى، فقالت: المشفى العام بمدينة سانجا، فقلت لها: أعرفها، إذن أرجوكِ أن تتماسكي حتى أعود ساندرا أرجوكِ.

فقالت: حسنًا يا عابد، ولكن إن عدت فلم تجدني فأنا أرجوك أن تخبر أمي ألا تحزن وأخبرها بأنني سعيدة الآن، فقلت: بل ستخبرينها أنت بذلك حين أعيدك إليها، فلتتماسكي حتى أعود، وهممت إلى العودة إلى جسدي سريعًا لأفتح عيني فأجد نفسي في سرير بغرفة في أحد المستشفيات، وكانت إلى جانبي عمتي رقية راقدة على كرسيها تغط في النوم، فأخذت أنزع عن نفسي كل تلك الأنابيب والمحاليل، فشعرت بي فهمت لتتحدث، فقاطعت حديثها قائلًا: أنا بخير يا عمتي ولا تخافي، ولكني يجب أن أذهب حالًا إلى مشفى سانجا العام، فإن هناك شخصًا يجب عليَّ إنقاذه من الموت المحقق.

فحاولت الحديث فصرخت بها ليس لدي وقت يا عمتي، فلتطمئني عليَّ، أنا بخير، وهممت لفتح باب غرفتي ولكن جسدي كان متيبسًا فسقطت على الأرض، فقالت على رسلك يا بني فنحن هنا في مشفى سانجا العام يا بني، لقد أحضرتك إلى هنا لأن هذا هو المشفى الوحيد الذي قبل أن يضعك على أجهزة الضخ حين دخل جسدك في غيبوبة منذ أسبوعين، فقال الأطباء إنه لا أمل من عودتك، ولم تقبل أي من المستشفيات في رين وضعك، ولهذا قد جئت بك إلى هنا، فبكيت من

الفرحة وقلت لها: إذن فلتساعديني يا عمتي أرجوكِ، خذيني إلى الاستعلامات سريعًا، فقالت: فلتجلس على هذا الكرسي وأنا سأتحرك بك، فجلست وصارت عمتي تدفعني إلى مكتب الاستعلامات باكية من الفرح بعودتي، وكنت لا أقول سوى أسرعي يا عمتي، أسرعي، ولقد صرخت في أحد الأطباء وطاقمه الذين كانوا يدفعون سريرًا عليه أحد المرضى ليفسحوا لنا الطريق، فانفعلوا عليَّ وسبوني ولكني لم أهتم، حتى إذا وصلت إلى الموظفة بقسم الاستقبال فسألتها عن حالة امرأة في غيبوبة وتدعى السيدة ساندرا.

فقالت: نعم يا سيدي فلقد كانت هذه الحالة موضوعة على أجهزة الضخ، ولكنهم قد رفعوها من تلك الأجهزة بأمر من الطبيب وبموافقة والدتها، لأنها تجاوزت السنتين ولم يعد هناك أمل في عودتها، فصرخت فيها: متي رفعت؟ فقالت منذ دقائق، فقلت: وأين هي الآن؟ أخبريني، فقالت: لقد كانت هي تلك المريضة التي كان يجر سريرها الطبيب أمامك منذ ثوانٍ لينقلها إلى غرفة رقم سبعة هناك.

وأشارت إلى نهاية الرواق، هنا فزعت من على الكرسي وأخذت أدفع جسدي دفعًا وكنت أصرخ: أيها الطبيب انتظر أيها الطبيب، حتى

وصلت إلى غرفتها فوجدت أمها تبكي أمام الطبيب فقلت لهم: ضعوها، إنها ستعود، فقال الطبيب: ماذا؟

فقلت: افعل ذلك أرجوك، والله إنها ستعود.

هنا حضرت عمتي وقالت: إنه ولدي ولقد كان في مثل حالتها، ولقد عاد إليه وعيه الآن فقط، وهو يجزم بأنها ستعود، فصرخت في أمها باكيًا: والله إنها عائدة، ولكنها تحتاج إلى بعض الوقت، أرجوكم ولو ساعة واحدة فقط أرجوكم، صدقيني يا أم ساندرا، هنا بكت أمها للطبيب واسترحمته.

فقال: لا بأس، بل سوف أمنحكم ثلاث ساعات كاملة، حتى تتمكن الحالة الجديدة من الوصول إلى المشفى، ولكن إذا ما وصل المريض الآخر فسوف نقوم برفعها عن الأجهزة، فهو أيضًا له الحق في تلك الفرصة، هل اتفقنا؟ فشكرته على ذلك فتركوها على الجهاز وجلست إلى جوارها وقلت لعمتي: أغلقي الباب يا عمتي، ومددت يدي إلى يديها وقلت إياك أن ترحلي يا ساندار، وأغمضت عيني قليلًا من الوقت حتى بدأت أحداث الخروج، فوجدتها كما وعدتني منتظرة ولكنها كانت في حالة إعياء شديد، فقبضت على يديها ورحت أبث لها

طاقتي بكل قوة حتى خارت قواي وسقطت على الأرض، ففتحت عيني لأجد أن هالتها قد قبلت الطاقة هذه المرة، وتحولت حالتها فقالت: لقد فعلتها يا عابد، لقد فعلتها، فاستقمت في بطء وقلت لها: هيا بنا يا ساندرا، فلقد أهدرنا الكثير من أعمارنا ولم يبقَ لنا الكثير، فقالت نعم صدقت، وتشابكت أيدينا وأغمضنا أعيننا سويًّا وما كانت إلا لحظات لنستعِد وعيينا سويًّا في غرفتها بالمشفى. فتزاحمت عمتي وأمها على احتضاننا والبكاء حتى قالت لي: ولكن كيف عرفت أنه يمكنك بث الطاقة إليَّ يا عابد؟

فقلت لها: سيكون لدينا وقت كافٍ لإكمال حديثنا يا ساندرا.

* * *

هنا قرع أحدهم باب شقتي ففزع عابد وتوقف عن الحديث.

قلت لعابد: لحظة لأرى من بالباب، فخرجت إلى الصالة وقلت من؟

فقال الشيخ سعيد: إنه أنا يا بني، فقلت: وأنا أفتح باب الشقة له مرحبًا بك يا عم سعيد، أهلًا وسهلًا، تفضل.

فقال: لا داعي يا بني فقط أردت الاطمئنان عليك، فأنت جاري ولقد تركك أبوك كأمانة لدي، ولقد سررت كثيرًا حين رأيتك اليوم في صلاة الفجر بعد تلك الفترة من الانقطاع عن رؤيتك بالمسجد يا بني، فلم لم تنتظرني لنجلس سويًّا كما كنت تفعل سابقًا؟ أم إنك كبرت الآن ولم تعد بحاجة إلى نصائح عمك سعيد؟!

فقلت: لا أبدًا، أطال الله عمرك يا عم سعيد، ولكنني كان لدي زائر وكنت مهتمًّا باللحاق به، هذا الذي كان برفقتي في المسجد. فقال: ولكني كنت أتابعك جيدًا، ولقد كنت بمفردك، لا تكذب عليَّ يا بني وأخبرني، هل أغضبتك في شيء ما؟!

هنا شعرت بالريبة وبدا على وجهي التعجب والقلق فقال: عم سعيد: ما بك يا بني؟ هل هناك ما يزعجك؟ فقلت: لا لا شيء ولكن هل أنت متأكد من أنك لم ترَ أحدًا برفقتي حين خرجت من المسجد؟

فقال: نعم، لقد كنت أراقبك بعناية يا ولدي، فلقد سرت وحيدًا إلى أن دخلت إلى باب المنزل.

حقًّا إن الشيخ سعيد يمكنه رؤيتي حتى أصل إلى باب المنزل، لأن باب منزلنا يقع مباشرة أمام المسجد، ولكن....

فقلت: هل تذكر الرجل الذي صلى إلى جانبك مباشرة يا عم سعيد حين صليت بنا الفجر؟ فقال: ماذا؟....

وبدأت نظرات عم سعيد تتغير قليلًا ثم تابع: ولم قد يصلي أحد إلى جواري وقد كان كل من في المسجد لا يكملون صفًّا واحدًا؟ فأنا لم يكن يصلي إلى جانبي أي شخص يا بني.

هنا تأكدت أنني في ورطة فهممت في فتح باب الغرفة فلم أجد عابد، فلحقني عم سعيد وقال: ماذا حدث لك يا بني؟ ماذا بك؟ لقد أقلقتني عليك.

فقلت: لا شيء، صدقني أنا بحالة جيدة يا عم سعيد، ووقعت عيني على الشاي وحبات التمر التي كنت قد قدمتها إلى عابد وقد تناولها أمامي وأثنى عليها كثيرًا، فوجدتها كما هي لم تلمس، بل وكان كوب الشاي كما هو.

هنا ارتعد جسدي وقد لاحظ عم سعيد ذلك.

فقال: لا، إن حالتك هذه لا يمكن السكوت عنها أبدًا، فتظاهرت بأنني بحالة جيدة واعتذرت له وحاولت إنهاء لقائي معه بأسرع وسيلة،

وبالفعل قد رحل الرجل إلا أنه قد أصبح يراني كمختل علقيًّا، ولربما أنه سيأتيني بطيب نفسي في أي لحظة، وله الحق في ذلك.

عدت سريعًا إلى غرفتي بعد أن غادر عم سعيد لأبحث عن عابد فلم أجده، فبالرغم من خوفي مما حدث إلا أنني كنت أبحث عنه أملًا في إثبات صحتي النفسية لنفسي، ولكن ماذا عن كل تلك الأحداث التي قد سجلتها في دفتري؟ من أين أتت إذا لم يكن هناك عابد؟ ثم عاد إليَّ رعبي مرة أخرى مع عودة فكرة أنه لربما كان عابد هذا عفريتًا أو جنيًّا، ولكنني عايشته وأحببته وصدقته، ولقد كانت لديه كل الإجابات التي قد احتاجها عقلي ليطمئن له، وظللت في هذا الصراع حتى فاض بي الكيل ورحت أصرخ: أين أنت يا عابد؟ أين أنت؟ وانتظرت أن يظهر ثانية لكنه لم يظهر.

هنا دقت ساعتي لتعرب عن أنها الحادية عشرة صباحًا، ففزعت من دقاتها ولكنني تذكرت أنني يمكنني مكالمة نظيره في عالمي، فلربما قد ذهب إليه، فأحضرت الحاسوب وأخرجت هاتف الرجل واتصلت به وانتظرت أن ترفع السماعة.

ولكن هذا لم يحدث، بل ولقد فوجئت بهذه الرسالة الصوتية اللعينة: إن هذا الرقم غير موجود بالخدمة، تأكد من الرقم الصحيح وأعد المحاولة.

فصدمت ثم ذهبت إلى اسم الشركة التي يعمل بها وبحثت عن هاتفهم ووجدته واتصلت بهم، فردت عليَّ موظفة الاستقبال لديهم، فقلت: أنا أريد أن أتحدث إلى أحد موظفيكم ويدعى السيد عابد أنور هلال، فهو له رسالة وأنا أريد أن أحضرها له، فقالت الموظفة: لحظات يا سيدي، ثم عادت لتقول لي إنه ليس لديهم موظف بهذا الاسم، فقلت لها: أنا متأكد أنه لديكم، فقالت إذن لحظة يا سيدي سأقوم بتحويلك إلى شؤون العاملين لتتأكد منهم، فقلت: حسنًا وانتظرت حتى رد عليَّ صوت رخيم صارم: شؤون العاملين، كيف أتمكن من خدمتك؟ فقلت: أنا أريد التحدث إلى السيد عابد أنور هلال من فضلك.

فقال: لحظات، ثم عاد ليقول في حدة: لا يوجد لدينا موظف بهذا الاسم يا سيدي، وأغلق الخط.

هنا أخذت أسب وألعن كالمجنون وهويت أعصف بالهاتف من الغيظ وقذفت به فكسر زجاج النافذة، فارتميت على سريري وبكيت ولم

أكن أدري السبب الحقيقي لبكائي، هل لأنني خدعت أم لأنني أحتاجه وقد أحببته حقًّا؟! فوجدت نفسي أقول أين أنت يا عابد، فأنا بحاجة إليك يا صديقي.

هنا سمعته يقول: أنا هنا يا آدم لم أرحل.

فاستقمت في فزع رهيب فرأيت شيخًا عجوزًا ذا لحية بيضاء في غرفتي، فقلت في رعب يخنق صوتي: من أنت؟

فقال: ألم تميز صوتي يا بني؟ فلقد كان صوته يشبه صوت عابد، لكنه شيخ عجوز، فقلت في تردد: هل أنت عابد حقًّا؟

فقال: أنا هو يا آدم.

فقلت: ولكنك شيخ عجوز، ولقد كان عابد أأأ..

فقال: هذا أنا يا بني على حقيقتي.

هنا قد أطاحت تساؤلاتي بالخوف الذي داخلي وأصبحت لا أهتم إلا بمعرفة حقيقته وحسب، فقلت: أي حقيقة تقصد؟! لقد كنت تخدعني ولكن لمَ؟

فلم يجب.

فقلت: هل عليَّ أن أبدأ ثانية من نفس السؤال الساذج، من أنت؟

هنا قال: لم يكن هذا خطئي يا آدم، فهذه هي طبيعتكم أيها البشر.

فقلت: ماذا؟ طبيعتنا! إذن أنت لست إإ.

فقاطعني ليقذف بالكلمات التي لم أرغب أبدًا في سماعها ولكنه أطلقها كالبرق فقال: نعم يا آدم لست من البشر، بل من الجن، فأنا العابر يا بني.

فقلت: أي عابر؟

فقال: إن كنت ستظل على هذا النحو من الخوف والقلق فأنا لن أتمكن من الحديث إليك، فلمَ الخوف وأنا ما زلت نفس الجليس الذي قضيت معه ليلتك كاملة ولم تكن تخشاه، بل وأحببته على ما أظن، فلا داعي للخوف إذا كنت تريدنا أن نكمل ما قد بدأناه سويًّا.

فقلت: نكمل ماذا؟

فقال: نكمل ما قد جئت لأجله.

فقلت في خوف: ولم جئت إليَّ إذن؟

فقال: لأسدد دينًا قديمًا.

فقلت: أي دين؟ ثم قلت كالأبله: هل أنت جنيٌّ حقًّا؟

فضحك ثم قال: نعم يا بني أنا جني.

- فلماذا كذبت عليَّ وماذا كنت تريد مني؟ ولم جلست تروي لي كل تلك القصص الكاذبة إذن؟ قلت هذا وخنقتني العبرات فلم أقدر على كتمانها فانفجرت في البكاء وقلت: لقد صدقتك وعشقت حكايتك وتعلمت منها، وآمنت برحلتك التي خضتها، وكنت سعيدًا بأنني أخيرًا قد حصلت على ما كنت أبحث عنه، فلقد كنت أبحث دائمًا عن معلم ذي تجربة حقيقية يريني ما لم أرَه، ويجيبني على أسئلتي التي كانت تقودني للجنون والتيه في زمان أرفض كل ما فيه وأشعر بالإحباط مما فيه، لتأتي أنت وتدخلني معك إلى كل تلك العوالم والتجارب التي رأيت نفسي في معظم أشخاصها، وتأتي لي بعد كل ذلك لتخبرني بأنك كنت تخدعني، لمَ؟! ليتك لم تعد، ويا ليتني احتفظت بعابد الذي أحببته.

هنا اقترب مني وقال: أنا أشعر بك يا آدم، ولهذا قد ظهرت لك، وإن علمت حقيقة الأمر فلسوف تشكرني على صنيعي بدلًا من أن تتهمني بخداعك.

فقلت ولا يزال صوتي محشرجًا بدموعي: عن أي حقيقة تتحدث وقد كان كل شيء حدثتني عنه ليس إلا كذبًا؟!

فغضب وقال: ليس بكذب، بل كان يجب عليَّ فعل ذلك لأصل إلى عقلك.

فنظرت إليه في دهشة فقال: نعم يا بني، فمما تعلمته من خبرتي الطويلة مع البشر سواء كان في إغوائهم أو في نصحهم أن لكل منكم مدخلًا خاصًّا به، يناسب طبيعته وميوله، وإن أنا فعلت غير ذلك فلن أتمكن من الوصول إلى عقلك وقلبك مهما فعلت.

- وماذا كنت تريد مني أساسًا؟ لماذا كنت تحتاج أن تصل إلى عقلي أو قلبي، لماذا؟

- لأنجيك يا آدم.

فقلت: تنجيني! ممَّ؟

فقال: من نفسك، ومن الدنيا، ومن الشيطان يا بني.

فتهكمت قائلًا: جني يأتي لهدايتي، ما أغرب هذا! ومن قال لك إنني أحتاج إلى ذلك، فأنا سعيدٌ بما أنا فيه.

فقال: ترى من منا يكذب الآن، أنا أم أنت؟ ثم ولم لا، ولقد كانت هداية هذا الجني على يد بشري من قبل.

فقلت له: وكيف سأصدق أي شيء ستقوله بعد ذلك، كيف؟!

فقال: سأثبت لك كل كلمة، وسأخبرك ماذا كانت غايتي منذ البداية إذا أردت ذلك، ولكن لا داعي للخوف حتى تتمكن من سماعي والتفكير فيما أقول، فإن ما سأقوله قد يحمل في طياته ما قد يجعلك تشعر بالخوف حقًّا، ولكنها الحقيقة التي تريدها، فهل أنت مستعد لذلك أم لا؟

فقلت: ولِمَ لا؟! فبعد كل ما سمعت ماذا هناك لأخشى سماعه، هاتِ ما عندك يا سيد عابر، أليس هذا اسمك؟

فقال: نعم اسمي العابر، ولقد كانت حياة عابد في مدينة رين هي قصتي الحقيقية يا آدم فأنا لم أختلق كل تلك القصص، بل كل ما فعلته هو أنني قد أضفت إليها بعض التفاصيل لأمررها إلى قلبك لا أكثر.

فقلت: هل تعني أن عابد ونور كانت قصتك أنت؟!

فقال: نعم، ولكن مع اختلاف بسيط، هو أننا كنا في عالم الجن، عالمنا الذي هو في الحقيقة عالم موازٍ لعالمكم ويمكننا العبور إلى عالمكم ولكن هذا ليس بوقت شرح ذلك، فلتستمع إليَّ ولا تقاطعني، وحين أنتهي ستكون قد أدركت كل شيء.

فقلت في نفسي: مرة ثانية يتمكن من استمالتي والتأثير عليَّ! ولكن دعنا نستمع لما لديه، فلقد أصبحت في منتصف الطريق ولا رجعة.

فقال: كنت جنيًّا قويًّا جدًّا، ذا سلطان في عشيرتي، ولقد كنت كافرًا ولم أكن على يقين من وجود الله، بل ولقد كنت من كبراء أعوان إبليس المقربين إليه، ولقد كان هذا اللعين يكذب علينا ويضللنا طوال الوقت، ويمنينا بالأماني الزافة ويوهمنا بقدراته الفائقة، والتي قد اتضح لي زيفها وهوانه وضعفه حين ماتت زوجتي، فذهبت إليه أرجوه وأتوسل إليه أن يتدخل فلم يفعل شيئًا، وكانت هذه أولى لحظات شكي به، ولكني ظللت أتبعه خوفًا من سلطانه علينا، ومن سطوة جيوشه وأعوانه.

هنا لاحظ عابر في عيني الخوف والرهبة فذهب إلى المكتبة وأحضر لي المصحف وأعطاه لي وقال: فلتمسك به ليطمئن قلبك، لقد قلت لك لا تخف أرجوك.

فقلت: نعم نعم فأنا لست خائفًا، ولكن لا بأس من حمل المصحف، ولكن كلماتي بدت على النقيض تمامًا، وكأنني كنت أقول إنني خائف بشدة. المهم أنه قد تابع حديثه فقال: وبمرور الوقت قد صرت أحد أهم

القواد، وقد أصبح لي شأن عظيم لديه، ولذلك كنت أنا من أرسلني لإغواء السمعاني عالم الطبيعيات، هل تذكره؟!

فقلت: نعم أذكره، فقال: يجب عليك ألا تنساه أبدًا يا بني، فقلت: نعم أذكره أقسم لك، ولكن هل هذا يعني أن السمعاني وأحداث ذلك العالم كانت في عالمنا؟

فقال: نعم يا بني، ولكنها لم تكن بتلك التفاصيل، فلقد كنت أحاول اصطناع تفاصيل تناسب عقلك وتقرب الأحداث إليك، لتتمكن من إسقاطها على واقعك، ولكن دعني أكمل، كان ذلك في زمانكم تقريبًا في سنه أربعمائة هجريًّا، وكان إبليس يستخدم كل طاقته في تفريق من جمعهم الدين ووحد بينهم، لأنه أدرك أنه لن يقدر على إرجاع الناس للشرك والضلال مرة ثانية، إلا إذا استطاع التفريق بينهم، ولكن ما كان يخشاه إبليس في هذا الزمان حقًّا كان العلماء، فلقد كان يكرههم بشدة، ولهذا حين ظهر السمعاني ضاق صدر إبليس به، لأنه عاد ليذكر الناس بما قد عمل إبليس لقرون من الزمن لينسيهم إياه، وقد عاد هذا الرجل ليهدم كل ما قد فعلنا، فكان إبليس يرغب في إغواء الرجل، فطلبني

وأمرني بأن ألزم الرجل وبأن أعبر إلى عقله وأبث فيه العداوة والمشاحنة بينه وبين القاضي علام، ولقد كانت هذه هي أفضل مهاراتي، ولهذا لقد سميت بالعابر؛ لأنني أستطيع أن أعبر إلى رأس أي مخلوق وأبث بها ما أريد من وساوس وأحقاد، ولقد فعلت ذلك حقًّا، ولقد كنت أنا السبب في شجار علام والسمعاني الذي قد حدثتك عنه سابقًا، ولكن سرعان ما عاد السمعاني إلى رشده بأن تواضع لله فكسر كبر نفسه وأذلها، فلقد كنت أزين له أنه الرجل الفذ العبقري الذي لن يجود الزمان بمثله، فمن يكون علام هذا الدرويش الذي يأتي ليعدل على أقوالك وعلمك.

ولكنه قد هزمني حين هزم غروره وكبره وتواضع وقال في نفسه: لربما يكون علام على الحق، وما أنا إلا رجل قد أصيب وقد أخطئ، فلما فعل هذا وتصالح مع القاضي كان هذا يوم أن رأيت ضعف إبليس للمرة الثانية حيث نهرني إبليس وعذبني وجاء بنفسه محاولًا مع السمعاني فلم يفلح، فلقد رأيت الرجل وهو يصارع نفسه ويصارع ما نبثه في رأسه من أفكار مسممة، فلقد كان مصرًّا على الوقوف بنفسه عند حدها، ولقد تكررت محاولاتنا معه كثيرًا، وكنت مع كل إخفاق يحدث

لنا يزداد إعجابي بالرجل ويعلو قدره عندي، حتى حدث ذات يوم شيء غريب، فلقد حدثنا الرجل وكأنه يرانا أمامه فقال: والله يا أيها الخبيث لئن أتيتني بتلك الأفكار الخبيثة لتغويني لأقهرنك، وأنتِ يا نفسي الغرورة والله لأكسرنك لله، وفوجئنا به يذهب إلى القاضي علام ويقسم على الرجل بأن يجلس عند قدميه في مجلسه، وكان يدلك له قدميه مع العلم أنه كان يعرف قدر نفسه جيدًا، ولكنه أراد أن يكسرها، فلقد كان يعاقبنا على محاولة إغوائه، ولقد كان له حس غريب، فلقد كان يشعر بما نبثه له من أفكار فور عبورنا إلى عقله، فيسرع إلى الاستعاذة بالله منا، ثم يهرع إلى سجادته ليصلي ويتصدق، فما ذهب إليه شيطان إلا وعاد نادمًا آسفاً نكدًا، حتى كرهنا الذهاب إليه، وصرنا نتهرب من ذلك، حتى قال لي إبليس: فلتبتعد عن هذا الرجل فما يزيده قربنا منه إلا قربًا لله، وكان هذا آخر ما يريده إبليس، ولقد كاد الرجل أن يسحر الناس بأفعاله وصبره وتواضعه، فهذه كانت المرة الثالثة التي أرى فيها إبليس على حقيقته ضعيفًا واهنًا ذليلًا، فاتضح لي أنه كاذب ولا يقوى على شيء، فيسقط هذا الكيان الواهي أمام عيني، وهنا قررت أن أتقرب إلى هذا

الرجل، فاستمعت إلى دروسه للمساجين، وكنت أرى وقوفه ليلًا ودعاءه وضعفه واستكانته أمام الله، فلقد جعلني أتعجب من حبه لله، فلقد كان هذا الرجل القوي الذي قد تلاعب بنا جميعًا يتحول إلى طفلٍ باكٍ لا حيلة له حين يسجد.

فأعجبت به كثيرًا، وكان التحول الأعظم حين فكرت في تلك الأسئلة التي كان يوجهها للناس في كتابه، وصدمت بأنني لم أفكر بها مطلقًا، ولا أعلم لماذا لم أنتبه لها من قبل، بالرغم من بساطتها وسهولة منطقها، ولكنها كانت في غاية العمق، فلقد كانت تعيدك إلى نقطة البداية، ومن ثم تعيد لك ترتيب أولوياتك في تلك الحياة.

وبدأت في أن أسأل نفسي وأجيب سؤالًا تلو الآخر، حتى وجدت نفسي في يومٍ من الأيام أتجسد له في خلوته وأخبره بكل شيء، فلم يجزع مني ولم ينهرني، بل إنه سعد بي كثيرًا وبكى حتى غرقت لحيته، وحمد الله على نفاذ علمه لعالم الجن، ولقد سعينا سويًّا في تلك الرحلة، ولقد علمني كثيرًا من الأشياء، بل ولقد عملنا معًا ضد إبليس وأعوانه الذين قد سميتهم بالموصاركيين في حديثي معك، ولقد رويت له كيف كنت

أهلك البشر وكيف كنا نفعل بعقولهم، وكيف كنا نيئسهم من حياتهم ومن رحمة الله، فلطاما كان اليأس والتكبر هما أعظم ما يفرح إبليس.

ولقد وجهني لاستغلال قدراتي التي أعطاها الله لي في إرشاد الناس وأخواني من الجن لأنقذهم، ولكي أكفر عما فعلت، وبالفعل قد فعلت ذلك، ولقد بدأت في دعوة إخواني ولقد أكرمني الله بإيمان الكثيرين من عشيرتي، ولقد كونت بهم جيشًا من العارفين يعلمون إخواننا ويدعونهم إلى الإيمان، ولقد كان لدي أعوان يختبئون في عالم إبليس اللعين يتجسسون عليه، فإذا وجدناهم يهاجمون أحد أبناء البشر كنا نهرع لمساعدته قدر استطاعتنا، ولقد شرعت في تعلم العلم، فكان كلما ظهر عالم أرى فيه الخير أجلس إليه وأتعلم منه، فمنهم من قد تجسدت له، ومنهم من لم أتجسد له، ولقد عمرت في الحياة حتى صرت شيخًا كما ترى، وكما كان يتغير الزمن من حولنا كانت تتغير حيل إبليس، حتى جاء زمان قد فطن فيه البشر إلى أن معظم الشر يكمن في السحر والسحرة واتباع إبليس من البشر، ولقد قام الناس بذبح أي ساحر أو ساحرة أو مشعوذ، فجن جنون إبليس وقرر أن يجتمع بأعوانه، والذين

كان من بينهم أحد أتباعي الذي أخبرني أن إبليس قد جمعهم وقال: يبدو أننا يجب أن نتطور كما يتطور زماننا، ولهذا فلقد وجدت مما تراءى لي أن الزمن المقبل على البشرية سيكون زمنًا يلعب فيه العلم دورًا كبيرًا، ولهذا فنحن يجب أن نجد لأنفسنا مكانًا فيه، وسيحدث ذلك من خلال تغيير مسميات الأشياء وصبغها بلغة العلم، فبدلًا من أن نقول للناس إن هؤلاء سحرة فسوف نقول لهم إن هؤلاء معالجون روحانيون ويعلمون كثيرًا عن علوم الطاقة والنجوم والماورائيات، وكان يدس الحق بجانب الباطل فيلبس على الناس أمرهم، بل ولقد سعى لتكوين جيش من البشر يتبعونه وينفذون خططه، فلقد ساعدهم في جمع الأموال وأمرهم بتكوين جماعات يتمكنوا من خلالها بالسيطرة على البشر جميعًا، ولقد كان يأمرهم بضم المميزين من البشر في أي مجال ليصبحوا جزءًا من جماعته، وبذلك أصبح قادرًا على التدخل في كل شيء، فلقد أصبح يتدخل في كل علم، مثل الطبيعة والاقتصاد والطب وغيرها من العلوم، ولقد كان أهم شيء يريده هو أن ينفي عن أذهان الناس فكرة وجوده هو وأتباعه، بل ولكي يتمكن من هذا كان يسعى إلى تسفيه كل ما يشير إلى

حقيقة وجوده وتحويله إلى دربٍ من دروب الأساطير والخرافات، ولقد كان يبث إلى أتباعه الخيالات والأوهام التي يدمجها مع بعض الحقائق العلمية ليبعدهم عمَّا ذكره الله لهم ليلبس عليهم طريقهم، فضلل أغلبهم وأدخلهم إلى عوالم من التيه في نظريات وفرضيات لا نهاية لها، نظريات تدعم أفكاره في إبعاد الناس عن فكرة أن هناك خالقًا لهذا العالم، أو صانعًا له، ولقد كان يحاول تبرير ذلك على عقولهم بفرضيات متنطعة عن الصدفة في صنع الكون وبدء الحياة فيه، ولكي يطبق سيطرته على البشر ويجعلهم يقبلون بإبرام عقدهم معه فهو لم يذهب مباشرة إلى الإنسان فيقول: أنا الشيطان، تعالَ لتبعِ لي روحك، بالطبع لا؛ بل كانت أقوى حيلة كما قلت لك هو أن يقنع الناس بعدم وجوده أساسًا، أو بأنه ليس له دور فيما يفعل الناس، بل وإن مسألة الأديان هذه ليست إلا مجموعة من الأساطير والخرافات، فلتتمسكوا بالعلم الذي بين أيديكم ويمكنكم اختباره فقط، وحين يأتي هذا العلم ليكشف عن كذبه كان يلتف حول الحقائق ويعود للدجل بإنكار تلك الحقائق وإرجائها إلى المصادفة والطبيعة في حالة من الانتحار الفكري الرهيب، حتى تهاوى

كثير من الخلق إلى العدمية والمادية الرقيعة، ولقد كانوا يجدون مدخلًا مناسبًا لكل شخص كما قد بينت لك، في وصفي لحكومات الموصاركا في عالم العارف سابقًا، فإما أن تقبل بما يقول سادة هذه المجتمعات التي قد سيطر عليها، وإلا ستصبح منبوذًا في مجتمعٍ قد صار الضلال بالنسبة له هو التطور والتحضر، لتتحول إلى أحد أفراد القطيع حتى ترضي هذا المجتمع ويسمح لك بالعيش فيه، ولقد ذكر ذلك في كتاب الله،

(وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ)

ولقد كان كلما كشف الإنسان أحد حيله سعى لابتكار حيلة جديدة، لكن هدفه كان واحدًا دائمًا لم يتغير، فلقد احتفظ بعدائه منذ اللحظة الأولى لخلق البشر، ولقد رأيتك يا بني تسقط كما سقط كثير من الشباب المحبط الكاره لواقعه المليء بالظلم في دجله الجديد الذي قد ألبسه رداء العلم، والذي يدعى الخروج من الجسد، وفتح أعين البصر وهذه الأشياء، والتي ليس لها أي دليل من الصحة، ولكنهم يرمونها لك على

شكل علم فتتناولها سعيًا للاقتراب من معرفة الغيب، أو للهروب من واقعك بدلًا من أن تواجهه، وأن تحاول أن تتحدى هذا الواقع لتجعل لنفسك مكانًا فيه، ولكنها في الحقيقة ما هي إلا تلاعب الشياطين بك وبفكرك، فهم يهيؤون لك كل شيء ثم يضعونك على طريقٍ معينٍ لتمشيه، وبمرور الوقت لن تتمكن من التمييز بين عالمك الحقيقي وبين تلك الأوهام التي يوهمك بها حتى يفسد عقلك، وتفقد القدرة على التمييز، فيظهرون لك على أنهم قادة روحانيون، أو مخلوقات نورانية، أو حتى ملائكة ليساعدوك، لأنك إنسان مميز ولست كباقي البشر، وهنا يأتي دورهم في جعلك تعتمد عليهم وتشعر بقوتهم، ثم يغرونك بقوة أكبر ومتعة أكبر وأسرار أكثر ستكشف لك، ويجرونك دون أن تشعر إلى الكفر، بل وإلى عبادتهم من دون الله للتقرب إليهم، ولا يقولون لك إنهم شياطين؛ بل هم قوى عليا، وطاقة إيجابية، ومرشدون روحانيون، وما هذا كله إلا طريقك إلى الهلاك، ولقد ذكر هذا أيضًا في كتاب الله:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم

مُّؤۡمِنُونَ * فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ).

وهناك فارق كبير يا بني بين ما يحدث للإنسان من كشفٍ إلهيٍّ يرسله الله لك ليبشرك أو ليعظك، وبين ما يحاولون جركم إليه، فهذا الكشف لايستجلب يا بني، بل يعطى ويمنح.

ولكن لعلم إبليس اللعين أيضًا بأن نفوسنا قد خلقت بحاجة إلى ذلك السلام الروحي، والذي يوجد في تعمق علاقة الإنسان بربه، فلقد كانت هذ الوسائل كالمخدر الروحاني لتلك الأرواح الغير مؤمنة، لتخدر بها ذلك الاحتياج الملح للسلام النفسي النابع من الإيمان العميق، لاستبداله لهم بتلك الخرافات والإيحاءات التي راح يزينها لهم في شكل تواصل مع الكون وطاقته الكامنة، وما كان كل ذلك إلا محض تشويش على تلك الأنفس ليس أكثر، وكنت أتعجب يا بني حين أرى بعضًا من المؤمنين يتحدثون عن جذب الأحداث من الكون وتلك الترهات التي لم تكن إلا صدًّا لهم عن الدعاء، أفيترك إلهًا يقول لك متى احتجتني فلتقف بن يدي متى شئت ولتطلب كما تريد، إلهًا قد رفع حدود العلاقة بينك وبينه إلى اللاحدود، بل أعطاك أنت السلطة لتضع الحد لمستوى

تلك العلاقة بينك وبينه فقال لك أنه عند ظنك به فلتظن به ما تشاء، فلقد جعل وضع سقف لعلاقته بك في يديك أنت، وجعلها بينك وبينه في منتهى الخصوصية، أفيترك كل هذا ويذهب الإنسان ليتحدث إلى الجماد في الكون ويبحث عن أوهامه بجذب أحلامه من طاقة الكون، لقد كان هذا منتهى العبث والاستخفاف بعقل الإنسان الذي استخلفه الله على ملك الأرض.

ولهذا فلقد كانت بدايتي معك يا بني بما كنت أعرف أنك مغرم به حتى تستمع إليَّ وتتعلق بما أقوله، حتى إذا ما صارحتك بحقيقته أيقظتك من ذلك، لقد كنت على علم بمحاولاتك في هذا المجال يا ولدي، ولكن من فضل الله عليك أن كان دعوات والديك هي ما قد حفظك من الوقوع تحت تأثيرهم كل تلك الفترة السابقة، فلقد كان أبوك صالحًا، ولقد دعا الله لك كثيرًا، وإكرامًا لآبائك يا بني، قيد الله لك من يحرسك من ولوجهم إلى عقلك بالكلية، فلم يتمكنوا من السيطرة الكاملة عليك، فلقد كان يزعجك أنك لم تستطع تنفيذ الخروج، بل هو نعمة من الله قد حفظك بها يا بني، وحتى تلك الرؤى التي كنت تراها فلقد كانت بشارات من ربك ولطفًا منه بك، وهي ليست قوة يمكنك

اكتسابها أو الإكثار منها، إنما هو كرم رب العالمين يؤتيه من يشاء يا بني، فلا تدعهم يغرونك ويفعلون بك كما كانوا يفعلون بعباد الله وأتباعهم، وصمت قليلًا ثم بكى وتأوه.

فقلت: ما يبكيك يا عابر؟

فقال: حملي الثقيل الذي أحمله على ظهري يا بني، فلكم أضللت من عباد الله! وكنت أبتكر لهم الحيل لأرضي اللعين وأشبع نفسي غرورًا وكبرًا وتابع يبكي حتى أبكاني بكاءه فقال: أتدري يا بني حين كان ينعم الله على أحد العارفين بالعلم ومحبة الناس كنت لا أيأس من إغوائه، وإن عجزت عنه كنت أذهب إلى مريديه فأجعلهم يقدسونه ويغالون في رفعته فيهلكوا هم ويفتن هو بهم، فلقد كنت أعلم أن فتنة أبناء البشر بنظرائهم من البشر أقوى مما يمكننا فعله لهم نحن، فلكم أهلكت علماء، ولكم ضللت مريدين كانوا يريدون لله فحولتهم إلى مريدين للشرك، ولكم دلسنا على عارفين، فلقد كان أكبر أهدافنا أن لا يجد الإنسان من حوله من يستطيع أن يقتدي به، ليظل هكذا وحيدًا مع أفكاره، ولهذا كنا نحاول إشاعة الأخبار الكاذبة عن العلماء لنسقطهم من أعين العامة ليكونوا صيدًا سهلا لنا تمامًا كما حدث لك، فلقد كنت قريبًا جدًّا يا بني، إن جيلًا بلا قدوة أو معلمين لهو جيل يخطو إلى الهلاك، ولكم فتنا

عابدين بسطاء، إنني أحمل حملًا ثقيلًا يا ولدي أسأل الله أن يعفو عني وإلا هلكت.

فقلت له: ولكن هذا كثيرًا ومبالغ فيه، لا أعتقد أن لإبليس وجنوده هذه التأثير يا عابر.

فقال: لقد تملكوا كثيرًا من البشر في تلك الحقبة من الزمان، وأصبحوا يسيطرون من خلالهم على غالبية العالم، فأصبح الشيطان ذا سلطة كبيرة، خصوصًا في أعين من لا يعلمون حقيقة وجود الجن والسحر وينكرونها بالكلية، فهم فريسة سهلة لإبليس، حيث إنهم لا يجدون تفسيرًا لعلمه ولعلم بعض رجاله ببعض أمور الغيب، والتي هي ليست غيبًا بالنسبة للجن، ولكن لجهلهم بذلك يظنون أنه مطلق القدرة، فلقد كانت هذه هي نفس الطريقة التي كان يسيطر بها علينا معشر الجن، ولهذا قد تجد أناسًا يحملون علمًا كبيرًا من علوم الدنيا في فرع من الفروع، ولكنهم يجهلون ما أخبر الله به المؤمنين فتعجز عقولهم عن تفسير أغلب الظواهر التي تحيط بهم، في حين يرى المؤمنون ذلك بمنتهى الوضوح لمعرفتهم ويقينهم بما أخبرهم به الله، هنا تفهم معنى وقيمة الإيمان، فلقد كان إيمانك وتصديقك هو سبيلك للتحرر من عبودية أولئك الشياطين، فعبوديتك للخالق تحررك من كل عبدوية

لغيره يا بني، فمن بحث عن الله بصدق يا بني سيرى الحق، وأما من عاند وكابر فلقد أهدر عمره في تيه من بعده تيه.

ولما رأيتك يا ولدي تسلك هذا الطريق المهلك أسرعت إليك مستخدمًا كل قدراتي لصنع جسر يناسب عقلك حتى أتمكن من دعوتك وهدايتك، فلئن جئتك منذ البداية وأخبرتك بأني ناصحك فاتبعني فلن تستجيب، فأنا أعرف طبيعتكم جيدًا وكما قال لي السمعاني

بما أن الشيطان قد قال:

(قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ).

ولقد كنت أحد جنوده يا عابر، فلتكفر عن ذلك ولتقعدن لهم أنت ومن معك صراط الشيطان الرجيم، ولتنقذوهم من كل جانب كما أغويتموهم من كل جانب، ولتفعلوا على قدر ما تستطيعون، فلتقعدوا للزاني ولتردوه عن باب الزنا، ولتذهبوا للسكير عند باب حانته، ولتخرجوا البغي من سرير بغائها، فهكذا تدعون إلى الله كما دعوتم للشيطان سابقًا، وليس هذا لكم فقط؛ بل إنه على الداعي لأي شيء أن يبسط دعوته ويقدمها على النحو الذي يناسب عقلية من يريد أن يدعوه

ليتمكن من جذب اهتمامه، ولكي يتمكن من الوصول إلى فؤاده، ولأنه لا مزيد من الرسل فلقد أصبح على كل من يحمل ذلك العلم أن يكون رسولًا، ولينبئ به غيره، فهذا هو ثمن وصول ذلك العلم إليك.

ولقد كان هذا ما فعلته معك، ولقد كنت مع كل قصة أرويها لك أدع لك شيئًا لتراه، وأبث لك رسالة لتصلك، فالبشر يفهمون بهذه الطريقة أسرع من النصح المباشر، ولقد كان هذا ما فعلت، فلقد جمعت لك أفضل العبر من خلال تجاربي وعمري وأعطيتها لك على أنها عوالم مختلفة لكي تصل إليك من الباب القريب إلى قلبك، بل ولقد تسللت إلى ألمك وقاسمتك فيه لأخرجك منه، فلم أكتفِ بإرسال النصائح وتركك، ثم إنني كنت أنوي حين أنتهي من ذلك وأتأكد من أنك قد تسلمت تلك الرسائل بأن أصارحك بكل شيء، ولكن بعد أن أتأكد من تحصيلك للقدر الذي لا غنى عنه من العلم، وهو القدر الذي لا يسع الإنسان جهله من العلم، هل تفهمني يا بني؟

فقلت: لا.

فقال: أي إنه قد يمكنك أن تجهل بعضًا من علوم الدنيا فلا بأس في ذلك، ويمكنك النجاة، ولكن هناك قدرًا من العلم لا يمكنك أن تنجوا

بدونه في هذه الحرب مع إبليس، وهذا القدر يسمى حد الكفاية من العلم الذي يمنعك من تلاعب الشياطين بك، وقد يسميه البعض الإيمان، ولكن ما يهم أن تعرف تلك الأوليات التي تمنعك من السقوط إلى الهاوية، فلكم رأيت أناسًا يسجدون لإبليس لجهلهم بهذا القدر من الحقائق، حين كان يخدعهم بأنه يعرف كل شيء، وبأنه يملك مفاتيح الدنيا، فينقادون له لأنهم يفقدون هذا القدر من العلم بحقيقة الأمور، والذي يصعب بل يستحيل على أذكى العقول الوصول إليه بقدرات البشر المحدودة، وبمثل هذا العمر القصير الذي قد منح لهم، حتى لقد تدخل في مسائل مثل بداية الكون والروح والوعي، فإن هذه الأشياء إذا ما ابتعدنا فيها عن التصور الإلهي بوجود خالق أو صانع، فهي سوف تتحول إلى متاهات وغياهب تفنى بها أعمار من يبحثون بها دون جدوى، ولقد كان الله ولا يزال يرسل لهم الإشارات على وجوده، لكنهم يجحدونها، فعلى سبيل المثال لا يمكنك أن تجد من الناس من لم يرَ ولو لمرة في حياته أو سمع من أحد المقربين إليه أن أحدهم قد رأى رؤيا تخبره عن شيء ما سيحدث له في مستقبله، ولم تكن لديه أي معلومات مسبقة لتساعده على تخمين تلك النتائج، ومع ذلك فلقد تتحقق هذه الرؤيا، إن هذه لواحدة من المسائل التي تربك هؤلاء المكابرين، فكيف لك من

دون أي مقدمات تحليلية متوفرة لديك من تخمين أحداث تحدث في المستقبل بمنتهى الدقة بل، وفي غالب الأحيان قد تأتيك هذه الرؤى مرموزة بحيث لا يدرك الرائي معنى الرمز إلا بعد العودة إلى أصول التفسير، فيترجم تلك الرسالة المشفرة إمعانًا في إثبات أنها من خارج تحليلاته العقلية، فلو كنت تعلم معنى الرموز فلربما وجدت سبيلًا لتقول أنه درب من التوقع، ولكنها وبوجود تلك الرموز قد نفت أي احتمالات كهذه، وقد تأتي الرؤى أحيانًا غير مرموزة ومباشرة، ولكن في حالة متناهية البعد عن عالمك وعما يتوفر لديك من معلومات ليدل هذا على أنه هناك مرسل لهذه الرسائل يمتلك المعرفة، بل ويمتلك كل شيء، يريد أن يقيم الحجة على عقولنا بهذه الرؤيا ليقول لنا: أنا هنا وأشهدكم على أنفسكم بأن أفتح لكم ما لا تقدر عقولكم على تخيله، لتعلموا أنه ما هناك من شيء إلا وأملكه، فلا تعاندوا ولا تبتعدوا.

ولقد نويت أن أقودك في هذه الرحلة لنكتشف كل هذه الأشياء سويًّا لولا مجيء سعيد جاركم الذي قد أربكني.

آدم: هل كنت تعتقد حقًّا أنه بمجرد أن تروي لي قصصك هذه فأنا يجب عليَّ أن أغير من أفكاري التي قد اكتسبتها من خلال تجاربي الشخصية لمجرد كلمات قد ألقيت بها إليَّ؟!

- مجرد كلمات! يبدو أنك لا تدرك قيمة الكلمات يا بني، فإن كلمة قد تحيي وقد تميت، إن هذه الكلمات التي حولتني من عفريتٍ ومخلوقٍ غريبٍ ترتعد منه، إلى صديق مقربٍ، وقد كنت تبكي لتراه مرة أخرى، إن الكلمات هي وسيلتنا لنقل الخبرات وتبادلها، وهي وسيلتنا لتلاقي أرواحنا يا بني، فلتتنحَّ عن الكبرياء يا عزيزي ولتدعني أكمل لك فلقد رأيت على مدار عمري كيف كانت كلمات من إبليس لها القدرة على تدمير أعتى عقول بشرية، ورأيت أيضًا كيف كانت بعض كلمات قد كونت بضع أسئلة للسمعاني قد غيرت مجرى حياة كثير من البشر، لم يكن السمعاني رجل دين يا بني، ولكنه قد فعل ما هو قادر عليه حين أوجد وسيلة لتذكير الناس وإرجاعهم إلى طريقهم أو تصحيحه، وكان حين يصل بك إلى إدراك حقيقتك وماذا تريد وماذا يجب عليك فعله للحصول على ما تريد، فحينها كان يتركك لتكمل طريقك، فلقد كان يقول إن دوره أن يعيدك إلى الطريق ويذكرك به ثم ينتهي، ويأتي دور آخرين في قيادتك لما تريد، ويأتي دورك أنت في السعي إلى تحقيق ما تريد والصبر على ما ستواجهه في ذلك.

فلقد كنت أدعوك إلى إيقاظك من المصير الذي كنت تجر إليه، والذي كان بالضرورة سيقودك للشعور بالظلم ثم سيدفعك الشيطان دفعًا للوم

كل من حولك، بل حتى للوم أقرب الناس إليك لكي لا تلوم نفسك، بل وسيكمل معك دوره بأن يجعلك تصل إلى أن تشعر بأن الله قد ظلمك، وهنا حيث تكون قد أصبحت ملكًا له فيصبح الكفر بديهيًّا ولقد حاولت إنقاذك من كل هذا، فلماذا تلومني؟

فقلت: ولماذا أنا بالتحديد يا عابر؟

ستعرف الإجابة حين تعرف حقيقة إرثك وحجم ما قد تركه لك أجدادك، وداعًا يا آدم.

فقلت: لا ترحل يا عابر أرجوك، فلتبقَ معي فأنا ما زلت أريد معرفة الكثير، ولا تغضب مني فلقد كنت حزينًا لفقدي عوالمك التي قد ارتبطت بها وأحببتها كثيرًا، ولكنك تعلم أني بحاجة إليك وإلى معرفة المزيد، أريد أن أعرف حقيقتي وأن أكتشف عالمي، وأن أجد سعادتي، ولقد كنت أتمنى أن أجد من يساعدني في ذلك، وأخيرًا حصلت عليك فلا ترحل رجاء.

فقال عابر: إذن فلنبدأ بأن تكتشف نفسك.

فقلت: كيف؟

فقال: بأن تجيب على تلك الأسئلة التي ستجدها في كتاب الوقفة والمسار، الذي ستجده في كتب أبيك المخزنة في الغرفة الكبرى.

فقلت: ماذا؟

فقال: فلتجب عنها سؤالًا سؤالًا، وحين تنتهي منها ستجدني أمامك لنكمل ما قد بدأناه يا بني، ولا تنسَ أن تبحث عن حقيقة إرثك يا بني واختفى من أمامي.

فصرخت: عابر، انتظر، أين الأسئلة؟ عابر!

فإذا به يقول فلتسجل ما سأمليه عليك:

السؤال الأول:

من أنت؟

أجب.

السؤال الثاني:

كيف أتيت إلى هذا العالم؟

أجب.

السؤال الثالث؟

هل هناك من أتى بك إلى هنا أم أتيت برغبتك؟

السؤال الرابع؟

وإذا ما كان قد أحضرك أحد إلى هنا فمن هو وماذا يريد منك؟

السؤال الخامس؟

وإذا كانت الأشياء تصنع أمامك لأهداف، فما كان الهدف من صنعك؟

السؤال السادس؟

لكل منا سعادة، هل تعرف أين سعادتك؟

السؤال السابع؟

وإذا كنت لا تعرف فهل بحثت عنها حتى تجدها؟

السؤال الثامن؟

وبعد أن وجدتها هل أنت حقًّا تسعى لتحقيقها أم إنك قد اكتفيت بتمنيها؟

السؤال التاسع؟

هل أنت تفعل ما قد صنعت لأجله حقًّا؟ أم إنك من الغافلين؟

السؤال العاشر؟

هل ترغب في خوض تلك التجربة أم لا؟ بأن نخلق من جديد سويًّا ونعيد اكتشاف كل ما حولنا ولترسم عالمك بيديك؟

أنا أنتظر إجابتك يا آدم فلا تتأخر عليَّ يا بقايا الأحباب.

تركني ورحل مع تلك الأسئلة ولا أدري ماذا عليَّ أنا أفعل، وهل كنت أحلم أم ماذا؟ هل حدث كل هذا حقًّا؟! ثم تذكرت الكتاب فأسرعت كالمجنون إلى غرفة أبي وأسقطت حقيبة الكتب من على سطح خزينة الملابس فسقطت جميعها على الأرض ليكشف لي عن نفسه كتاب قديم بغلاف أحمر داكن اللون قد كتب عنوانه باللون الذهبي

(الوقفة والمسار)

في الصفحة الأولى..

(إهداء)

النسخة الأولى من كتابي والتي قد نسختها بيدي ليحتفظ بها أبنائي، فإن ما تركه لنا الأنبياء لم يكن مالًا؛ إنما ورثونا علمهم وتجاربهم لتقودنا في حياتنا، وها أنا العبد الفقير أقتدي بهم وأترك لكم إرثي مما تعلمت في حياتي، لكي تبدؤوا من حيث انتهى من سبقكم كي نستفيد من تراكم تجاربنا، علكم يا أبنائي تصلون إلى ما لم أستطع الوصول إليه، ولقد وضعت به خلاصة ما تحصلت عليه من إرث الأنبياء والعارفين، نفعني الله وإياكم به.

السمعاني....

هنا أخذ يتردد في أذنيَّ كلام عابر وكأنه يتحدث إليَّ ثانية: اعرف حقيقة أجدادك وإرثهم، ولقد كانت الأتربة المتصاعدة من كومة الكتب قد منعت عني التنفس فتوجهت إلى النافذة وجلست أتأمل فيما حدث وأعيد التفكير فيه، وإذا بعيني تقع على مبنى دار المحفوظات أمامي، وإذا بالفكرة تقفز من رأسي، ولم لا؟ وبالفعل ذهبت وتقدمت بطلب لمعرفة سلالة عائلتي، وحصلت عليه، فإذا بي أجده في آخر السلالة، إنه جدي الأكبر السمعاني.

هنا سمعت صوت عابر يقول: كان هذا دين جدك ووفائي له يا ولدي.

(تمت بحمد الله)



عزيزي القارئ إذا أردت الانضمام، إلى عالم العارفين وليصلك رد العابر فما عليك إلا الإجابة عن العشرة أسئلة وإرسالها إلينا على العناوين الآتية، لتصبح جزءًا من عالمنا.

https://www.facebook.com/pg/MUHAMMAD.RAHMA1984/about/?ref=page_internal



شكر

من كرم الله على الإنسان أن ينبت له شجيرات الصحبة الصالحة لتعينه إذا أنهك، ولتظله إذا ما اشتدت حرارة الصعاب، ولتعطيه من ثمارها ليقوى على إكمال الطريق، ولقد أكرمني الله بكثير من الطيبين من حولي، الذين لا يحصى فضلهم عليَّ، ولهذا رأيت أنه من واجبي أن أقدم لهم الشكر على جميل صنعهم، ونسأل الله أن يجزل لهم العطاء على نقاء القلوب وطيب الصحبة، فوالله إنا نعجز عن مجازاتهم على جميل صنعهم معنا، ولكن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا....

أتوجه بالشكر إلى المهندس/ **عادل الجبر** المدير العام لشركتنا، والأخ الأكبر الذي ضرب لي أعظم الأمثلة على التواضع والتفهم، والذي قد تعلمت منه ومن إدارته الكثير.

وأشكر أصدقائي الأحباء الذين لم يبخلوا بنصائح أو دعم أو تشجيع، وكانوا مهتمين بمتابعة العمل حتى نهايته، مما شجعني على إكماله، ولولا وجودهم ربما ما كنت لأكمل هذا العمل.

أخي الأكبر الأستاذ/ **محسن السيد رحمه**، وأخي المهندس/ **إمام السيد رحمه**، والأستاذ/ حافظ عبد الواحد.

وصديقي وأول قارئ لأعمالي وأول من دعمني في هذا المجال المهندس/ **شافعي جاد**، وصديقي وأخي الدكتور/ **أحمد الصياد**، وأخي الأصغر الذي كنت أزعجه يوميًّا المهندس/ **يوسف البنا**، وأخي الحبيب الأستاذ/ وليد عشري، وصديقي العزيز جدًّا المهندس/ **محمد سعيد**، وأخي الأستاذ/ **فتوح فرج رايا**، والأخ الأكبر الأستاذ/ **خالد عبد التواب**.

وأطيب القلوب على الإطلاق الأستاذ/ **ياسر فراج**، وأخي المهندس/ **محمد حسين**، والأخ الأكبر وقائد صحبة الدمام الأستاذ/ **أحمد الصاوي** ومعه كل أعضاء جروب عتاريس الدمام الأعزاء.

وأخي الأستاذ/ **حمادة رمضان**، وأخي الأستاذ/ **أحمد خضر**، وصاحب الخلق الطيب جميل المعشر المهندس/ **إسلام شيحة**.

وإخوتي وأصدقاء طفولتي

(الدكتور/ **إسلام عبد القادر**، المهندس/ **محمد حماية**، الأستاذ/ **شريف السكري**، الأستاذ/ **أحمد عبد الله**، الأستاذ/ **محمود حنفي**،

الأستاذ/ **عمرو أحمد**، الأستاذ/ **أحمد فاروق**، الأستاذ/ **هيثم المنسي** الذي أنتظر أول أعماله بفارغ الصبر، ولا يمكنني أن أنسى أول من وضع الكتاب في يدي، وزرع في قلبي حب القراءة المهندس/ **علاء الديك**).

وهناك كثيرون ربما لم أذكرهم، لكنهم يعلمون مكانتهم في نفسي.

إن هذا العمل مدين لكم بالكثير أكثر مما يمكنني
التعبير عنه لكم جميعًا.

كل الحب والتقدير

محمد السيد

